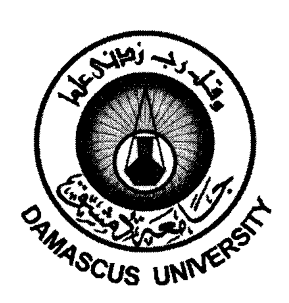
جامعة دمشق
كلية الشريعة
قسم العقائد والأديان



تاريخ الأديان

أ. د. يوسف العش　　　أ. د. محمَّد الزُّحيليّ

قامَ بمراجعته وإعادة تنسيقه

د. حسَّان القاري　　　د. ريمة الصَّيَّاد

جامعة دمشق


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

المحتويات ٥

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العالَمِيْنَ، الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ، مالِكِ يَوْمِ الدِّيْنِ، إِيّاكَ نَعْبُدُ وإِيّاكَ نَسْتَعِيْنُ، اهدِنا الصِّراطَ المُسْتَقِيمَ. والصَّلاةُ والسَّلامُ على رَسُولِ اللهِ، مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، خاتِمِ الأَنْبياءِ والمُرْسَلِيْنَ، المَبْعوثِ رَحْمَةً لِلْعالَمِيْنِ، ونَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيْكَ لَهُ، ونَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ، ونُؤْمِنُ بِاللهِ تَعالى ومَلائكَتِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ، لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ، ونُؤْمِنُ بالقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّهِ.

وَبَعْدُ: فإِنَّ مُقرَّرَ (الفرق والأَدْيانِ) مِنَ المُقرَّراتِ الطَّرِيفَةِ، لأَنَّه يَفْتَحُ للطَّالِبِ نافِذَةً على مجموعةٍ من العقائدِ المخالفةِ بأَنْواعها، فمنها أَقوالُ أَصحابِ الفرقِ التي تفرَّعت عن جذعِ سوادِ الأُمَّةِ الإِسلاميَّةِ قَديماً وحَديثاً، إِمَّا اجتهاداً وانحيازاً، وإِمَّا شُذوذاً ومُروقاً. ومنها مقولاتُ الأَدْيانِ المَوْجودَةِ اليومَ، والقائمةِ في العالَمِ.

فإلى جانبِ معرفة نشأة علم الكلام، ونشأةِ الفِرق الإِسلاميَّة ومقولاتها يَسْتَطيعُ الباحثُ عَنْ طَرِيْقِ دراسة هذا المقرر أَنْ يَتعَرَّفَ على مَبادِئ الأَدْيان المُنْتَشِرَة في الأَرْضِ، ليُقارِنَ بَيْنَها، ويَطَّلِعَ على عَقائدِها ونِظامِها وكَهَنوتِها ومُقَدَّساتِها وتَقاليدِها وَعاداتِها، ليَكونَ على مَحَجَّةٍ بَيْضاء ورسوخِ يقينٍ في اتِّباعِه الدِّينِ الحَقِّ الذي يَقْتَنِعُ به، ويدِيْنُ للهَ تَعالى به، ويَلْتَزِمُ به في حَياتِهِ وسُلوكِهِ، كَمَا أَنَّ هَذِهِ المادَّة تُعْطي صورَةً واقِعيَّةً عَلى بَعْضِ جَوانِبِ الشُّعوبِ، وَمَا يَدورُ في خَلَدِها مِنْ قِيَمٍ وأَفْكارٍ، تَمْتَدُّ في جُذورِها إلى التَّارِيْخِ السَّحيقِ، تُلقي بِظِلالِها وآثارِها على عاداتِ المُجْتَمعِ وتَقاليدِهِ وأَعْرافِهِ، وتُفسِّرُ لنا الطُّقوسَ الدِّيْنِيَةَ الغَرِيْبَةَ التي يَتَميَّزُ بها شعْبٌ

عن آخرٍ. وكما يزوِّد هذا المقرَّر الباحثَ بالمعلومات التي تُثري معرفتَه، فإنَّه كذلك يبعثُ في نفسِ من يتَّبع سبيلَ الحقِّ شُعورَ الثِّقة والغِبطة والعزَّة، ويحمله على تقديرِ ما لديه والتَّمسُّك به، ويزوِّد الدَّاعيَّة إلى سبيلِ الحقِّ بالدِّراية التي تعينه على إيصالِ دعوته إلى الآخرين بأسلوبِ الحكمة إذ يراعي ما عند كلِّ صاحبِ اعتقادٍ فيحاوره بما يناسبه.

• **خُطَّةُ الكتابِ**: كانَ الأُسْتاذُ الدكْتورُ يوسُفُ العِشّ رحمه الله تعالى أوَّلَ مَنْ تَولَّى تَدْرِيْسَ مادَّة (الفرق وتاريخ الأديان) في كُليَّةِ الشَّريْعَةِ، وألْقى فيْها مُحاضَراتٍ قيِّمَة، وكانَ الطُّلاب وقتَها يتَلقَّفونَ عِباراتهُ وجُمَلَهُ بآذانٍ صاغيَّةٍ، ويُدوِّنونها، إلى أنْ جمَعَ لَفيْفٌ مِنَ الطُّلابِ هَذهِ المُحاضَرات، ورُقِنَتْ بواسِطَةِ المِكْتابِ، لِتكونَ المُذكّراتِ المُقَرَّرَة للتَّدْريسِ.

وَبَقيَتْ هَذهِ المُذَكّراتُ هيَ مادَّةُ الدِّراسَةِ والتَّدْريْسِ طَوالَ هَذهِ الفَتْرَةِ، وَبَعْدَ وَفاةِ مؤلِّفِها رَحِمَهُ اللهُ، جاءَتِ خِطَّةُ كُليَّةِ الشَّريْعَةِ، وَمَنَحَتِ الاستِقْلالَ لِقِسْمِ (تاريخ الأدْيانِ) وَصارَ مُقَرَّراً مَسْتَقِلا، وَوُضِعَت لَهُ المُفْرَداتُ المَذْكورَةُ سابِقاً.

وَلَكِن مُذَكِّراتِ الدكْتورِ يوسُفَ العِشِّ في (تاريخ الأدْيانِ) لم تكن تُغَطِّي كامِلَ مُفْرَداتِ المِنْهاجِ الجَديْدِ، فتمَّ استِكْمال مفردات المقرر وفق الخطة الدرسية، فأُضافَ الأستاذ الدكتور محمد الزحيلي بَعْضَ النُّصوصِ المُقْتَبَسَة مِنَ المَراجِعِ، لِتَوْضيحِ الصُّوْرَةِ، واستِكْمالِ المَعْلوماتِ عَنْ هَذهِ الأدْيانِ. فضمَّ بَعْضَ النُّصوصِ المُقْتَبَسَةِ مِنْ كِتابَي الأُستاذِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ أبو زَهْرَة رحمه الله تعالى (مُحاضَراتٌ في النَّصْرانيَّةِ)، و(مُقارَناتُ الأدْيانِ - الدِّياناتُ القَديْمَةُ)، وكُتُبٍ أخرى تَناوَلتْ دِراسةَ الأدْيانِ.

وفي الخطّة الحديثةِ لمقرراتِ كلّيةِ الشّريعةِ أُعيدَ الدَّمجُ بينَ موضوعَي الفرقِ والأديانِ في مقرّرٍ واحدٍ، ولأجلِ ذلك عَمدنا إلى كتابِ الأُستاذِ الدكْتورِ محمد

سعيد رَمضان البوطي رحمه الله: (العقيدة الإسلامية والفكر المعاصر) - وكان بكامِله مقرّراً على طلاَّب السَّنة الثَّالثة -، فأُخِذَ منه ما كان يتعلّق بالفِرق الإسلاميَّة وضُمَّ إلى مفرداتِ تاريخ الأديانِ، ثم قُمنا بمراجعَة ذلك كلِّه وتهذيبه وإِعادة ترتيبه وتدقيق صياغتِه، مع متابعةِ النُّقولِ من مَصادِرها، وتصحيح الأخطاءِ، وتقويم العِبارات والتَّصرُّف ببعضِ المواضِع، وصولاً إلى تذليل مادَّة الكِتاب لتتناسبَ مع الخطَّة الدرسيَّة الجديدة. فجاءَ الكِتابُ محتوياً على تمهيدٍ وثلاثةِ أبوابٍ، على النَّحو الآتي:

- **التَّمهيد: مُقَدِّماتٌ عامَّةٌ عَنِ الدِّيْنِ.**
- **البابُ الأَوَّل: الأَدْيانُ غَيْر السَّماويَّةِ** وهي: ديانة المصريين القُدَماء (دينِ أَخْناتون)، أديان بلاد فارس (الزَّرادشْتيَّة، المانوية)، أَدْيانِ الهِنْدِ الكُبْرى، الدِّياناتُ الصِّيْنيةُ (الطاوية، والكونْفوشيوسيَّةِ).
- **البابُ الثَّاني: الأَدْيانِ الكِتابيَّةِ أَوْ (الرِّسالات السَّماويَّةِ المنزَّلة)**: اليهوديَّة والنَّصرانيَّة.
- **الباب الثَّالث: الفرق الإسلامية؛** وقد شملَ الحَديثَ عن نشأةِ علمِ الكلامِ والمذاهبِ التَّوحيديَّة في الإِسلامِ، وعلاقة ذلك بالتَّياراتِ الفكريَّة القديمة، ثمَّ دراسة أَهمِّ الفِرقِ الإِسلاميَّة، وبيان ما اختصَّ به كلٌّ منها من اجتهاداتٍ وآراءٍ.

نَسْأَلُ اللهِ تَعالى أنْ يُعلِّمَنا مَا يَنْفَعُنا، وأَنْ يَنْفَعَنا بمَا علَّمَنا، وأَنْ يهدِيَنا سَبِيْلَ الرَّشادِ، إِنَّه نِعْمَ المَوْلى، ونِعْمَ المُجيْب.

والحَمْدُ للهِ رَبِّ العالَميْنَ.

التمهيد

مقدمات عامة عن الدين

- الظواهر المرضية للدين عبر التاريخ
- مفهوم الدين وخصائص الدين الحق
- بواعث التدين الفطرية
- الدين والعلم
- أقوال العلماء في الدين
- حاجة الناس للدين

الظَّواهر المرَضيَّة للدِّين عبر التَّاريخ

وجدَ الدِّيْنُ في هَذِهِ الدُّنْيا منْذُ أوَّلِ البَشَرِيَّة في الوَقْتِ الذي خَرجَ سَيِّدُنا آدَمُ مِنَ الجَنَّةِ، وَحَطَّ قَدَمَهُ على الأَرْضِ، وخاطبَهُ ربُّه بقَوْلِهِ تَعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨].
والتَّدينُ فِطْرةٌ ذاتِيَّةٌ في النَّفسِ الإِنْسانيَّةِ - كَمَا سَنَرى - ولا يُمْكِنُ لَها العَيْشُ السَّعيدُ والرَّاحةُ والطُّمأنينةُ والسَّعادَةُ إلا تَحْتَ ظلِّهِ.

واستَمرَّ الدِّيْنُ يُرافِقُ البَشريَّةَ في أطْوارِ حَياتِها، ولَمْ يَخْلُ مُجْتَمَع ولا أُمَّة مِنْ ظاهِرَةِ التَّدينِ، ولَمْ يَمُرَّ زمنٌ أوْ عَصرٌ بِدونِ التِزامٍ بالدِّينِ، ولَمْ تقُمْ حَضارةٌ ولا أُسِّستْ مَدَنيَّةٌ، ولا نَهضَتْ أمَّةٌ إلا مِنْ وَراءِ عَقيْدَةٍ دينيَّةٍ.

وَسَيَبْقى الدِّيْنُ مُرافِقاً للبَشَرِيَّةِ إلى يَوْمِ الدِّينِ، وإلى أنْ تَفْنى البَشريَّةُ، وتَقومُ السَّاعَةُ، ويَرِثُ اللهُ الأرْضَ ومَنْ عَلَيْها. ولَكِنَّ الدِّيْنَ الحَقّ الذي أرادَهُ الله تَعالى لصَلاحِ عِبادِهِ في الأرْضِ، والذي يمتدُّ مِنْ أوَّلِ البَشَرِيَّةِ، ويَنْبُعُ مِنَ النَّفْسِ والفِطْرَةِ، وسَيَظَلُّ حَتَّى النِّهايَةِ.

هَذا الدِّينُ لم يَبْقَ على نَضارَتِه ونَقائِهِ، ولَمْ يَسْلَمْ على حالِهِ، وإنَّما عَرَضَتْ لَهُ ظَواهِرُ مَرَضيَّةٌ كَثيْرةٌ، غَيَّرتْ جَوْهَرَهُ، وعَكَّرَتْ صَفْوَهُ، وَحالَتْ دونَ تَحْقيقِ الهَدَفِ الأصْليِّ مِنْهُ، وتَعَدَّدَتْ هَذِهِ الظَّواهِرُ المَرَضيَّةُ هُنا وهُناكَ، على مُسْتَوى الأفْرادِ والمُجْتَمَعِ والدُّوَلِ، والأمْثِلَةُ على ذَلِكَ كَثيْرةٌ في التَّاريْخِ القَديْمِ والحَديْثِ، ومِنْ أهَمِ هَذِهِ الظَّواهِرِ المَرَضيَّة للدِّيْنِ عَبْرِ التَّاريْخِ مَا يلي:

١ - ضَعْفُ الإِيمانِ: تَعرَّضَ الدِّيْنُ الحَنيْفُ للوَهَنِ والضَّعْفِ في النُّفوسِ،

وتَحرَّكَتِ النَّزْعَةُ المادِيَّةُ في الإنْسانِ، فغلبته شهواته، وَطَغَى الشَّيْطانُ على أتْباعِهِ مِنَ الإنْسِ والجِنِّ للتَّهَرُّبِ مِنْ أحْكامِ الدِّيْنِ، والتَّفَلُّتِ مِنْ زِمامِهِ، والتَّحايُلِ عَلَيْهِ، والتَّلاعُبِ عَلى بَعْضِ جَوانِبِه، فتعرضَ الدينُ للتحريفِ والتبديل، أو التمزيق أحياناً حيث يُؤخذُ بعضه ويُتركُ بعضه، وكانَتِ النَّتِيْجَةُ سوْءَ الأحْوالِ الخاصَّةِ والعامَّةِ تَحْتَ سِتارِ الدِّيْنِ، وانتِشارِ الفَسادِ والضَّلالِ في الفَرْدِ والمُجْتَمَعِ، وبالتَّالي فُقِدَتِ المَقاصِدُ الأساسِيَّةُ للْدِّينِ، وتَعَرَّضَتِ المَصالِحُ الحَقِيْقِيَّةُ للضَّياع.

٢ - المُتاجَرَةُ بالدِّيْنِ: قامَ بَعْضُ حَمَلَةِ الدِّيْنِ باستِغْلالِهِ والتَّسَتُّرِ وَراءَهُ لتَحْقيْقِ أغْراضِهِم الشَّخْصِيَّةِ، وَمَطامِعِهِم الذَّاتِيَّةِ، وَمُيولِهِم الدَّنِيْئَةِ، وَشَهَواتِهِم الحَيَوانيَّةِ، واتَّخَذوا الدِّيْنَ سِلْعَةً للمتاجَرَةِ والمُساوَمَةِ لِسَلْبِ خَيْراتِ النَّاسِ، وابتِزازِ أمْوالِهِم، والوصولِ باسْمِ الدِّيْنِ إلى المَناصِبِ والمَراكِزِ، والتَّمَتُّعِ بِشَهْوَةِ السُّلْطَةِ، وفَرْضِ النُّفوذِ على الآخَرِيْنَ، فَكانوا أسْوأَ مَثَلٍ لرِجالِ الدِّيْنِ.

٣ - إضْفاءُ الصِّفَةِ الدِّيْنِيَةِ على الفَلْسَفَةِ والآراءِ: ظَهَرَ في مَناطِقَ مُتَعَدِّدَةٍ مِنْ أرْجاءِ المَعْمورَةِ، وفي أحْقابٍ زَمَنِيَّةٍ مُخْتَلِفَةٍ، ظَهَرَ عَدَدٌ مِنَ الفَلاسِفَةِ والمُفَكِّرِيْن، وأرادَ هَؤلاءِ الفَلاسِفَةُ أنْ يَنْشُروا فَلْسَفَتَهُم وأفْكارَهُم بيْنَ النَّاسِ، فاستَغَلُّوا مَكانَةَ الدِّيْنِ في النُّفوسِ، وأضْفَوا على فَلْسَفَتِهِم وأفكارِهِم الصِّفَةَ الدِّيْنِيَةَ، وألْبَسوها رِداءَ الدِّيْنِ، لِيَضْمَنوا الاقتِناعَ بِها بسُرْعَةٍ في النُّفوسِ ويُحَقِّقوا انتِشارَها، وَصارَتْ هَذِهِ الفَلْسَفَاتُ أدْياناً في التَّاريْخِ والمُجْتَمَعِ، ومِنْ هُنا ظَهَرَتِ الأدْيانُ الوَضْعِيَّةُ التي اخْتَرَعَها النَّاسُ افتِراءً وَكَذِباً وَزوْراً على رَبِّ العالَمِيْنَ، وَكانَتِ النَّتيْجَةُ أنْ تَعَدَّدَتِ الأدْيانُ، واختَلَطَ الحابِلُ بالنَّابِلِ، وظَهَرَتِ الأدْيانُ السَّماوِيَّةُ بَجانِبِ الأدْيانِ الأرْضِيَّةِ، والأدْيانُ المُنَزَّلَةُ إزاءَ الأدْيانِ الوَضْعيَّةِ، والأدْيانُ الصَّحِيْحَةُ مُعاصِرَةً لِلأدْيانِ الفاسِدَةِ المُزَوَّرَةِ.

٤ - الجَهْلُ بالدِّيْنِ: وَكانَ أكْبَرَ عَوْنٍ عَلى مُعاداةِ الأدْيانِ الصَّحِيْحَةِ الجَهْلُ

بِها، لأنَّ الإِنْسانَ عَدوُ مَا يَجْهَلُ، وظَهَرَتْ جَماعاتٌ كَثيْرَة تَجْهَلُ الدِّيْنَ السَّليْمَ، لَكِنَّها لم تتَخلَّ عَنْ التَّمسُّكِ به فوجدَتْ حَظَّها بالتَّقاليدِ المُتوارَثَة، والعاداتِ السَّيِّئَةِ، والأَعْرافِ الباطِلَةِ التي صارَت في نَظَرِ النَّاسِ ديْناً يَنْقلونَهُ منَ الأَجْدادِ إلى الآباءِ، ثُمَّ يَتَوارَثُهُ الأَبْناءُ والأَحْفادُ، حَتَّى انقلَبَتْ حَياتُهُم (الدِّيْنِيَّة) إلى وَثَنيَّةٍ سَوْداء، وشِرْكٍ وَضيْعٍ، وقَدْ ضَلَّ سَعيُهُم في الحَياةِ الدُّنْيا، وَهُمْ يحسبون أنَّهُم يُحْسِنونَ صُنْعاً، أُولَئكَ هُمُ الأَخْسَرونَ أَعْمالا.

٥ - **التَّبْشيْرُ والاسْتِعْمارُ:** اتَّخذَتْ بَعْضُ الدُّوَلِ فِي العُصورِ الحَديْثَةِ سياسَةً مُزْدَوَجَةً نَحْوَ الدِّيْنِ، فأَعْلَنَتِ الحَرْبَ عَلَيْهِ في الدَّاخِلِ، وقَرَّرَتِ التَّخَلُّصَ مِنْهُ، وإِغْلاقَ مَنافِذِهِ، وَمَنْعَ تَعْليْمِهِ، واضطهادِ رِجالِهِ، وَتَشْويهَ سمْعَتِهِ، وإِلْحاقَ الشُّبَهِ والأَباطيلِ والمَساوِئَ فيهِ، بَيْنما تَبَنَّتِ الدَّعْوَةَ إِلَيْهِ خارجَ البِلادِ، وأَرْسَلَتْ البَعَثاتِ التَّبْشيْرِيَّةِ في شَرْقِ الأَرْضِ وَغَرْبِها، وأَمَدَّتْهُم بِكُلِّ مَا يَحْتاجونَهُ، فَقامَ هَؤلاءِ بالتَّبْشيْرِ بالدِّيْنِ مِنْ جهَةٍ، وإِماطَةِ العقَباتِ أَمامَ الجُيوشِ الزَّاحِفَةِ للاسْتِعْمارِ العَسْكَريِّ والسِّياسيِّ والفِكْريِّ والاقْتِصاديِّ مِنْ جِهَةٍ أُخْرى.

٦ - **الإِلْحادُ والعِلْمانيَّةِ:** ظَهَرَتْ فِي العُصورِ الحَديْثَة دَعَواتٌ إِلْحاديَّةٌ كَثيْرَةٌ، ونَجَحتْ بَعْضُ هَذِهِ الأَفْكارِ الإِلْحاديَّةِ في استِلامِ السُّلْطِة وإِقامَةِ الدُّوَلِ على أَساسِ الإِلْحادِ والعِلْمانيَّةِ، وأَخَذَتْ على نفسِها مُحارِبَةَ الأَدْيانِ، وكوَّنَتْ عَنْ الأَدْيانِ فكْرَةً قاتِمَةً سَوْداء، مستَغَلَّةً التَّاريْخَ الأَسْودَ عَنْ بَعْضِ حُقَبِ التَّاريْخِ لِلأَدْيانِ، فرَسَمتْ للدِّيْنِ صُورَة بَتْراء لِبَعْضِ الأَفْكارِ الدِّيْنيَّةِ المُحَرَّفَةِ، صُورَةً مُصْطَنَعَةً اصطِناعاً، تَعْلوها الرُّتوشُ الشَّيْطانيَّةُ، وقرنت بِهَذِهِ الصُّورَة صُورَةً لَمَّاعَةً برَّاقَةً، تتجلَّى في التَّقَدُّمِ العِلْميِّ ومُعطياتِ الحَضارةِ والإِنتاجِ الصِّناعيِّ الحَديْثِ، والتَّقنيَّةِ الفَنيَّةِ، والمُكتَشفاتِ العَظيمةِ، والاختِراعاتِ المُتلاحقَةِ، والوَسائِلِ المُتَعَدِّدَةِ التي يُسخِّرُها الإِنْسانُ في حَياتِهِ ومواصَلاتِهِ، وتُزيلُ عنه مَتاعِبَ الماضي في

مُختَلَفِ اتِّجاهاتِ الحَياةِ، مِمَّا يَخْلُبُ الأَنْظارَ، ويَشْغَلُ الفِكْرَ، ويَحجُبُ كَثِيْراً مِنَ البُسطاءِ عَنْ كشْفِ الحَقِيْقةِ، والتَّعمُّقِ في النَّظرَةِ، مما رسَّخ في نُفوسِ بعضِ النَّاسِ أَنَّ الدِّيْنَ (موضَة) قَديمَة، قَدْ ولّى زَمانُها، ولَمْ يبْقَ لها فائدَةٌ، وليْسَ للإِنْسانِ حاجَة إِلَيْها، ويُمْكِنُ بسُهولَةٍ ويُسْرٍ الاستِغْناء عَنِ الدِّيْنِ وفصْلِهِ عَنْ الدَّوْلَةِ، وإِبعْادِهِ عَنْ مَجالِ الحَياةِ، وتابَعوا الشَّطَطَ فَقَالوا: إنَّ الدِّيْنَ والتَّدَيُّنَ ظاهِرَةٌ سيِّئَةٌ وعَلامَةٌ على التَّخَلُّفِ وَهوَ سَبَبُ البَلاءِ والتَّأَخُّرِ والجُمودِ في كَثِيْرٍ من البُلْدانِ، واستَدَلُّوا على ذَلِكَ بأَنَّهُمْ أَصْبَحوا فِي عَصْرِ المَدَنيَّةِ والحَضارَةِ، وأن العِلْم أَساسُ كُلِّ شَيْءٍ، ويُحَقِّقُ للإِنْسانِيَّةِ كُلَّ شَيْءٍ، ويَحلُّ - بَلْ يَجِبُ أَنْ يَحُلَّ - مَحَلَّ الدِّيْنِ.

مفهوم الدِّين وخصائص الدِّين الحقّ

نحاول أَنْ نُبَيِّن المَفْهوم الصَّحيْح للدِّيْنِ، ونميِّزه عَنْ المَفْهومِ الخطأ الشَّائع بيْنَ النَّاسِ، لتكون دراستنا مبنيَّةً على أَساسٍ سَليْمٍ ومعنى دقيقٍ، ونقدِّم لذلك بالتَّعْريْفِ اللُّغويِّ:

تَعْريْف الدِّيْنِ لغةً:

تعدَّدتْ معاني الدِّيْنِ في اللُّغة، وأرى أن **هَذِهِ المعاني تنحصر في إيجاد عَلاقَةٍ بيْنَ طرفين**:

الطرف الأَوَّل يتمتَّع بالسُّلْطانِ والقوَّةِ والجبروتِ والحكم وحقِّ القهرِ والمحاسبة والمكافأة والمجازاة.

والطرف الثاني يقفُ في الجانِبِ الآخر ويتَّصِف بالخضوعِ والطَّاعةِ والذل

والاستكانة والعبادَةِ والورع.

والعَلاقَة بِيْنَ الطرفين هيَ الدِّيْنُ أَوْ المنهج والطَرِيْقة التي تحدد عَلاقَة الأوَّل بالثاني وبالعكس[1].

وكلمةُ الدِّينِ لها ثلاثة جوانبَ، تدلُّ على العَلاقَةِ السابقةِ التي أشَرْنا إليها[2]، وَهيَ:

١ - دانه ديناً: أي ملكه وحكمه وقهره وأذله واستعبده، وحاسبه وكافأه، فالفعل المُتعدّي بنفسه يمثل الطرف الأوَّل الذي يتمتَّع بمعنى الملك والتصرف.

٢ - دان له: أي أطاعه وخضع لَهُ أَوْ ذل أَوْ استكانَ أَوْ عبد، فالفعل المُتعدّي باللام يمثِّل الطَّرف الثاني المتَّصف بالخضوع والطاعة.

٣ - دان بِهِ، أَوْ أدان بالشَّيءِ: أي اتَّخذه ديْناً ومَذْهَباً، أي اعتقده أَوْ اعتاده، ودان بالإِسْلام ديْناً أي تعبَّد به وتديَّن، وهوَ الدِّيْنُ أَوْ المِلَّة، فالفعل المتَعدي بالباء يمثل الطَرِيْقة أَوْ المَذْهَب.

---

(١) أقرب الأمْثِلَة لتوضيح هَذِهِ المعاني وبيان هَذِهِ العَلاقَة كلمة:

(الدَّيْن) فإنه يفهم منها فوراً عَلاقَة بِيْنَ طرفين، أحدهما دائنٌ، وله حقُّ المطالبة، والآخر مَدينٌ، وعليه التزام الدفع وواجب الأداء، الأوَّلُ يطالب، والثاني مطالب، والمال المطلوب هوَ الدَّيْنُ، والقواعد التي يتبعها الدائن والمدين في الدَّفع والسَّدادِ والتَّوقيتِ هيَ الشَّرِيْعَةُ والقانونُ، والفَرْقُ بِيْنَ الدِّينِ - بالكسر -، والدَّين - بالفتح - أنَّ أحدهما يتضمَّن في الأَصْل التزاما أدبياً، والآخر التزاما مالياً.

ومثل كلمة (البَيْع) فإنها تدل على عَلاقَة بِيْنَ طرفين هما البائع والمشتري ومحلُّ العَلاقَة هوَ المبيع ونظام البيع.

(٢) انظر القاموس المحيط: ٤/٢٢٥، المصباح المنير: ١/ ٢٧٩، مختار الصحاح: ٢١٨، الدِّيْنُ للدكتور مُحَمَّد عَبْد الله دراز: ٢٦، والنهاية، لابن الأثير: ٢/١٤٨، المصطلحات الأَرْبَعَة فِي القُرْآنِ، أبو الأعلى المودودي: ١١٦.

تَعْرِيف الدِّيْنِ اصطلاحاً:

أولاً - عِنْدَ الغربيين:

ظَهَرَتْ تَعْرِيْفات كَثِيْرَة للدِّيْنِ فِي الغرب، وَكانت تنطلق كلُّها من نظرتهم إِلى الكنيسة الكاثوليكية وتاريخها فِي العُصورِ الوُسْطى، ومَوْقِفها مِنَ المُلوكِ والحُكّامِ والإقطاع والرِّق والحروب والحجر على العِلْم والاكتشافات، ثُمَّ مَوْقِف الثورة الفرنسية وَمَا تبعها من الكنيسة ورجال الدِّيْنِ والأفْكارِ الدِّيْنيَّةِ، ثُمَّ تبَنِي العلمانية ومحاربة الدِّيْنِ وطرد رجال الدِّيْنِ الذين كانوا يمثلون السُّلْطِة الرُّوْحيَّة والماديَّة العليا، ويوجِّهون السياسة والتَّشْرِيْع والقضاء فِي العَهْدِ السابق[1]. ومن خِلالَ هَذِهِ الصُّورَة ظَهَرَتِ التَّعْرِيْفاتُ المتباينة عَنِ الدِّيْنِ، وهي تَعْرِيْفات كَثِيْرَة جداً[2] نقتصر على ثَلاثَة نماذج منها:

١- يقول **جويوه** في كتاب (لا دِيْنيَّة في المستقبل): (الدِّيانَةُ: هِيَ تصوُّر المجموعة العالمية بصُورَةِ الجماعة الإِنسانية، والشعور الدِّيني هوَ الشعور بتبعيتنا لمشيئات أُخرى يركزها الإِنسان البدائي في الكون).

فهذا التَّعْرِيْفُ يمثِّل النَّموذج الذي ينكر جَوْهَرَ الدِّيْنِ في وجود الخالِق المبدع، أوْ الإِله المعبود، ويتَّجه إِلى الاستخفاف والاستهزاء والسّخرية من الدِّيْنِ، وأنه تصوُّر مثالي للإِنْسانِيَّةِ، أَوْ اختراع لمشيئات من العَقْلِ البدائي.

٢- يقول **شلاير ماخر** في (مقالات عَنْ الدِّيانَةِ): (قوام حقيقة الدِّيْنِ شعورنا بالحاجَةِ والتَّبعيَّةِ المُطْلَقة لقوَّةٍ قاهرةٍ).

وهذا تفسيرٌ نفسيٌّ محضٌ، يصوِّر النَّقص في الذَّات الإِنْسانيَّة وأنها تتطلَّع إِلى

---

(١) انظر: دراسات فِي النَّفْسِ الإِنْسانية: ٢٢٨، الدِّيْنُ والحَضارَةُ الإِنْسانية: ١٠، الدِّيْنُ: ٨٢.

(٢) انظر هَذِهِ التَّعْرِيْفات في كتاب الدِّيْنِ، لدراز ٢٩ وَمَا بعدها.

الكمال، ولذلك فإنَّه يُعرِّف جانباً بسيطاً من الدِّيْنِ، ولَكِنَّهُ يتنكّر لوجود المعبود، ويتجاهل حقيقة الدِّيْنِ وأثره في النُّفوس والعقول، ووظيفته في التَّشْرِيْع والأخلاق.

٣- يقول **الأب شاتل** في كتاب (قانون الإنسانية): (الدِّيْنُ هوَ مجموعة واجبات المخلوق نحو الخالِق: واجبات الإِنْسان نحو الله، واجباته نحو الجماعة، وواجباته نحو نفسه).

وَهوَ أرقى تَعْرِيْف للدِّيْنِ عِنْدَ عُلَماءِ الغرب، وَهوَ يمثِّل طبيعة الدِّيْنِ النَّصرانيّ بَعْدَ انحسار الكنيسة عَنْ الحَياةِ والسُّلْطِة، وتحديد مهمتها في أماكن العبادة، وأنَّ وظيفتها تنحصر في صِلَة الإِنْسانِ بربِّه من الناحية الرُّوْحيِّة، وَصِلَته بالمُجْتَمَع من الناحية الخُلقية، أما ما يتعلق بالتشريع والسياسة فلا علاقة للدين بذلك.

ثانياً - عِنْدَ عُلَماءِ المُسْلِمِيْن:

اشتهر على لسان عُلَماءِ المُسْلِمِيْن تَعْرِيْف الدِّيْنِ بأنَّه: (وَضْعٌ إِلَهيٌّ يُرْشِدُ إِلى الحَقِّ في الاعتِقاداتِ، وإِلى الخَيْرِ في السُّلوكِ والمُعامَلاتِ).

ويقولونَ في تَعْرِيْف آخَرَ: (وَضْعٌ إِلَهيٌّ، سائقٌ لِذوي العُقولِ السَّلِيْمَةِ باخْتيارِهِم إِلى الصَّلاحِ في الحالِ، والفَلاحِ في المَآلِ).

ويصرح التَّعْرِيْفُ الإِسْلاميّ بثَلاثَة أُمورٍ جوهرية، وَهيَ:

١- أنَّ الدِّيْنَ **وضع إلهي**، وليس من إيحاء النَّفْس، أوْ تخيل العَقْلِ، أوْ تنظيم الإِنْسان، فالله سبحانه وتَعالى أنْزل الدِّيْنَ الحَنيْف، وأوحى بمَبادِئِهِ وتعاليمه وقيَمِه، تحقيقاً لقولِه تَعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨]، وأنَّ الله سبحانه الذي خلق الإِنْسانَ واختاره خليفةً في الأَرْضِ لم يخلقه عَبَثاً، وَلَمْ يتركه سُدى.

٢- أنَّ التَّعْرِيْفَ ينصُّ على أنَّ الدِّيْنَ عَقيْدَة وشريعة، أوْ عَقيْدَة ونظام في

الحَياةِ، فَهوَ ليس مجرَّد اعتقاد، بَلْ هوَ الاعتقاد الحقُّ، والإِيْمانُ الصَّحيْحُ الذي لا يشوبه شيءٌ، وَهوَ ليس مجرَّد شريعةٍ ونظامٍ فحسب، بَلْ هوَ نِظامٌ ربانيٌّ، وشريعةٌ إِلَهيَّةٌ لضمان الفوز والفلاح في الدُّنْيا والآخِرَة.

٣- بيان الربط **بيْنَ العَقيْدَة والعَقْلِ**، وأنَّ الدِّيْنَ متَّفِقٌ تماماً مَعَ العَقْلِ السَّلِيْمِ، وأنَّه لا مُنافاةَ ولا مناقضة بيْنَ الدِّيْنِ والعَقْلِ.

*** المَفْهوم الصَّحيْح للدِّيْنِ:**

ومِنْ هُنا نصِلُ إِلى المَفْهومِ الصَّحيْحِ للدِّيْنِ الذي استعمله القرآن الكريم بالإِضافةِ لاستعمالِه للدِّيْنِ بالمعاني اللُّغويَّة السابقة، فالقرآن الكريم استعمل الدِّيْنَ بمعنى عام شاملٍ جامعٍ، **ويريد به النِّظام الكامل**، نِظامَ الحَياةِ الذي يُذْعِنُ فيه المرءُ لسُلْطة عُليا، ثُمَّ يقبل إِطاعته واتباعه، ويتقيَّد في حَياتِهِ بحُدودِه وقواعدِه وقَوانيْنِه، ويرجو في طاعته العزَّ والفوز بالدَّرجات العليا وحسن الجَزاءِ، ويخشى في عصيانه الذِّلَةَ والخزي وسوْءَ العِقاب[1].

وقد وردت آياتٌ كَثيْرَةٌ تستَعمِلُ كلمةَ (الدِّيْنِ) بهذا المعنى العام الكامل الشامل لجميع نواحي الحَياةِ الاعتقاديَّةِ والفكريَّةِ والخلقيَّةِ والعمليَّةِ، نَذْكُرُ بَعْضَها:

قال تَعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]، وقال تَعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

---

(١) المصطلحات الأربَعَة فِي القُرآن: ١٢٦.

خصائص العَقيْدَة الدِّيْنيَّةِ:

إنَّ الميِّزاتِ التي تجعَلُ منَ الخُضوعِ ديْناً أَمْ لا، تنقسمُ باختصارٍ إلى قسمَيْنِ:

أ - صفات الشيء الذي يقدِّسه المتديِّن. ب - العنصر الذاتي النفسي[1].

ويُمْكِنُنا تفصيل ذَلِكَ بشرحِ الخصائص المهمَّة للعَقيْدَةِ الدِّيْنيَّةِ، وَهيَ:

١- إن الإِنْسان يُقدِّس الشرف والعرض والحريَّة والكرامة، ويخضع لقَوانيْنِ الكون وسننه الثَّابتة، ولَكِن هَذِهِ الأُمور لا تسمى ديْناً، لأنَّها معانٍ عقليَّة مجرَّدة وتصورات شائعة مُبْهَمِة، أمَّا المُتديِّن فإنَّه **يهدف إلى تقديس حقيقةٍ خارجةٍ عَنْ نطاقِ الأَذهانِ،** وإن كانت لا تُعبِّر عنها الأذهان أوْ لا تستطيع تصوّرها، **فالتَّقْديْسُ الدِّيْنيُّ يتَّجه إلى ذات مستقلَّةٍ قائمةٍ بنفسها،** وتكون العَقيْدَة الدِّيْنيَّةُ صِلَة بيْنَ ذاتٍ وذاتٍ، لا بيْنَ ذاتٍ وفكرَةٍ مجرَّدةٍ.

٢- إن الذات التي يُقدِّسها المُتديِّن **شيءٌ غيبيٌّ** لا يحيطُ بحقيقة كنهه عقل الإنسان ووجدانه، وإن أدرك وجوده وعرَف شيئاً من صفاتِهِ.

٣- إنَّ الذَّات المُقَدَّسَة **ذات قوَّة فعَّالةٍ ومؤثِّرةٍ** في غيرها، كَمَا أنها **ذات قوَّة عاقلة** تُدرِك أهدافَها، وتتَّجه بالفعل إلى تَحْقيْقِ أغْراضِها بمحضِ إرادَتها ومشيئتها.

٤- **إن هَذِهِ القوَّة العاقلة المدبِّرة لها اتِّصالٌ معنويٌّ بنفس المُتديِّن** وبالنَّاس جميعاً، وليست بعيدةً عنهم أوْ منقطعةً عَنْ حَياتِهِم، بَلْ تَرْعى شؤونهم، وترعى آمالهم وآلامهم، وتسمع دُعاءَهم ونجواهم، وتكشِف السُّوْءَ عنهم متى شاءَت ذلك، ولها عناية مستمرَّة بشؤونِ العالم الذي تدبرُه.

---

(١) راجع الدِّيْنِ، للدكتور مُحَمَّد عَبْد اللهِ دراز: ٣٦ وَمَا بعدها، دراسات في النَّفْسِ الإِنْسانية: ٢١٤.

٥- **إن هَـذِهِ القـوَّة المعبـودة هـيَ قـوَّةٌ علويَّـةٌ سُـبحانيَّةٌ قـاهرَةٌ،** يخضـع لـها المُتديِّنُ، ويقف منها العابد مَوْقِف الآمل المتَواضعِ، يطلـب منـها الرضـى، ويُشْفِقُ من غضبِها وسخطها.

٦- **العنصـر الـذاتي النَّفْسـي:** ويضـاف إلى الخصـائص السـابقة في موضـوع العَقيْـدَة الدِّيْنيَّـةِ عنصـر ذاتيّ نفسـيّ يتميَّـز بـه الـمُتديِّن عَـنْ غـيره، وهـوَ الخضـوع الشُّعوريّ الاختيـاريّ للمعبـود، فالـمُتديِّنُ يُقـدِّس ويمجِّـد معبـودَه عَـنْ طواعيـةٍ واختيارٍ، لأنه يستحقُّ ذلك، ويقوم بالعبادةِ والتَّعظيمِ مَتى كانَ مُقتَنِعاً بِـدونِ إكـراهٍ، ولذلك بيَّنَ القرآن الكريم أنَّ الصَّلاةَ كَبيْـرة وشـاقَّة وصـعبة إلا علـى الـمُتَّقين، قـال تَعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلا عَلَى الْخَاشِعِينَ * الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٥ - ٤٦].

٧- وكذا فإنَّ خضوعَ المُتديِّن لمعبودِه يُشعرُه بالتَّرفيه عَنْ القلـبِ، ويفـتح أمامه الآفاق، ويُنْزِلُ عَنْ ظهره الأثقالَ، ويجعله يتطلَّع باستمرار إلى الأمَـلِ وتفـريج الكروب دون أنْ يتسرَّب إلى نفسه اليـأس أوْ يفـرض عَلَيْـهِ الكبـتَ، أوْ يسـدَّ أمامـه الأمَلَ، أوْ يحدَّ من عمله، بَلْ يَكـونَ الـمُتديِّنُ دائمـاً بِيْـنَ الرَّغبـةِ والرَّهبـةِ، أوْ بِيْـنَ الأمَلِ والحذَرِ والرَّجاء.

هذه الصِّفاتُ تُمثِّل خصائص العَقيْدَة الدِّيْنيَّةِ، وتُميزها عَنْ غيرها من العقائـد والمَبادِئ والأفْكارِ، ولذلك فقد **لخَّص الدكتور دراز مفهوم الدِّيْنِ الصَّحيْح بقولِه:**

(الـدِّيْنُ هـوَ الاعتقـادُ بوجـودِ ذاتٍ - أوْ ذواتٍ - غَيْبيَّـةٍ عُلْويَّـةٍ، لهـا شـعورٌ واختيـارٌ، ولهـا تَصرُّفٌ وتـدبيْرٌ للشُّؤونِ الـتي تعـني الإنْسـانَ، اعتِقَـادٌ مِنْ شأنه أنْ يَبْعَثَ على مُناجاةِ تلك الذَّاتِ السَّاميةِ في رَغْبَةٍ وَرَهْبَةٍ، وفي خُضوعٍ وتَمْجيْدٍ).

ويقولُ: (وبعبارَةٍ مُوجَزَةٍ: هوَ الإِيْمانُ بِذاتٍ إلَهيَّةٍ جَديْرَةٍ بالطَّاعَـةِ والعِبـادَةِ،

هَذا إِذا نَظَرْنا إِلى الدِّيْنِ مِنْ حَيْثُ هوَ حالةٌ نَفْسيَّةٌ، بِمَعْنى التَّدَيُّنِ، أَمَّا إِذا نَظَرْنا إِلَيْهِ مِنْ حَيْثُ هوَ حَقيْقَةٌ خارِجَةٌ فَنَقولُ: هوَ جُمْلَةُ النَّواميْسُ النَّظَرِيَّةُ التي تَرْسُمُ طَرِيْقَ عِبادَتِها)[1].

بواعث التَّدَيُّن الفطريَّة

الأَدلَّة الفَلْسَفيَّة عَلى الغَرِيْزَةِ الدِّيْنِيَّةِ:

ويَستدِلُّ عُلَماءُ الأَدْيانِ والاجتماعِ والفَلْسَفَةِ على كَوْنِ التَّدَيُّن فطرةً بالاستقراءِ والاستنتاجِ، للكشْفِ عَنْ بَواعِثِ التَّدَيُّنِ الفِطْرِيَّةِ، ويُمْكِنُ إِيجازُها بِمَا يلي:

١ - إنَّ <u>**نَزْعةَ التَّدَيُّنِ ظَهَرَتْ من غَريزَةِ التَّطلع إِلى الغيب**</u> ومحاولةِ معرفةِ الحَقيْقةِ الرَّابضةِ وراءَهُ، وعدمِ الوقوفِ عِنْدَ حقيقَةِ الواقعِ الحسيِّ، والعودةِ إِلى التَّأَمُّلِ في المسائلِ الأَزليَّةِ:

لم خُلقِ الإِنْسانُ؟ ومن خلقَه؟

ولم خُلِقَ الكَوْنُ؟ ومتى؟ ومن خلقَه؟

وَمَا هوَ مبدأُ الإِنْسانِ؟ وَمَا هيَ غايتُه وهدفُه؟ وإِلى أَيْنَ نسيرُ؟

وَمَا هيَ نهايةُ الكَوْنِ؟

وَمَا هوَ مَصيْرُ الإِنْسانِ؟ وماذا بَعْدَ المَوْتِ؟

وغير ذَلِكَ من الأَسئلَةِ التي تَدْفَعُ الإِنْسانَ إِلى الإِيْمانِ باللهِ، وإِلى النَّظرِ والبَحْثِ والسَّعيِّ والعِلْمِ والاكتشافِ، وهذا التَّطلُّعُ والتَّأَمُّلُ في هَذِهِ القضايا الغيبيَّةِ

---

(١) الدِّيْنُ، له: ٤٩، وانظر دراسات فِي النَّفْسِ الإِنْسانية: ٢١٤.

كانت ولا زالتْ وستبقى الشُّغْلَ الشَّاغِلَ للإنْسانِ، ويريدُ الوصولَ إلى اليَقيْنِ أمامُ مُشْكِلاتِ الكَوْنِ الكُبْرى، مَهْمَا تقدَّمَتْ به المَدَنيَّةُ، وتَعَدَّدَت الاكتشافات، وتَرقَّى العِلْم، لأنَّ العِلْمَ عاجزٌ قطْعاً عَنْ الإجابَةِ على هَذِهِ الأسئلَة، وأنَّهُ مُقيَّدٌ بكَشْفِ نَواميْسِ الكَوْنِ دوْنَ أَنْ يغيِّرَ منها شيْئاً، وأنَّ مَجالَه مُحدَّدٌ في النَّواحي الماديَّةِ التي وضِعَتْ تَحْتَ حواسِّه، كَمَا سَنَرى بَعْدَ قليلٍ.

٢ - **عَجْز الإنْسانِ وحاجَتُه إلى قوَّةٍ جبَّارةٍ تُنْقِذُه مِنَ المهالكِ** وتُعينُه وقت الشِّدةِ، ويستغيثُ بها وقت الضِّيقِ، فتنجده وتخرجه مِنَ المآزقِ، وتُقَدِّمُ لَهُ العونَ عِنْدَ الحاجَةِ، وهذا العَجْزُ موجودٌ في كُلِّ نَفْسٍ، ويلمسُه الإنْسانُ في نفسِه، ويسمعُه من غيرِه.

سألَ رجلٌ الإمامَ جعفرَ الصَّادق عنِ اللهِ فقالَ: ألمْ تركبِ البحرَ؟ قال: بَلى، قالَ: فهلْ حدَثَ لكَ مرَّة أنْ هاجَتْ بكم الرِّيحُ عاصفَةً؟ قال: نعم، قال: وانقطعَ أمَلُكَ مِنَ المَلاحينَ والنَّجاةِ؟ قال: نعم، قال: فهلْ خطرَ في بالكَ وانقدحَ في نفسِك أنَّ هُناكَ مَنْ يَسْتَطيعُ أَنْ يُنْجيكَ إنْ شاءَ؟ قال: نعم، قال: فذلكَ هوَ اللهُ.

هذا الشُّعورُ النَّفْسيُّ بوجودِ المُنْقِذِ مِنَ الهَلاكِ، والمُنْجي من الهمِّ والغمِّ والحزنِ والكَربِ، إمَّا أنْ يبقى مَعَ الإنْسان فيكونَ مؤمِناً، وإمَّا أنْ يتنكَّر لَهُ، ويجحَد هذا الفَضْل، ويُعْرِضُ عَنْ ربِّه، فيَكونَ كافراً ومُلْحداً أوْ ضالا، وقد صوَّر القُرآنُ الكَريْمُ في آياتٍ كَثيْرَةٍ، ومواطِن مختلفَةٍ هَذِهِ النَّماذجَ مِنَ النُّفوسِ، منها:

قوله تَعالى: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٦٢ - ٦٣].

٣ - ومن دوافعِ الفِطْرَةِ إلى التَّديُّنِ **الإحساسُ بالرَّهبةِ** أمامَ هذا الكَوْن العظيم

وَمَا يَجْري فيه مِمَّا يُحرِّكُ أحاسيسَ الإنْسانِ، ويوقِظُ مَدارِكَه، ويدفعُ عقلَه - بالغريزةِ والفِطْرَةِ - ليبحَثَ عَنْ خالقِ الكَوْنِ، فيأنسُ بِهِ، ويُطَمِئنُ قلبَه عندَه، ويُهدِّأُ روعَه وخوفَه، ويعقِدُ أواصِرَ التَّقرُّبِ لَهُ، ثُمَّ يُقدِّمُ الطَّاعَةَ والعِبادَةَ لعظَمتِه، وهذا هوَ الدِّيْنُ.

ومن ذلك قوله تَعالى على لسان إبراهيم: ﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلا يُنْقِذُونِ﴾ [يس: ٢٢ - ٢٣].

٤ - مِنَ الدَّوافِعِ الفِطْرِيَّة للتَّديُّنِ المَوْتُ الذي يَرْدَعُ الأحياءَ ويهزمُهم إلى الأعماقِ[(١)]، وينبِّه فيهم القوى المعطَّلة، والأجهزة المتجمِّدة، - والإحساس المخدّر، ويزيل من أمامهم الحُجبَ، ويَكْشِفَ لَهُمْ الطَرِيْقَ، ويُذْهِبُ الغبشَ عَنْ العَيْنِ، فيَصْحوا الإنْسانُ لنفسِه، ويتفكَّرُ في حَياتِهِ، ويبحثُ عَنْ الهدفِ مِنْ الحَياةِ، ويستطلِعُ مَا بَعْدَ المَوْتِ، ويُدْرِكُ تَماماً قيمةَ الحَياةِ الآخِرَةِ، وتفاهَةَ الدُّنْيا، وأنَّها مَتاعٌ قليلٌ، وأنَّ الكمالَ الحقيقيَّ الذي يَتَّفِقُ مَعَ تَكْريمِ الإنْسانِ وتفضيلِه على سائرِ المَخْلوقاتِ أنْ تَكوْنَ نفسُهُ وروحُه باقيَةً بَعْدَ المَوْتِ، وأنَّ لها حياةً أُخْرى بَعْدَ هَذِهِ الحَياةِ يلتَقي فيْها الأحبَّةَ والخُلانَ، وفيها يُحاسَبُ كُلَّ إنسانٍ على عملِه، لتَتَحَقَّقَ العدالَةُ المُطْلَقَة، فَيَلْقى كُلُّ إنسانٍ جَزاءَ عملِهِ، إنْ خَيْراً فخيْرٌ، وإنْ شرّاً فشرٌّ، يقولُ الإمامُ عليٌّ كرَّم الله وجهه: «النَّاسُ نيامٌ فَإذا مَاتُوا انْتَبهوا»[(٢)] ونقْشُ عُمَرَ رضي الله عنه على خاتَمِه: «كَفى بالمَوْتِ واعِظاً لَكَ يا عُمَر»[(٣)].

---

(١) دراسات في النَّفْسِ الإنْسانية: ٢٢١.

(٢) كشف الخفاء: ٢/٤٢٢.

(٣) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق: ٤٤/٢٦٠.

٥ - **التَّأَمُّلُ في نِظَامِ الكَوْنِ وأَجْزائِهِ والتَّفكُّر في المخلوقاتِ**، بَدَءاً من الإِنْسانِ وتَكْوِيْنِه وأعضائهِ وأجهزتهِ، وليسَ انتِهاءً بالنُّجومِ والمجرَّاتِ وطبقاتِ الأَرْضِ... وكلَّما تقدَّمَ العِلْمُ وقفَ العُقَلاءُ مَبْهورينَ من عظمةِ هذا الكَوْنِ ونظامِه الدَّقيقِ، ليقِفوا بكلِّ خشوعٍ وإجلالٍ وتذلُّلٍ أمامَ القدرةِ الخالِقةِ المكوِّنةِ، وهذا انتقالٌ مِنَ المخلوقِ إلى الخالِقِ، ومن الطَّبيعَةِ إلى مُكوِّنها وبارئها، ومِنَ المسبِّب إلى السَّببِ، ومِنَ المصنوعِ إلى الصَّانعِ، مِمَّا يقتضيهُ العَقْلُ ويسوقُ إِلَيْهِ الفِكْرُ في أدقِّ الأُمورِ وأجَلِّها، وأحقرِ الأشْياءِ وأعظَمِها، وَهوَ مَا نطقَ به تلك الأعرابيُّ بفطرتِه السَّلِيْمَةِ فقالَ: الْبَعْرَةُ تَدُلُّ عَلَى الْبَعِيرِ، وَأَثَرُ الْأَقْدَامِ يدلُّ عَلَى الْمَسِيرِ، فَسَمَاءٌ ذَاتُ أَبْرَاجٍ وَأَرْضٌ ذَاتُ فِجَاجٍ هَلا تَدُلانِ عَلَى اللَّطِيفِ الْخَبِيرِ؟

والقُرْآنُ الكَرِيْمُ عَرَضَ جَولاتٍ كَثِيْرَةٍ جداً مَعَ هذا الباعثِ الفِطريِّ للتَّديُّنِ، ليحثَّ العَقْلَ على التَّأَمُّلِ بالكَوْنِ والتَّدبُّرِ في المخلوقاتِ والبَحْثِ عَنْ نظامِها العَجيبِ، ليغْرِسَ في نفسِه الإِيْمانَ والعَقِيْدَةَ، مِنْ ذَلِكَ قوله تَعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ * وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠ - ٢٢].

الأَدلَّة الشَّرْعيَّةُ عَلى الغَرِيْزَةِ الدِّيْنيَّةِ:

ويُمْكِنُنا أنْ نستَدِلَّ على غَريزةِ التَّديُّنِ في الإِنْسانِ، وأنَّها مَفطورَة في نفسِهِ وتَكْوِيْنِهِ بالدَّليلِ النَّقليِّ الصَّريحِ المباشرِ مِنْ كِتابِ اللهِ تَعالى، في الآياتِ التي تحدَّثَتْ عَنْ خلْقِ الإِنْسانِ وفَطْرَتِه وجبلتِه، وَمَا رافَقَ ذَلِكَ من وجودِ الدِّيْنِ فِي النَّفْسِ البَشَرِيَّةِ.

١ - قال الله تَعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ

فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ...) [البقرة: ٣٠ - ٣٣]، ثُمَّ يقول تعالى: (قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٣٨].

٢ - قال تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً﴾ [طه: ١٢٣ - ١٢٥]؟ فهذِه النُّصوصُ تُصرِّحُ بأنَّ الإِنْسانَ خليفَةُ اللهِ في أرْضِه، وإنَّ الهدايةَ والدِّيانَةَ والإِيْمانَ رافقَه منْذُ هُبوطِه إلى الأَرْضِ.

٣ - قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [سورة ص: ٧١ - ٧٢]، وهذا النَّصُّ يُصرِّحُ بطبيعةِ الإِنْسانِ وأصْلِ خلْقِه وجبلَّتِه، وأنَّهُ مِنْ طيْنٍ، مَمْزوجٍ بروْحِ اللهِ تَعالى، وأنَّ الجَسدَ لا ينفَصِلُ عَنِ الرُّوحِ، وأنَّ كُلَّ مُحاولَةٍ للفصلِ أوْ بذْرِ الشِّقاقِ بَيْنَهُما شُذوذٌ وانحِرافٌ في السُّلوكِ، وعاهَةٌ في التَّكْويْنِ، كَمَا أنَّ كُلَّ عنصرٍ لَهُ مُتطلَّباتٌ، وخُلِقَتْ لَهُ ميولٌ للمحافظةِ عليه، فالطَّعامُ والشَّرابُ والجِنْسُ للمحافظَةِ على الجَسَدِ، والتَّديُّنُ للمحافَظةِ على الرُّوحِ.

٤ - قال لله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، فهَذِهِ الآيَة صَرِيحَةٌ في وجودِ

التَّدَيُّنِ فِي النَّفْسِ الإِنْسانيَّة قَبْلَ وجودِها وظُهورِها على ظَهْرِ البَسيطَةِ[1].

٥ - قال الله تَعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠]، فالنَّفْسُ أو الفِطْرَةُ خلقَها اللهُ تَعالى، وأَوْدعَ فيْها هذا الاتجاه إلى الخالِقِ، وأنَّ الإِنْسانَ مَهْمَا ابتَعدَ عَنْ منهجِ اللهِ وجحَد وجودَه، وكفَرَ بالدِّيْنِ، فإنَّه لنْ يَسْتَطيعَ أنْ يغيِّرَ فطرتَه: ﴿لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾

= بدَليلِ أنَّهُ لا يَسْتَطيعُ أنْ يحجُبَ هَذِهِ الفِطْرَة مِمَّا يجيشُ فيْها عِنْدَ الأَزَماتِ والأَوْقاتِ الحرجَة، وأمامَ البَواعِثِ السَّابقَة للتَّدَيُّنِ.

= وبَدليلِ مَا يجدُ الإِنْسانُ منَ النَّدمِ على الأفعالِ الذَّميمَةِ، ومَن وخزِ الضَّميرِ - إنْ بَقيَ عندَه ضميرٌ ولَمْ تفسدْهُ المفاتِنُ والشَّياطينُ، وهذا مَا قصَده رَسُولُ اللهِ صلى الله عَلَيْهِ وسلم فِي الحَديْثِ الشَّريفِ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إلا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ»[2].

فالإِنْسانُ لا غِنى لَهُ عَنْ التَّدَيُّنِ، لأنَّهُ جزءٌ من ذاتِهِ ونفسِهِ وفطرتِهِ، ولذا يُجيبُ أحَدُ الفَلاسِفَةِ الفَرنسيِّين على سؤالٍ: لماذا أنا مُتدَيِّنٌ؟ فيقولُ: لأنَّني لم أُحرِّك شَفَتي بهذا السؤال مرَّةً إلا وأراني مَسُوقاً للإجابَةِ عَلَيْهِ بِهذا الجواب، وهو: أنا مُتدَيِّنٌ لأنَّني لا أستطيعُ أنْ أكونَ خِلافَ ذلكَ، لأنَّ التَّدَيُّنَ لازِمٌ مَعْنَويٌّ مِنْ

---

(١) وغير ذَلِكَ من الآيات كقوله تَعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ [الإنْسان: ٣]، وقوله تَعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٧- ١٠]، وانظر دراسات فِي النَّفْسِ الإِنْسانيَّة: ٢١٥.

(٢) البخاريُّ في الجنائزِ، بَابُ إِذَا أَسْلَمَ الصَّبِيُّ فَمَاتَ (١٣٥٨) ومسلم في القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة... (٢٦٥٨).

لَوازِمِ ذاتي[1].

الدِّين والعلم

أولاً - وَظيْفَةُ العِلْمِ ومَجالُه:

إنَّ وَظيْفَةَ العِلْم والمَجالَ الذي يعمل به والدائرة التي يَدورُ فيها والإطار الذي يغطيه **محصور في النواحي الحسية ويقتصر على الأُمورِ التجريبية** التي تخْضَعُ للتَّجْربَةِ وتدركها الحواس من السمع والبصر واللمس والشم والذوق، وهي أُمورٌ مادية محضة فالعِلْم يقف عِنْدَ حُدوْدِ لا يتَجاوَزها.

= أمّا وَظيْفَةُ الدّيْنِ في الحَياةِ فإنّها ذات مَجالٍ رحب، وتَعْمَلُ في دائرة أوسع بكَثيْرٍ جداً وتخرج عَنْ هذا الإطار بأضعاف مضاعفة، **فيَبْحَثُ الدّيْنُ عَنْ الكَوْنِ** وَما وَراءَ الكَوْنِ، ويتحدث عَنْ المادَّة والرّوحِ، ويتَناوَل الحَياةَ وَما وَراءَ الحَياةِ، ويدرك الأُمورَ الحسية والقضايا الغيبية، ويهتم بالإنْسان من النواحي الجِسْميَّة والرّوْحيِّة والنَّفْسية والاجتِماعيَّة والتربوية... وغيرها مِنَ المسائل المعنوية التي لا يطولها العِلْم، ولا تدخل تَحْتَ وسائله المادِّيَّة التجريبية المحدودة.

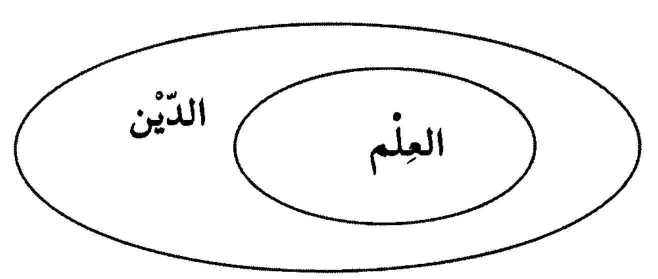
= ويضاف إلى ذَلِكَ أنَّ الدّيْنَ يدعو إلى العِلْم، ويرشدنا إلى أسْرارِ الكَوْنِ، ويحثنا على كَشْفِ ما فيه ويمنُّ علينا أنَّهُ سخَّر لنا ما في الأَرْضِ جَميْعاً، ولذلك فكلُّ ما وصل إلَيْهِ العِلْمُ من اختراعاتٍ واكتشافاتٍ، وكلُّ ما قَّدمهُ للبَشَريَّةِ فَهوَ جزءٌ من دعوة الدّيْنِ، مَعَ التنبيه المتكرر إلى المَفْهوم الصَّحيْح للدّيْنِ الذي حدَّدناه سابقاً، وَهوَ ديْنُ الله الحقيقي، وهوَ الإِسْلام ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ الذي دعا

(١) القرآنُ والطَّبائعُ النَّفْسيَّة: ٢١، ٤٤.

إلى العِلْم، وجعله فرضاً عينياً أَوْ كفائياً على المؤمنين[1].

ولذلك فإنّ مَجالَ الدّيْنِ الصَّحيْح أوسع بكَثيْرٍ من مَجالِ العِلْم، فالدّيْنُ يشمل كُلَّ شيءٍ في الحَياةِ الدُّنْيا، ويفتح لنا نافذة على الحَياةِ الأُخْرى وإذا أَرَدْنا التمثيل الهندسي للدّيْنِ والعِلْم فتَكونُ دائرة الدّيْنِ كَبيْرة جداً، وقد يصعب تقدير محيطها، ويمثل العِلْم دائرة صغيرة ضمن دائرة الدّيْنِ، وقد يتغير محيط دائرة العِلْم ضيقا واتساعا، وقد تنقص وتزيد، وقد تضمر وتنمو، حسب التَّقَدُّمِ العِلْميّ والرقي الحضاري والاكتشافات الكَوْنية والتطور التقني في الوسائل والأساليب.

وينتج عَنْ معْرفَة مَجالِ العِلْم ومَجالِ الدّيْنِ **أن العِلْم عاجز عَنْ قضايا كَثيْرَة لا تدخل في إطاره**، ويستحيلُ عَلَيْهِ معرفتها لأنّها خارجة عَنْ نطاقه وإمكانياته ومجاله واختصاصه، مِمّا يستوجب أن نتلمس لها مصدرا آخر غير العِلْم، ونكون بحاجَة إِلَيْهِ ليمدنا بالمعْرفَة مِمّا يعجز عنه العِلْم، وأهَمها:



١ - **معْرفَة الغَيْبِ**: سواء كانَ في الدُّنْيا أم في الآخِرَة، في الماضي السحيق أَوْ المستقبل، فالعِلْم مثلا يعجز عَنْ معْرفَة المستقبل سواء كانَ بعيداً لشهور وسنوات، أم كانَ قريباً لساعة ولحظات.

---

(١) ولا نعني بالدّيْنِ هنا المَفْهوم الكَهَنوتي الكنسي الذي حارب العِلْم وحجر على العُلَماءِ وقتل المخترعين = = والمكتشفين وفرض على النّاس تفسيرات باطلة، وسخافات ساذجة، والتأويلات الباطلة صبغوها باسم الدّيْنِ، علماً بأن هَذِهِ القضايا تدركها الحواس وتخبرها الوسائل والأدوات الماديّة، وتستطيع الوصول إلى غورها بالبَحْث والمشاهدة والتجارب والتَّفْكير، وتدخل تَحْتَ مقدور الإنْسان، فلا تحتاج إلى وحي السَّماء ولا إلى أخبار الرسل والأنبياء ولذلك لم تأتِ بها الكُتُب السَّماويَّة، وإنَّما اقتصرت على مجرد الإشارة إلى بَعْضِ أَسْرارِ الكَوْنِ وأرشدت إلى وجوب الاستفادة منها والسعي وراءها.

٢ - **قضية الخُلود** في الأَرْضِ التي يطمح إِلَيْها الإِنْسان ويسعى جاهدا للبقاء ما أمكنه، ويبذل طاقاته لحصته فيْها وإبعاد المَوْت عنه، فهل يُمْكِنُ للعلم أنْ يزيد في عمر إنسان لحظة واحدة أوْ يَوْماً واحِداً؟.

إِنَّ التَّقَدُّمِ العِلْميّ السريع في الطب والجراحة والأدوية يَسْتَطيعُ أنْ يوفر لَهُ حياة أفضل، وسعادة أكثر، وراحة أرحب. و لَكِنَّها تعجز عَنْ أن تمنحه لحظة زيادة في عمره، مصداقا لقوله تَعالى: ﴿فَإذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرونَ ساعَةً ولا يَسْتَقْدِمونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]، ولقوله عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: «إِنَّ رَوْحَ القُدُسِ نَفَثَ في روعي أنَّ نَفْساً لَنْ تَموتَ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ أجَلَها...»[(١)].

٣ - كَما يعجز العِلْم بشكل ملموس في **القضايا النَّفْسية** التي تشكل شطرا بارزا في حَياةِ الإِنْسانِ في الدُّنْيا، فلا يُمْكِنُ للعلم أنْ يمنع عَنْ الإِنْسان القلق، ولا يَسْتَطيعُ أنْ ينزع منه الخوف إِذا تعرض لأسبابه.

٤ - كَما أن العِلْم **عاجز عما يخرج عَنْ نطاقه** ولا يخضع للحس والتَّجْرِبَة والمشاهدة وأوضحُ مثال على ذَلِكَ روح الإِنْسان وعقله، فَما هيَ الرُّوح، وَما هوَ العَقْلُ؟؟.

٥ - إنَّ العِلْم لا يَتَناوَل **القضايا الإِنْسانِيَّة** كالأخلاق التي تقوم عليها الشُّعوبُ والأمم والحضارات، لذلك فإِنَّ الأخلاق تعتمد على الدّيْنِ الذي يدعو إِلى الأخلاق الفاضلة، ويحدد مدلولها ومفهومها ومداها، ثُمَّ يكسبها صفة القدسية الدّيْنِيَّةِ، وهذا كفيل يحفظها وبقائها واستمرارها.

يَقولُ المربي الفرنسي بياجيه: (الأخلاقُ بلا ديْنٍ عَبَثٌ).

---

(١) هذا طرف من حديث رواه أبو نعيم حلية الأولياء (١٠/ ٢٧) عَنْ أبي أمامة رضي الله عنه.

ثانياً - مجالُ العلم وعجزه عن تغييرِ النِّظام الكونيّ:

إنَّ التَّقَدُّمَ العِلْميّ - قديماً وحديثاً ومستقبلاً - محصور في تفْسيْرِ ظواهر الكَوْنِ المرئية المحسوسة، دونَ أنْ يَسْتَطيعَ العِلْم التأثير في حقيقتها وكيانها، وَهوَ عاجز عَنْ التأثير في جَوْهَرِها، أوْ التَّغْيير في تركيبها، أوْ التعديل في نِظامِها، فمثلا العِلْم الذي اكتشف تركيب الهواء والضغط الجوي ووصل إلى القمر لم يستطع - ولن يَسْتَطيعَ - أنْ يغير في تركيب الهواء، أوْ يزيل أثر الضغط الجوي، أوْ يبدل في نِظامِ القمر.

ثالثاً: إنَّ المسائل الكَوْنية التي تخْضَعُ لسلطان العِلْم، وتدخل في نطاقه ودائرته، وتتم عليها التجارب والمشاهدات، ويختص بها العُلَماءُ - إنَّ هَذِهِ المسائل الكَوْنية العِلْميّة **لم يقطع العِلْم إلا بجزء يسير من حقائقها**، وَلَمْ يجزم إلا أحيانا بالنتائج التي توصل إليها، وإنَّ أكثر المسائل المطروحة على نطاق البَحْثِ العِلْميّ لا تزال في حيز الاحتمالات والتكهنات، وفي مَجالِ الفرضيات، وتتعرض لاحتمال الخطأ والصواب، وأن الأُمورَ اليَقيْنية القطعية التي وصل إلَيْها العِلْم لا تزال محدودة، فَما بالك في المُغيَّباتِ وَما وَراءَ الطَّبيعَة؟ فإنَّهُ لن يَصِلَ إلى نَتيْجَةٍ فيْها قطعا؟.

رابعاً - إنَّ العِلْم سلاح ذو حدين:

يمكن أن يُستَعْمَل العلم للخير، كَما يُستَعْمَلُ للشر، وإنَّ التَّقَدُّمَ العِلْميّ الذي يهيئ للإنْسانِ والبَشَرِيَّة حياة أرغد، وسعادة أطيب، ورقيا واسعا، فإنَّهُ يهدد الإنْسان والبَشَرِيَّة بالخراب والدمار والإبادة. فمثلا:

إنَّ اختراع الذرة يُمْكِنُ أنْ يَكونَ من أجل السَّلامِ العالمي والتَّقَدُّمِ الحضاري، كَما يُمْكِنُ أنْ يَكونَ للحرب وإبادة الشُّعوبِ وتشويه معالم الإنْسان والكَوْنِ.

أَقوالُ العُلَماءِ في الدِّيْنِ

نختم بأقوال أساطين العِلْم في عَصْرِنا الحاضِرِ، ونكتفي بـذِكْرِ بَعْضِـها في هَـذا الموضوع[1]:

١ - يَقولُ سالمون ريناك: (ليس أمام الـدّيانات مستقبلٌ غير مُحـدَّد فحَسْب بَلْ لنا أن نكون على يقين من أنَّهُ سيبقى كُلّ شَيْءٍ منها أبـدا، ذَلِكَ لأَنَّهُ سيبقى في الكَوْنِ دائماً أَسْرارٌ ومجاهيل، ولأنَّ العِلْم لن يُحَقِّق أبداً مهمته على وجه الكمال).

٢ - ويَقـولُ الـدكتور مـاكس نـوردوه عَـنْ الشُّعور الـدّيْنيّ: (هـذا الإحسـاس أصيل يجده الإِنْسان غير المتمدن، كَما يجده أعلى النّاس تفكـيراً، وأعظمهـم حسّاً، وستبقى الدّياناتُ مـا بقيت الإِنْسـانيَّة، وستتطور بتَطَوُّرِهـا، وستتجاوب دائمـاً مَعَ درجة الثَّقافَة العَقْليَّةِ التي تبلغها الجماعة).

٣ - يَقولُ هنري بيرغسون: (لقد وجدت وتوْجَدُ جَماعاتٌ إنسـانيَّة مـن غـير علوم وفنون وفَلْسَفات، ولَكِنَّهُ لم توْجَدْ قط جماعة بغير ديانَةٍ).

ويعقب الدكتور دراز رحمه الله على هَذِهِ الكلمـات فيقـول: (ولنقـف قليلا عِنْدَ هَذِهِ الكلمة، لأَنَّهُ قد يبدو مِنَ المفارقات العجيبة، أَنْ يَكـونَ ازديـاد العِلْـم ونمـو المعْرِفَة سَبَبا في نمو غَرِيْزَة التَّدَيُّنِ، المبنية على طلب الغَيْبِ المجهول، ولكننا لـو تأملنـا لتحقَّقنا صحة هَذِهِ المفارقـة ولعرفنـا أن تَقَـدُّمَنا الحثيـث في العُلـوم يقربنـا حقيقـة مـن الاعتراف بجهالتنا، والاقرار بأن مثل مـا نعلمـه مـن الكَـوْنِ في جانـبِ مـا نجهلـه منـه كمثل قطرة واحدة من محيط خضم عميق، ذَلِكَ أن كُـلّ بـاب جَدِيْدٍ يفتحـه العِلْـم من دلائل عظمة الكَوْنِ وامتـداده ينفـتح معـه أفـق أوسـع للسؤال عمـا يتصـل بهـذا

---

(١) انظر هَذِهِ الأقوال ومزيداً مثلها في كتاب الدّيْنِ: ٨٤-٨٩.

الميدان الجَديْدِ مِنَ المشاكل الكَثيْرَة الغامضة)[1].

حـاجـة النَّاس للـدِّيـن

وَبَعْدَ هذا العرض السابق نطرح على أنفسنا أَوْ نطرح على غيرنا، أَوْ يطرح الآخرون علينا هذا السُّؤال: هل نَحْنُ بِحاجَةٍ إِلى الدّيْنِ؟ وهل النّاس اليَوْم بحاجَةٍ إِلى الدّيْنِ؟

يظْهَـرُ للعاقـل الرَّشـيْد، وللباحـث المتجـرِّد عَـنْ الأَهْـواءِ والأحقـاد، ولعشـاق الحَـقِّ والحَقيْقـة، يظْهَـرُ لَهُـمْ أن وَظيْفَـةَ الـدّيْنِ في الحَيـاةِ مهمـة وخطـيرة وضـرورية، كَمـا يظْهَـرُ لَهُـمْ بَواعِثـه الفِطْرِيَّـة في الـنَّفْسِ الإِنْسـانيَّة، وأثـره البـارز في حَيـاةِ الفَـرْدِ والمـُجْتَمَع، ويتـبين للقـارئ أن العِلْـم لا يسُـدّ مسـده، ولا يقـوم مقامـه، وأن الإِنْسـان **لا يـؤدي غرضـه في هَـذِهِ الحَيـاةِ**، ولا يسـتكمل إنسـانيته ولا يلـبي دوافعـه وغرائـزه وميولـه، ولا تَتَحَقَّـقُ لَـهُ السَّـعادَةُ، ولا يـنعم بـالتَّوازنِ والاسـتقرار **إلا بالتَّـدَيُّنِ**، وأنَّ الـدّيْنَ جـزء مـن حيـاة الفَـرْد والمـُجْتَمَع، وأَنَّهُـمْ بحاجَـةٍ إِلَيْـهِ كالطعـام والشـراب والغـذاء، فمـن تخلـى عنـه، أَوْ أعـرض عَـنْ الأخـذ بـه فـلا يكـون إِنْسـاناً سـوياً، وأقـل مـا يقـال فيـه أَنَّـهُ شـاذ عَـنْ الفِطْـرَةِ الإِنْسـانيَّة والوجـودِ البَشَـري، ومثلـه كمثـل مـن يحـرم نفسـه الفواكـه أَوْ الخضـراوات أَوْ اللحـوم أَوْ الطيِّبـاتِ، أَوْ يمتنـع بصـلف أَوْ إصـرار عَـنْ التَّمتُّـعِ بأشـعة الشـمس وضـوء النَّهـار لعاهـة في عقلـه أَوْ لعقـدة في نفسـه، فيكـون شـاذ الفِكْـرِ، منحـرف السـلوك، وبالتـالي فَهـوَ هزيـل البنيـة، وضـعيف الجسم، ينتظر حتفه رغم أنفه، ويلقى سوْءَ خاتمته، والعياذ بالله.

---

(١) الدّيْنُ، له: ٨٩- ٩٠.

شروط تحقيق الدِّين لوظيفتِه:

وَلَكِن الدّيْنَ لا يُحَقّق وظيفته إلا إذا تَوَفَّرَتْ لَهُ ثَلاثَةُ شُرُوطٍ وَهِيَ:

١ - **العِلْم بالدّيْنِ بشكلٍ كافٍ وافٍ ومفصَّلٍ**: فقد وردَت آياتٌ كَثيْـرَةٌ تـدعو إلى العِلْم ووجوبه، وتؤكد وجوب التعلم والتعليم[1]، منها قوله تَعالى: ﴿وَما كانَ المُؤمنونَ لِيَنفِروا كافّةً فلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائفةٌ لِيَتَفَقَّهوا في الدّينِ وَلِيُنْذِروا قَوْمَهُمْ إذا رَجَعوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]، ويَقولُ تَعالى: ﴿وَجَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدونَ بِأَمْرِنا لَمّا صَبَروا وكانوا بِآياتِنا يوقِنونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

٢ - **الإيْمان بكل ما جاء به الدّيْنُ الصَّحيْح**، فلا يؤخذ بَعْضَهُ ويهمل بعضه الآخر، ودون أنْ يؤخذ الدّيْنُ للمتاجرة بِهِ، ويطبق بَعْضَـهُ، ويتناسى النّـاس بَعْضَـهُ الآخر، يَقولُ تَعالى: ﴿وَآمِنوا بِما أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِما مَعَكُمْ وَلا تَكونوا أَوَّلَ كافِرٍ بِهِ وَلا تَشْتَروا بِآياتي ثَمَناً قَليلا وَإِيّايَ فاتَّقونِ﴾ [البقرة: ٤١].

ويَقولُ تَعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنونَ بِبَعْضِ الكِتابِ وَتَكْفُرونَ بِبَعْضٍ فَما جَزاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إلا خِزْيٌ فِي الحَياةِ الدُّنْيا وَيَوْمَ القِيامَةِ يُرَدّونَ إلى أَشَدِّ العَذابِ وَما اللهُ بِغافِلٍ عَمّا تَعْمَلونَ﴾ [البقرة: ٨٥].

فالإِسْلام كل لا يتجزأ، أَمّا أَنْ يؤخذ كله، وإِمّا أَنْ يُتْرَكَ كله، بِدونِ ترقيع أَوْ تمزيق.

٣ - **الالتزام بأَحْكامِ الدّيْنِ وتطبيقه فعلا وعملا**: يقول الله تَعالى منددا بمن

---

(١) انظر باب العِلْم وَما جاء من الأحاديث عَنْ وجوب العِلْم والتعليم في كتاب الترغيب والترهيب: ٩٢/١ وَما بعدها.

يعرف حكم الله ولا يطبقه، ويدعو النّاس إِلى ديْنِ الله وشرعه، ويعفي نفسه من ذلك، يَقولُ تَعالى: ﴿أَتَأْمُرونَ النّاسَ بِالبِرّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلونَ الكِتابَ أَفَلا تَعْقِلونَ﴾ [البقرة: ٤٤]، ويَقولُ تَعالى: ﴿يا أَيُّها الَّذينَ آمَنوا لِمَ تَقولونَ ما لا تَفْعَلونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقولوا ما لا تَفْعَلونَ﴾ [الصف: ٢ - ٣].

وهَذِهِ الشروط بسيطة ومنطقية وبدهيَّةٌ، ولا تحتاج إِلى عناية كَبيْرة أَوْ بحث مستفيض، ولَكِنَّها ذات أثر خطير وبارز.

وإِنَّ كُلَّ سوْءٍ أَوْ ضرر نجم عَنِ الدّيْنِ أَوْ باسم الدّيْنِ كانَ بسبب فقدان أَحَدِ هَذِهِ الشروط الثلاثة السابقة.

نتائجُ هامَّة تؤكِّد حاجَة النّاس إِلى الدّيْنِ:

أَخيراً نستطيع أن نقدم خلاصة البَحْثِ، ونبين نتائجه التي تؤكد حاجَة النّاس إِلى الدّيْنِ، فنقول:

١ - إِنَّ الدّيْنَ الذي نقصده ونعنيه ونسعى وراءَهُ هوَ الدين الذي ينظم حياة الإنسان وفق التوجيهات الربانية لإعمار الأرض، وتحقيق الغاية من وجوده عليها، وليس الدين بمفهومه الكهنوتي الذي ركب مطيته المتكبرون لاستعمار الشعوب وإذلالها.

٢ - نَحْنُ بِحاجَةٍ إِلى الدّيْنِ لأَنَّهُ جزء من فطرة الإِنْسان وطبيعته، ولا يُمْكِنُ لإنسان عاقل أَنْ يستغني عَنْ جزء من فطرته وكيانه، وإلا كانَ شاذّاً ومنحرفاً. قال تَعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدّينِ حَنيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتي فَطَرَ النّاسَ عَلَيْها لا تَبْديلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدّينُ القَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاسِ لا يَعْلَمونَ﴾ [الروم: ٣٠].

٣ - نَحْنُ بِحاجَةٍ إِلى الدّيْنِ، لأَنَّهُ الوسيلة الوَحيْدَة، التي نأمن مخاطرها،

ونضمن نتائجها **لتَحقيْقِ الحَياةِ الإِنْسانيَّة الكريمة**، وتأمين الحَياةِ السعيدة في الدُّنْيا والآخِرَة.

٤ - نَحْنُ بِحاجَةٍ إِلى الدّيْنِ **لتأمين الاستقرار النَّفْسي والرّوحي في حَياةِ الأفراد.**

٥ - نَحْنُ بِحاجَةٍ إِلى الدّيْنِ **للحصول إلى التَّفتُّحِ العَقْلي، والتَّقدُّمِ العِلْميّ**، لأنَّ الدّيْنَ في جَوْهَرِهِ دعوة إِلى التَّقدُّمِ والمَدَنيَّةِ والحَضارَةِ والرقي في مختلف المستويات.

٦ - نَحْنُ بِحاجَةٍ إِلى الدّيْنِ **لإقامَةِ التَّوازنِ بيْنَ الفَرْد والمُجْتَمَع**، ولأنه يُقيْمُ العَلاقَة السديدة بيْنَ المواطن والدَّوْلَةِ، فيعرف كل مِنْهُما حقه فيقف عنده، فلا يخرج الفَرْد على الدَّوْلَةِ والمُجْتَمَع بالعَبَثِ والفَساد والإجرام والتحكم بأرزاق الشَّعْب والتلاعب بمقدرات الأُمَّةِ وقوت أفرادها، ولا تتطاول الدَّوْلَةُ على الفَرْد فتسلبه حقوقه الطبيعية والإِنْسانيَّة، وتقيم الظلم والطغيان والتسلط والديكتاتورية، لتجْعَلَ من الإِنْسان آلة صماء أوْ حيوان أبكم لا يهتم إِلا بطعامه وشرابه وشَهَواته، أوْ عضواً عاطلا أوْ متكاسلا أوْ متواكلا أوْ سلبياً.

٧ - نَحْنُ بِحاجَةٍ إِلى الدّيْنِ **لإِنْهاءِ الرِّدَّةِ** التي ابْتُلِيَ بها العالَمُ الحَديْثُ باسمِ العِلْمِ، التي روَّجَ لها الصَّهاينَةُ مِنْذُ قَرْنَيْنِ تَقْريباً.

٨ - نَحْنُ بِحاجَةٍ إِلى الدّيْنِ الذي ينشئ ويربي الإِنْسان الصّالِح، ويُحقِّق للإِنْسانيَّةِ مثلها وقيمها وأخوتها، بِدونِ تمييز عنصري، ولا تفاوت طبقي، ولا استعمار دولي، ولا اضطهاد فردي أوْ طائفي، ولا استِغْلال مادي.

٩ - نَحْنُ بِحاجَةٍ إِلى الدّيْنِ لتنمية الوازِعِ الدّيْنيّ عِنْدَ الطبيب والمهندس والمحامي والمُعلِّم والمدير والمدرس والموظف والعامل ورب العَمَلِ والتاجر والطالب والأب والابن والأخ والجار لِيَشْعُرَ كل مِنْهُم بالآخر، ولِيُؤدّي عمله الذي خلق من

أجله مَعَ الحفاظ على القيم والأخلاق والمَبادِئ.

١٠ - نَحْنُ بِحاجَةٍ إِلى الدّيْنِ لتَحْقيْقِ التَّوازن في الإِنْسان بيْنَ روحه وجسده وعقله، ولإِقامَةِ التَّوازن بيْنَ غرائزه المختلفة، ولتوجيه ميوله وعواطفه الوجهة الصَّحيْحَة التي تحفظ الفَرْد وتخدم المُجْتَمَع والأُمَّةَ.

١١ - نَحْنُ بِحاجَةٍ إِلى الدّيْنِ لإِقامة المُجْتَمَع الفاضل، الذي يحقّق للأُمَّةِ العزَّة والكرامة في الحياة الدنيا، والفوز برضوان الله يوم القيامة.

نَسْأَل الله العلي القدير أَنْ يعلمنا ما ينفعنا، وأَنْ ينفعنا بِما علمنا، وأَنْ يلهمنا رشدنا، وأَنْ يهيئ لنا من أمرنا رشداً، وأَنْ يُسَدِّدَ خطانا وأَنْ يهدينا سبلنا، وأَنْ يردنا إل ديننا رداً جميلا، وأَنْ يهدي قومنا فإنهم لا يعلمون، وأَنْ يفتح بيننا وبين قومنا بالحق، إِنَّهُ سميع مجيب، وبالإِجابَةِ جدير.

البابُ الأوَّل

الأَدْيان غير الكِتابيَّة

مدخل الباب

الفصل الأول: ديانة مصر القديمة، ودين أخناتون

الفصل الثاني: أديان الهند الكبرى

الفصل الثالث: أديان من الصين

الفصل الرابع: من أديان بلاد فارس

مدخل الباب:

إنَّ الأَدْيانَ السَّماويَّةَ المَوْجودَةَ اليَوْمَ في العالَمِ ثلاثةٌ، وهي (اليَهوديَّةُ، والنَّصْرانيَّةُ، والإِسْلامُ)، وهناك أَدْيانٌ كَثيْرَةٌ أُخْرى لا يُحْصيها العدُّ، تنتشرُ هنا وهناك:

= بَعْضُها يعبدُ الأَحْجارَ والأَوْثانَ والحَيواناتِ والكواكبَ وغيرها.

= وبَعْضُها يتَّجِهُ في مجمَلِهِ نحو الآلِهَةِ المُجَرَّدَةِ.

وقد أصْبَحَتْ **الفئةُ الأوْلى** في حيِّزِ الأَدْيانِ البدائيَّةِ، ولا يعتَنِقُها إلا الشُّعوبُ النائيةُ، ولا يَقْبَلُها إلا العقولُ المتخلِّفَةُ، وأَصْبَحَتْ أشبَهَ بعالَمِ الخَيالِ والأُسطورة، مَعَ الاعترافِ بوجودِها وبقائها وانتِشارِها في أماكِنَ كَثيْرَةٍ مِنَ العالَمِ.

أمّا **الفئةُ الثانيةُ** فكَثيْرَةٌ أيْضاً، وهي على تنوُّعِها يُمكِنُ أنْ نصنِّفَها مجموعاتٍ:

= مجموعةٌ منها هي إلى الأفْكارِ الفَلْسَفيَّةِ المحضةُ أقرب منها لأنْ تكونَ ديناً بالمعنى الذي قرَّرْناهُ في الباب الأوَّل، فهي أديانٌ لا عَلاقَةَ لها بالدِّيْنِ إلا بالاسم.

= مجموعةٌ أُخرى هي إلى الأَفْكارِ الإِصْلاحيَّةِ والمذاهبِ الاجتماعية أقرب إلى الدِّينِ بالمعنى المتقدِّم، وإن أصرَّ أصحابها على إلْحاقِها بركبِ الأَدْيانِ.

= ومجموعة ثالثةٌ تَجمَعُ بيْنَ الأفكارِ الدِّيْنيَّةِ والأَحْكامِ التَّشْريْعيَّةِ.

وعليه فإنَّنا لا نَستَطيعُ - مبدئياً - أنْ نحكمَ عليها بحكمٍ واحدٍ:

= فَقَدْ تَكونُ أَدْياناً وَضْعيَّةً من عِنْدَ البَشَرِ، وضَعوها لغاياتٍ وأَهْدافٍ خاصَّةٍ.

= وقد تَكونُ في أَصْلِها سماويَّةً، ثُمَّ طَرأ عليها التَّغْيير والتَّبْديل والتَّحْريف حَتَّى فقدَت صِلَتَها بأَصلِها الأوَّل.

= وقد يَكونُ دُعاتُها أَنْبياء ورُسُلا من عِنْدِ اللهِ تَعالى، ثُمَّ تغَيَّرَتْ الصّورَة بَعْدَ

وفاتهم، وأُلْحِقَتْ بهم الأساطيْرُ والخَيالات، حَتَّى طَمِست حقيقتهم.

= وقد يكونون متنبئينَ ودجّالينَ، اتَّخَذوا الدّيْنَ شعاراً لمآربهم الخاصَّة.

وسوف نعرض في هَذا الباب بَعْضَ هَذِهِ الأَدْيان التي انتَشرَتْ في (مصر، وفارس، والهنْدِ، والصّيْن) وذَلِكَ في أربَعةِ فُصوْلٍ:

الفصل الأول: نعرض فيه لديانة مصر القديمة، ودين أخناتون

الفصل الثاني: أديان الهند الكبرى، ونقتصر فيه على ذكر أوسع الأديان الهندية انتشاراً، وهي خمسة أديانٍ (الفيْديَّةُ، البَراهيميَّةُ، الجيْنيَّةُ، البوذيَّةُ، الهنْدوسيَّةُ، وديانَةُ السّيْخِ).

الفصل الثالث: أديانٌ من الصِّينِ، ونعرِضُ فيه لديانتين أيضاً، وهما (الطَّاويَّةُ، والكَوْنْفوشوسيَّة)

الفصل الرابع: من أديان بلاد فارس، ونعرض فيه لدينين من الأديان التي نشأت في هذه البلاد، ثم امتدَّ تأثيرها لما ورائها، وهما (الزردشتية، والمانوية)

الفَصْلُ الأوَّلُ

ديانةُ المصريين القُدماء

ودينُ أَخْناتون

ديانةُ المصريين القُدماء

ودينُ أَخْناتون

يُعدُّ دينُ (أختاتون) من الأديانِ التَّوْحيْديَّةِ وضَعها فرعونٌ من فَراعنَةِ مِصْرَ يسمَّى (أَخْناتون) وهو دينٌ يَدلُّ على أنَّ الإِنْسانَ إنْ دقَّتْ مَشاعِرُهُ وحسُنَ عقلُهُ، استطاعَ أنْ يَصِلَ إلى درجةٍ يُدْرِكُ فيْها أنَّ للكونِ إلَهاً واحِداً فَرْداً أَحَداً.

ديانَةُ المصريين القدماء:

فنبدأُ بذِكْرِ ما كانَ عَلَيْهِ ديْنُ المصريين القُدَماء قَبْلَ (أَخْناتون): كانت مصرُ غارقة في خِضَمِ من عِبادَةِ آلِهَةٍ عديدةٍ مختلِفَةٍ، أقدَمُها أَرْبابٌ من الحَيوانات، انضمَ إِلَيْها أرْبابٌ تمثّلُ مظاهِرَ الطَّبيعَةِ مِنَ (الهَواءِ، والسَّماءِ، والنُّجومِ، والشَّمسِ...) وتفرَّقتِ الآلِهَةُ في مدنِ مصرَ، وفي قُراها، فكانَ لكُلِّ منطقةٍ إلَهٌ خاصٌ تعبدُه، وتدْعوهُ، وتطلُبُ منه أنْ يحميها، وأَنْ يمنَعَ عنها الشُّرورَ.

وأَرْواحُ الآلِهَةِ تَجْري وتنتقلُ في كُلِّ مكانٍ، والآلِهَةُ يُشبِهونَ الإِنْسانَ في نَوْعِ قوَّتِه ومقدرتِهِ، لكنَّ قوَّتَهم ومقدرتَهم أوْسعُ من الإِنْسانِ وأشدُّ، فحولُهُم أطْولُ ومقدرتُهم على جلبِ الخَيْراتِ أكْثر، على أنَّهُمْ يموتونَ كما يموتُ الإِنْسانُ، والإِنْسانُ مكوَّنٌ من جسمٍ وروحٍ وجَوْهَرٍ إلهيٍّ عام يُسمَّى (ألكا) هَذا الجَوْهَرُ الإلَهيُّ يستَمِرُّ كالآلِهَةِ بَعْدَ الحَياةِ، فلهُ إِذنْ أنْ يعودَ، لَكِنَّهُ لا يعودُ إلا إذا بَقيَ الجسمُ على شَكْلِهِ، ومِنْ هُنا حدثَتْ عادَةُ التَّحنيطِ التي غايَتُها بقاءُ الجسمِ على شَكْلِهِ، وخصِّصَتْ للأجسامِ المحنَّطةِ الهياكِلُ العظيمةُ، والمقابِرُ الفخْمةُ تُدفنُ فيْها فتبقى على ما هيَ عَلَيْهِ إلى أنْ يعود إِلَيْها (الألكا).

وَكانَت عودةُ الحَياةِ مختصَّة بملوكِ الفراعنةِ فهُم الآلِهَةُ وإِليْهم تعودُ الرّوحُ. وَلَكِنَّ تعدُّدَ الآلِهَةِ وازديادها جَعَلَ عودَةَ الرّوحِ إلى أجْسامِ غيرِ المُلوكِ

جائزةٌ.

ثم أتى يَوْمٌ قلَّ فيه عددُ الآلِهَةِ وضاقَ مُحيطُها، وشرعَ الكَهَنَةُ القَوَّامونَ على المعابِدِ والهياكِلِ برفْعِ أحَدِ الآلِهَةِ إلى سويَّةٍ أعْلى منَ الآلِهَةِ الأُخْرى، وجُعِلَ مقرُّ الهَيْكَلِ الأكبرِ في مدينةِ (هليوبوليس).

وضمَّ الهَيْكَلُ عدداً كَبيْراً من الكَهَنَةِ المتعلِّمينَ، فاستطاعوا بمساعدَةِ (آل منفيس) أنْ يَرفعوا آلِهَةَ مدينتهِم - واسمه **(آتوم)** - فَوْقَ منزلَةِ الآلِهَةِ الآخرين، ثُمَّ صَهَروهُ بـ**(إلهِ الشَّمسِ)** فتَكوَّنَ إلَهاً واحِداً ضمّوا إلَيْهِ إلَهاً آخر قوياً عِنْدَهُم هوَ (إلَهُ الخصبِ والمَوْت) يدعى **(إيزوريس)** وَهوَ ربٌّ عِنْدَ المصريينَ يُقدِّمونَ لَهُ المآكِلَ والخضراواتِ والمُنتَجاتِ الطَّبيعيَّةِ، ويُعطيهم الخِصْبَ، وكانَ لذلكَ مُقَدَّساً عندهم.

وكذلِكَ أصْبَحَ لديهم إلَهان **(أتوم)** وَهوَ (إلَهُ الشَّمْسِ) مصهور به (إلَهُ هليوبوليس) وإلَه الخصب (إيزوريس) هَذا وإلَهُ الشَّمْسِ هوَ أصْلُ الحَياةِ عندهم، أمّا إلَهُ الخصبِ ففيه الاستمرارُ والإنتاجُ، يلِدُ كلَّ ربيعٍ ويموتُ كلَّ خريفٍ.

وقد وضَعَ المصريونَ القُدَماء تاريخاً للخَلْقِ يَدلُّ على تطورِ تلك الدّيانَةِ منْذُ مَبْدأ الكَوْنِ إلى عصرِهم، ذَكروا فيه تخاصُمَ الآلِهَةِ، وتغلُّبَ بَعْضُهُم على بَعْضٍ.

وأنْهوا ذَلِكَ التّاريْخَ بأنِ اعترفوا بأنَّ من يَغدو فِرْعَوناً يُصبِحُ إلَهاً، ويجبُ أنْ تُحفَظَ مومياؤه لأنَّها تأْتي بالخَيْرِ لمصرَ، وبنوا الهياكِلَ العظيمةَ للفراعِنةِ، وقَعَدَ فيْها الكُهَّانُ، واستَفادوا منها واستَعْمَلوا الشَّعوذَةَ والسِّحرَ، وتسلَّطوا على العامَّةِ، وابتزّوا الأمْوالَ، ودَخَلوا في حَياةٍ من التَّرفِ كَبيْرة، بَلْ إنَّهم باسمِ الآلِهَةِ استطاعوا أنْ يعيشوا حياةَ الاستهتارِ، فاتَّخَذوا في الهياكِلِ نساءً يُقيْمونَهم في الظّاهِرِ لأُمورِ الدِّيْنِ، ويستمتعونَ بهنَّ في الحَقيْقةِ.

أَخْناتون:

في هَـذا الجـو استَوْلى (أمِنْحَوتَب الرّابـع) علـى المـُلْكِ بَعْـدَ أبيـه (أمِنْحَوتَب الثالث) وكانَ رقيقاً في مَشاعِره، رقيقاً في نفسِهِ، عالياً في أخْلاقِهِ، عفيفاً ذا نَفْسٍ طيّبةٍ غاية الطيبة، ويظْهَرُ على تلاميحِ وجهِهِ الذي نُقِلَ إِلَيْنا مَرْسوماً أمارةُ الرِّقةِ المتَناهيةِ بحولِه وطولِه ورقَّته.

نظرَ (أمِنْحَوتَب الرَّابع) في الدّيانَةِ التي بيْنَ يديهِ فمجَّتْها نفسُه، ومجَّ منها بصفةٍ خاصَّةٍ أعْمالَ الكَهَنوتِ واستِغْلالهم للنّاسِ وانهماكهم في الملَذّاتِ، وأخذَ يَبْحَثُ عَنْ إلَهٍ جَديْدٍ، فرأى أنَّ الشَّمْسَ هيَ التي تُعْطي العالَمَ الخَيْرَ، وهي التي تحي النَّباتَ، وتنعشُ النُّفوسَ، رأى في الشَّمْسِ مَظْهراً من مَظاهِرِ الألوهيَّةِ، فهي مبعثُ الحَياةِ، وهي إذن تُمثِّلُ الآلِهَةَ، فدعا النّاسَ إلى عِبادَةِ الإلَهِ الجَديْدِ بَعْدَ أنْ كوَّنَ دينهُ وأعْطى الشَّمْسَ اسماً هوَ (**آتون**).

ملخَّصُ دينِ أَخْناتون:

وملخَّص دينهِ أنَّهُ يعتقدُ أنَّ الإلَهَ واحِدٌ أحَدٌ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ في هَذا الكَوْن، ويخلقُ الخَلْقَ بكلمةٍ منه، وَهوَ ليسَ إلى جانِبِه إلَهٌ آخرَ، وليسَ ربَّ شَعْبٍ مُحدَّدٍ بَلْ ربُّ كلِّ البَشَرِ، وَهوَ إِلَهُ الخَيْرِ، لأنَّهُ يَبْعَثُ الحَياةَ، ويُكْثِرُ منَ الخَيْراتِ، ويملأُ العالَمَ خَيْراً بواسطةِ أشعةِ الشَّمْسِ، ويملؤهُ بركةً، تلك الأشِعة، وتُصوَّرُ تلك الأشِعةُ عِنْدَ فنَّاني (أخْناتون) على شَكْلٍ يَنتهي بصورَةِ يدٍ مبسوطةٍ تُبارِكُ بالخَيْرِ، والمظهَرُ البَريءُ المَرئيُّ للإلَهِ الواحِدِ الأحَدِ هوَ قرصُ الشَّمْسِ، فهي تمثِّلُ خَيْرَ الإلَهِ، وتمثِّلُ بركاته. وهي عِنْدَ (أخْناتون) مبعثُ الحبِّ، والله خَلَقَ حَرارَتها لتدفئ النّاسَ وتبعَثَ فيهم الحَياةَ، وتبعَثَ في الحَيواناتِ القوَّة، وفي النَّباتِ النُّمو.

نَجِدَ تَعبيراً عَنْ هَذِهِ المعاني في الأنْشوداتِ التي كانت تُرْسَلُ لـ (**أتون**) وتوجَّهُ

إليهِ، وهَذِهِ واحِدَةٌ منها[1]:

ما أجملَ مطلعَكِ في أُفقِ السَّماءِ..

أي أتون الحي مبدأ الحَياةِ..

فإذا ما أشرقتِ في الأُفقِ الشَّرقيِّ..

ملأتِ الأرْضَ كلها بجمالِك..

إنَّك جميلٌ عظيمٌ برَّاقٌ عالٍ فَوْقَ كلِّ الرؤوسِ..

أشعَتُك تُحيطُ بالأرْضِ، بَلْ بكلِّ ما صنَعْت..

* * * * * * * *

ومَهْما بعدت فإنَّ أشعتَك تغمرُ الأرْضَ..

ومَهْما عَلَوت فإنَّ آثارَ قدميك هيَ النَّهارُ..

وإذا ما غربت في أُفقِ السَّماءِ الغربيِّ..

خيَّمَ عَلى الأرْضِ ظلامٌ كالموتِ..

* * * * * * * *

ما أبهى الأرْضَ حين تُشْرِق في الأُفُقِ..

وحين تُضيءُ يا أتون النَّهارَ تَدْفَعُ أمامَك الظَّلامَ..

وإذا ما أرْسَلْتَ أشعَّتك أضحَتِ الأرْضُ في أعيادٍ يوميَّةٍ..

واستيقظَ كُلُّ مَنْ عَلَيْها ووقَفوا على أقْدامِهم..

الإلَـهُ الواحِدُ الذي ليسَ لغيرِه سلطانٌ كسلطانهِ..

يا منْ خلقْتَ الأرْضَ كَما يَهوى قلبُكَ..

* * * * * * * *

---

(١) من قصة الحضارة لديورانت، ترجمة مُحَمَّد بدران: ٢/١٩٦٩- ١٧٤.

إنَّ أشعَّتك تغذّي كلَّ الحدائقِ..
فإذا ما أشرقْت سرَتْ فيْها الحَياةُ..
فأنتَ الذي تنميها..
أنتَ موحِّدُ الفُصوْلِ لكي تَخلُقَ كلَّ أعْمالِك..
خلقْتَ الشّتاءَ لتأتيَ إليْها بالبردِ..
وخلقْتَ الحَرارةَ لكي تتذوَّقك..

* * * * * * * *

لما اكتشف (أخْناتون) إلَههُ ووَجَدَ أنّهُ واحِدٌ أحَدٌ، وأنّهُ خيْرٌ، وأنّهُ يُعطي البركةَ، وأنّهُ لم يخلقِ الكَوْنَ مَعَ الآلِهَةِ الآخرين، لم يعُدْ يَسْتَطيعُ تحمُّلها ولا تحمُّلَ اسمها فغيَّرَ كُلَّ شَيْءٍ، وتتبَّعها، بَلْ لم يرضَ بأنْ يُقيْمَ في مدينةِ (هليوبوليس) فانتَقلَ إلى مدينةٍ جَديْدَةٍ أنْشأها لديانتهِ دَعاها (**إيخوت أتون**) وبنى فيْها هياكِلَ جَديْدَةً، وبنى عواصِمَ أخْرى في مُختلَفِ أنْحاءِ مصرَ، بَلْ لم يرض عَنْ اسمِهِ واتَّخذَ اسماً جَديْداً فدعى نفسه (**أخْناتون**) ومعناه (**أتون راضٍ**) وتتبَّعَ الكَهَنَةَ، وقَضى على سحرِهِم وشعوذَتِهم، وأخذَ مِنْهُم أمْوالَهُم، وألزَمَهُم بعِبادَةِ الإلَهِ الجَديْدِ، فأقْبلوا عَلَيْهِ مُتأفِّفينَ غيرَ راضينَ.

وشرع (أخْناتون) يَضَعُ لمصرَ أسْلوباً جَديْداً في الفنِّ يوافِقُ طِرازَ الدّيْنِ الذي وضَعَهُ، فطلبَ من الفنَّانينَ والرَّسامينَ والنَّحاتينَ أنْ يَتْرُكوا العرفَ القَديْمَ، وأنْ يُقبِلوا على الطَّبيعَةِ التي هيَ مِنْ خَلْقِ الإلَهِ، والتي هيَ ظاهِرَة من ظَواهِرِه فيأخُذوا منها، فأَطاعوه وصاروا يرسمونَ كُلَّ شَيْءٍ بعاطِفَةٍ جَديْدَةٍ، ومنَعَهُم من تصويرِ الإلَهِ، فالإلَهُ عندَهُ حقيقةٌ لا صورَةَ لها، وكذلِكَ سَمَى فنُّهم بتعابيرِه الرّوْحيَّةِ سُمواً عَظيماً.

هَذا الدّيْنُ الذي وصلَ إِلَيْهِ (أَخْناتون) بذَكائه ورقَّةِ عواطفهِ فأَقرَّ فيه بوجودِ إِلَهٍ واحِدٍ أَحَد، خالقٍ للكَوْنِ جَميْعِه، وليسَ إِلى جانِبه إِلَهٌ آخرَ، ديْنٌ لم يَكُنْ أَهلُ مِصْرَ بقادرين على فهمِهِ، فقدْ كانَ ذهنهُم مُشْبَعاً بذلك العدَد منَ الآلِـهَةِ الذين بيْنَ أيديهم ينظُرون إِليْهِم، ويَحْمِلونَهم، ويَحتَمونَ بهم في كُلِّ حينٍ، وزاد الطِّينَ بلَّةً عِنْدَهُم أنَّ (أَخْناتون) غيَّرَ اسمَه، فرفَعَ اسمَ أبيهِ واستبدَلَه بـ (أَخْناتون) وهَذا عِنْدَ قدماءِ المِصْريِّينَ أَمْرٌ خَطيرٌ، فالفَراعِنَةُ عِنْدَهُم آلِـهَةٌ ممجَّدونَ، وليسَ لـ(أَخْناتون) أَنْ يمتَهِنَهُم، وحرَّكَ الثَّوْرَةَ في هَذا الأَمْرِ الكَهَنوتُ الذين أُصيبوا في أَمْوالِهِم وعمَلِهِم ورِبْحِهِم.

ثم أَتى حادِثٌ آخر قَضى عَلى كُلِّ آمالِ (أَخْناتون) وَهوَ أَنَّ هَذا الملك انشغَلَ بشؤونِ دينهِ عَنْ الاهتمامِ بشؤونِ إِمْبَراطوريَّتِهِ الواسعة، وهَذا الإِهْمالُ سهَّلَ السَّبيلَ لبَعْضِ التَّابعينَ لتلكَ الإِمبراطوريَّةِ فأَعلَنوا الانشقاقَ عَنْ مصرَ، فَهَذِهِ سوريَّةٌ تُعلِنُ العِصيانَ ثُمَّ تستقلُّ، وَلَمْ يُعالِج (أَخْناتون) ذَلِكَ معالجةً حاسِمةً، فَقَدْ كانَ في أَعماقِ نفسِهِ لا يعتقدُ كلَّ العَقيْدَةِ حقَّ مِصْرَ في حكمِ الأُمَمِ الأُخْرى، ومَهْما يَكُنْ من أمرٍ فإِنَّ انشقاقَ المَمْلكَةِ عَلَيْهِ ولَّدَ لَهُ المتاعبَ والمشاكلَ الكَثيْرَة، فاضطربَ لها وماتَ في الثَّلاثينَ منْ عمُرِه مَقهوراً حزيناً مَجروحَ القلبِ، مَكْلومَ الفؤادِ، وما إِنْ ماتَ حَتَّى قُضيَ على دينهِ وعادَ المصريونَ إِلى ديْنِهِم القَديْمِ، ومحا الكَهَنَةُ اسم (أتون) واسم (أَخْناتون) مِنَ المعابِدِ والهياكِلِ والجُدْرانِ، فقَضوا على الدّيْنِ وأزالوه بَعْدَ إِذْ كانَ، وأَصبَحَ أَثَراً بعدَ عيْنٍ.

الفصلُ الثاني

أَدْيانُ الهِنْدِ الكبرى

المدخل

أَوَّلاً - الفيـديـةُ

ثانياً - البَراهميَّةُ

ثالِثاً - الجيْنيـةُ

رابِعـاً - البـوذيـةُ

خامساً - الهنْدوسيَّـةُ

المدخل

إنَّ شبه القارَّة الهنديَّة من أكثرِ بقاعِ العالمِ أدْياناً، وتنتشرُ الأديانُ المتعدِّدة فيها انتشاراً واسعاً، ولا تكاد تمرُّ سنة من الزَّمنِ منذ القديم وإلى يوم النَّاس دون أنْ يظهر في الهند دينٌ جديدٌ، مما اضطر الحكومة الهنديَّة لإِحْداثِ وزارةٍ خاصَّة ب الأديانِ، من أبرزَ مهامها أنْ وضعت أُسُساً لتسجيل كلِّ دينٍ جديدٍ، وقد اشتهرت بسبب ذلك مقولةُ (إنَّ الهندَ تُنبِتُ الأديانَ كما يُنبِتُ الأرضُ البقْلَ) ولذلك فإنَّ البَحْثَ عَنْ الدّياناتِ الهنْدية أمرٌ في غايةِ الصُّعوبةِ، لِما يتخلَّله مِنْ عُقَدٍ ومشاكلَ، وتتمثَّلُ هذهِ العُقدُ بـ(اشتباكِ الأديانِ المتعدِّدَةُ بَعْضُها مَعَ بَعْضٍ في مَصادِرِها الأوْلى، وتَشابِهِ أرْبابِها وآرائها، ثُمَّ اختلافها اختلافاً لا يظْهَرُ واضِحاً في كُلِّ مراحلِ تَطَوُّرِها).

ولقد اشتركَ عددٌ هائلٌ مِنَ المُفكِّرِيْن والفَلاسِفَةِ في وضْعِ دياناتِ الهنْدِ، فأنْتجوا إنْتاجاً ضَخْماً متَشابِهاً مُتَخالِفاً موَحَّداً مُتَشابِكاً متَضارِباً.

وتطوَّرت الأدْيانُ الهنْديَّةُ فتعقَّدتْ وتَشابَكتْ مرَّةً أُخْرى.

وعلى ذَلِكَ وَجَبَ حينَ بحثها تصنيفُها وذِكْرُها متطوراً مَعَ الإشارَةِ إلى تفرُّعِ بعضها عَنْ بَعْضٍ حَتَّى تتضِحَ الأُمورُ ويفْهَمُ السِّياقُ.

ومما يزيدُ في صعوبةِ البَحْثِ في الدّياناتِ الهنْديَّةِ أنَّها لا عَقِيْدَة واضِحةً لها، ولا يوجَدُ لها أُسلوبٌ فلسفيٌّ موحَّدٌ، وأنَّ بعْضَها يَخْلو من فكرَةِ الآلَهِ أصلاً، فتَجِدُ ديناً بلا إِلَهُ، وبلا مُمارَسَةٍ للعباداتِ.

هذا وإذا أَرَدْنا أَنْ نَحصُرَ الأدْيانَ الرئيسيَّةَ المهمَّةَ في الهنْدِ أَمْكَنَنا أَنْ نقول: إِنَّها (الفيْديَّةُ، البَراهيميَّةُ، الجيْنيَّةُ، البوذيَّةُ، الهنْدوسيَّةُ، وديانَةُ السِّيْخِ).

هَذِهِ هيَ الدّيانات الكُبْرى الأَصْليَّة في الهنْدِ، ويتفَرَّعُ منها فرقٌ ومَذاهِبٌ، وإلى جانبِها أدْيانٌ كثيرةٌ أُخْرى.

أَوَّلاً - الفِيدِيَّةُ

كانَ في الهِنْدِ قَبْلَ القرنِ الخامسَ عشرَ قَبْلَ المِيْلادِ شعبٌ يُسمَّى (**الدرافيدين**)، وكانَ لهَذا الشَّعْب حَضارةٌ قديمةٌ، وَهوَ على شيءٍ من الثَّقافَةِ والمعْرفَةِ، وكانَ لَهُ دينُه أوْ أدْيانُهُ، ومُعْظَمُها مَبْنِيَّةٌ على الاعتقادِ بالحيوانِ إلَهاً. وإلى جانِبِ الحيوانِ آلِهَةٌ آخرون، وفي القرنِ (١٥ ق.م) أوْ قبْلهُ ورَدَ الهنْدَ شَعْبٌ جَديْدٌ من أواسِطِ آسيا، وَهوَ ما يُعرَفُ الآن بـ(**الآريين**)، ويقالُ: إنَّ أصْلَهُ مِنِ أوروبا، وأنَّهُ مِنَ الأقوامِ التي سُمِّيتْ فيما بَعْدُ بـ (الهُنودِ الأُوربيِّين) وقد اختَلَطَ هَذا الشَّعْبُ بالدرافيديين، وكوَّنَ فيهم ما دُعيَ بـ (**الكايست**) وهي طَبقاتُ النّاسِ، وحرفهم، وأعْمالُهم، فأُلْزِمَ بألا يَتعدَّى أصْحابُ كلِّ حرفةٍ إلى غيرِها، وجَعَلَ على رأسِ الكايست الشُّرفاءُ والنُّبلاءُ وَهُمْ (الآريونَ).

باجتماعِ هَذَيْنِ الشَّعْبينِ - (الدرافيدين) و(الآريين) - نتجَ ديْنٌ جَديْدٌ هوَ (**الفيْديَّة**)، أخَذَتِ الفيْديَّةُ مِنَ الدّيْنِ الدرافيدي القَديْمِ، وأخَذَتْ مِنَ الدّيْنِ الآري القَديْمِ.

= أخَذَتْ مِن آلِهَةِ الآريين: (**آغنيت**) إلَه النّارِ، و(**اندرا**) إلَه الجوِّ، و(**سوريا**) إلَه الشَّمْسِ.

= وأخَذَتْ من الدّيانَةِ الدرافيدية عِبادَةَ بَعْضِ قوى الطَّبيعَةِ والحَيواناتِ.

والفيْديَّةُ تهتَمُّ بالأصْلِ بالتَّضحيةِ للآلِهَةِ وللعالَمِ، فليْسَتْ الغايةُ منها على ما يظْهَرُ عِبادَةَ الآلَهَةِ في الدَّرجةِ الأُوْلى، بَلْ الغايةُ منها: (**دوامُ الخَلْقِ**)، ودوامُه يَكونُ بـ(**القُرْبانِ**) إلى الآلِهَةِ، والذي يظْهَرُ أنَّ الآلِهَةَ لا تَستَطيعُ وَحْدَها أنْ تُسيِّرَ العالَمَ وتزيدَ فيه، بَلْ يَنْبَغي لها التَّضاحي والقُرْبان، وفي القُرْبانِ أساسٌ لتوسُّعِ الخَلْقِ ونموه وتعدُّدِه، فالكَوْنُ يتقَدَّمُ بالتَّضحيَّةِ والقَرابيْن، وهي ضروريَّةٌ لانْعاشِهِ

وتقويَتِهِ وبَعْثِ الحَياةِ فيهِ.

والعالَـمُ (باراجاتي) وَهوَ كائنٌ هائلٌ يستفيدُ من تلكَ القَرابيْـنِ، ويأخُذُ قوَّتـهُ منـها، وإذا أخـذَ قوَّتـهُ مـن القَرابيْـنِ أحْدثَ الشـيءَ الجَديْدَ، ويظْهَـرُ مـن ذَلِـكَ أنَّ العالَـمَ واحدٌ، وأنَّهُ حلقةٌ متَّصلةٌ بَعْضُها بِبَعْضٍ، تأخُذُ من نَفْسِها وتتوسَّعُ وتتطوَّرُ.

تستَنِدُ الفيْديَّةُ على كُتُبِ (فيدا) أوْ (فيداس) وهي مكتوبةٌ باللُّغةِ السَّنْسَكريتيَّةِ القَديْمَةِ التي سقَطَتْ من الاستعمالِ.

وبكلمةٍ واحدةٍ:

= ليْسَتْ العِبادَةُ في الفيْديَّةِ موجَّهة للآلِـهَةِ إنَّما هـيَ لتقْويـةِ الكَوْنِ والمدِّ فيـه، وللعودَةِ إلى الوحدَةِ.

= والآلِـهَةُ تَنْتَهي إلى واحِدٍ هوَ (البراهمان).

ثانياً - البَرهميَّةُ

خَرَجَت البَرْهَميَّةُ من الفيْديَّة مَعَ تطورِ الزَّمنِ، وأخَـذَتْ شَـكْلا فلسـفياً بَعْـضَ الشيءِ، فيه إيضاحٌ لفكرةِ الفيْديَّةِ وتحديـدٌ لهـا، فَقَـدْ قالَـت الدّيانـةُ البَرْهَميَّةُ بوجـودِ شيئينِ، هما:

= (البراهمان) وَهوَ مبدأُ العالَـمِ وأصْلُهُ.

= و(الأتمان) مبدأُ الأنا أوْ الشُّعور بالشَّخْصيَّةِ وبـالكَوْنِ الخـارجي، أوْ بكلمـةٍ أُخْرى الروح.

فهنالكَ إذَنْ ثنائيةٌ وهي:

أولا: الكَوْنُ المحيطُ بنا، والـمَظاهِرُ الخارجيَّةُ.

وثانياً: شعورُنا بنفسِنا وشخصِنا.

ولابدَّ مِنْ أنْ ينتهيَ الأمْرُ باتِّحادِ (البراهمان) مَعَ (الأتمان) لتُكوِّنَ وحدَةَ العالَـمِ التي ترمي إِلَيْها الأدْيانُ الهِنْديَّةُ، ولَكِنْ كيفَ تَكوْنُ تلك الوحدةِ؟

إنَّ المَوْتَ يُحقِّقُ بدايةَ تلك الوحدَةِ، فالروحُ تخرجُ من الجَسدِ وتنتقِلُ متدرِّجةً إلى أجْسادٍ أُخْرى وأشْكالٍ أُخْرى حَتَّى تنتهيَ يَوْماً إلى الفَناءِ بالعالَـمِ والخُلودِ، والسُّؤالُ:

= كيف تَكوْنُ هَذِهِ النهايةُ؟

= وكيف يُمْكِنُ أنْ تُعْطي (الاتمان) قوَّةً لتؤولَ إِلى الفَناءِ في العالَـمِ الخالدِ؟

وتُجيْبُ الدّيانَةُ البَرْهَميَّةُ بالقَولِ:

إنَّ الإِنْسانَ قد تنتَقِلُ روحُهُ إلى صورَةٍ أُخْرى حيوانيَّةٍ أوْ غير حيوانيَّةٍ، وهَذا هوَ (**التَّقمُّصُ**)، والتَّقمُّصُ قد يَكونُ رُقيّاً أوْ انحِطاطاً، والرُّقيُّ هوَ الذي يؤولُ إلى النِّهايةِ المُطلَقَةِ التي هيَ فَناءٌ في العالَـمِ الخالدِ، فعلينا إذَنْ أنْ نبحثَ عَنْ الرُّقيِّ، وأنْ نَسْعى إليهِ، والرُّقيُّ يَكونُ بعملِ الخَيْرِ، ومُمارَسَةِ الفَضائلِ، والفَضائلُ تَدْفَعُ الإِنْسانَ إلى الوحدةِ، تَدْفَعُهُ إلى ذَلِكَ خِلالَ مراحلِ تقمُّصهِ، تلك المراحلُ التي تُدْعى (**الكارما**) فالكارما: هيَ ذَلِكَ النَّوْعُ من التَّقمُّصِ المتدرِّجِ المتعدِّدِ الذي يؤولُ إلى الوحدَةِ، والذي قد يَكونُ ربّاً قويّاً قادِراً، لَهُ أثرُه في تطوُّرِ العالَـمِ.

هَذِهِ الدّيانَةُ هيَ التي انْتَهى إِلَيْها رأْي البَراهمانيين، ووضَعوا لها طُقوساً دقيقةً، وحدَّدوها بعباداتٍ منظَّمَةٍ متممّةٍ، وقامَ الكَهَنَةُ بتلك العباداتِ، وطلبوا مِنَ المُتعبِّدينَ أنْ يُقدِّموا القَرابيْنَ لَهُمْ، فأَصْبَحَتِ الدّيانَةُ في نَظَرِ الشَّعْبِ ذَلِكَ الهَيْكَلَ من الكَهَنَةِ، وتلك القَرابيْن، وأتى (**بوذا**) فوَجَدَ الأمْرَ على ما وَصَفْنا، فربأَتْ بهِ نفسُهُ عَنْ ذَلِكَ، وأوجدَ ديناً جَديْداً حاولَ أنْ يَقضيَ بهِ على عمَلِ الكَهَنَةِ وعلى القَرابيْنِ.

ثالثاً - الجِينِيَّةُ

وضَعَ هَذا الدّيْن وبشَّرَ به (**مهافيرا**) الذي اسمه (**جينا**) ومعناه (**المنتصر**) أي المنتصر عَلى كُلِّ الشهَواتِ البَشَرِيَّةِ، وجينا ابن المَهْراجا في الهِنْدِ، وقد عاشَ بيْنَ عامي (٥٢٨ - ٤٦٨ ق. م)، فَهوَ إِذَنْ أَقْدَمُ منْ (بوذا)، حَتَّى ليُقالُ إِنَّ (بوذا) اتَّبعَ تعاليمهُ أوَّلَ الأمْرِ.

مالَ (جينا) إِلى التَّزَهُّدِ، فتَرَكَ أهلَهُ، وانقطعَ إِلى العِبادَةِ والتَّعليمِ عشَر أعوامٍ، فإِذا به يَرى أنَّهُ قد انْكَشَفَتْ لَهُ معارفُ العالَمِ، وانتَصرَ على الشَهَواتِ، وتمكَّنَ من (الكارما) فأخذَ ينْشُرُ مَذْهَبَهُ وتعاليمهُ.

يَقولُ المَذْهَبُ الجينيُّ: **إِنَّ العالَمَ يَمرُّ في دَوْرَتينِ**، وفي كُلِّ دورةٍ أرْبَعَةً وعِشْرينَ جيْناً (تنْتَصِرُ على الشَّهَواتِ).

= **لقدْ مرَّ العالَمُ في الدَّورَةِ الأُوْلى** وهي دَورةُ صُعودٍ نحوَ الخَيْرِ، وقوَّة في جسمِ الإِنْسانِ، وامتداد في حَياتِهِ.

= **أمّا الدَّورةُ الثانية** وهي الدَّورةُ التي فيْها الإِنْسانُ الآن فهي دورةُ تقهقُرٍ وهُبوْطٍ مستَمرٍّ، وقد ظَهَرَ الأرْبَعَةُ وعشرونَ (جيناً) فكانَ آخرهم (مَهافيْرا).

وتضيفُ تلكَ التَّعاليمُ أنَّ كُلَّ شَيْءٍ في العالَمِ خالدٌ (المادَّةُ، والجسمُ، والرُّوحُ)، أمّا الأرْواحُ فتحافظُ على شعورِها بنفسِها دوماً خِلالَ كلِّ مَراحِلِها وتقمُّصاتِها، على أنَّ سلوكَ المرءِ خِلالَ تقمُّصاتِه يؤثِّرُ فيه إِنْ خيْراً فخَيْرٌ وإِنْ شرّاً فشَرٌّ، وقد يبلغُ المرءُ (**النرفانا**) بَعْدَ تقمُّصاتٍ عددها ثَمانية.

أمّا الزُّهادُ فَقَدْ يبْلُغونَ ذَلِكَ في اثنَتي عشْرَة سنة دونَ **تقمُّصٍ** وذَلِكَ باتِّباع مَبادِئ فيها نُكرانٌ شديدٌ للنَّفْسِ، واتِّباعٌ للنِّظام الرَّهْبانيِّ، وأخْذٌ بخمسَةِ مَبادِئ لا يُحادُ عنها:

أولُها: وَهوَ (أهيمسا) عَدَمُ أذيَّةِ أي مَخْلوقٍ كانَ، يستوي في ذَلِكَ الإِنْسانُ والحيوانُ والحَشَراتُ، فكلُّ حياةٍ مُقدَّسةٌ كحياةِ الإِنْسانِ، وخالدةٌ مثله.

ثانيها: ذِكْرُ الحَقيْقةِ دونَ موارَةٍ.

ثالثُها: عَدَمُ السَّرِقةِ.

رابعُها: عَدَمُ اقتناءِ الأَمْوالِ الدُّنيَويَّةِ.

خامسُها: التَّغلُّبُ على الشَهَواتِ الجَسديَّةِ.

تلكَ هيَ المَبادِئُ التي تسهِّلُ على الزُّهَّادِ بلوغَ (النرفانا) في مدى اثنتي عشْرَةَ سنةً.

وهنالكَ ثلاثةُ مَبادِئ تُفيدُ كلَّ إِنْسانٍ، وهي: العَقيْدَةُ الصَّحيْحَةُ، والمعْرِفَةُ الصَّحيْحَةُ، والسُّلوكُ الصَّحيْحُ.

آلِهةُ الجينيَّة، وأَخلاقُهم:

لَمْ يكنِ الجينيونَ يَعْبُدونَ إِلَهاً ما ابتداءً، بل كانوا يَنبذونَ الآلِهَةَ والأَرْواحَ والشَّياطينَ، ثُمَّ إِنَّهمُ اتَّخَذوا بأخرَةٍ بعضَ آلِهَةِ الهنْدوسيَّة إِلى جانِبِ (جينا).

وَهُمْ مُلْزمونَ بأَنْ يُمارِسوا حرفَةً شريفَةً لا يتعرَّضُ فيْها مُمارِسُها لقتْلِ أي روحٍ.

وعليهم أنْ يكونوا مُحْسنينَ، مُتواضعينَ، وألا يَدَعوا فرصةً تفوتهم دونَ البَحْثِ عَنْ عملِ الخَيْرِ.

وعددُهم اليَوْمُ قليلٌ فهمْ لا يتَجاوَزون مليوناً ونصفَ المليونِ.

رابعاً - البوذيَّةُ

بحثنا اليَوْم لا يتَّصفُ بدينٍ لَهُ صفةُ الأَدْيانِ الأُخْرى، أي الاعتقاد بالإِلَهِ، بَلْ هوَ جهدٌ وطَريْقٌ وبحثٌ عَنْ خلاصِ النَّفْسِ الإِنْسانيَّةِ من شَقائها وأَلَمِها عَنْ طَريْق

التَّقمُّصِ المستَمرّ وتعذيبِ النَّفْسِ، قامَ بهذا البَحْث رجلٌ عظيمُ النَّفْسِ، قويُّ الإرادةِ، كَثيرُ الحساسيَّةِ، عطوفٌ على الفُقَراءِ والمساكين، وعلى النّاسِ عامَّةً، هوَ (غوتاما).

سنتَناوَلُ هذا المذْهَبَ بالبَحْثِ على أساسِ عرضِ تاريخِ حَياتِهِ، فَفي ذَلِكَ العرْض يظْهَرُ (غوتاما) على حقيقتِهِ التَّامَّةِ، وتُظْهِرُ آراءَه ومَذْهَبَهُ، ثُمَّ إنَّنا عِنْدَ البَحْثِ معَنا في حَياتِهِ، ونفصِّل بَعْضَ التَّفصيلِ فيما آلَ إلَيْهِ الدّيْنُ فيما بعد.

على أنَّ حياةَ (غوتاما) مزيَّنَةٌ بالخُرافاتِ، ومطليَّةٌ بطلاءِ التَّحليَّةِ، والوصولِ منها إلى الحَقيْقةِ صعْبٌ بَعْضَ الشَّيءِ، وسنحاولُ أنْ نُعطي بالتَّقريبِ ما يُخيَّلُ للمرءِ أنَّهُ كانت عَلَيْهِ حَياتُهُ.

وِلِدَ (غوتاما) تَقْريباً عام (٥٦٣ ق.م) وهذا التّاريْخُ ليسَ متَّفَقاً عليهِ، وتُوفي حَوالي (٤٨٣ ق.م) وَهوَ تاريخٌ لم يَتَّفِقْ عَلَيْهِ المؤرخونَ أيْضاً، والمتَّفقُ عَلَيْهِ أنَّ البوذيَّةَ نَشأتْ في أواخِرِ القرنِ السادسِ قَبْلَ الميْلادِ، وأوائلِ القرنِ الخامسِ قبلَ المِيلادِ، وتقولُ الأسطورَةُ إنَّ غوتاما (بوذا) نَشأَ في عائلةٍ غنيَّةٍ كلَّ الغِنى، وأنَّ والدَهُ كانَ مَلِكاً في إحدى مُقاطعاتِ (نيبال)، على أنَّ الشَّيءَ الذي انتهى إلَيْهِ البَحْثُ هوَ أنَّ والدَه لم يَكُنْ مَلِكاً وإنَّما كانَ رَئيساً لقبيلةٍ منَ القبائلِ، وكانَ مِنَ أشْرافِ الآريِّين من طبقةِ المحاربينَ، وبما أنَّ الآريِّينَ هُمْ الطَّبقةُ الأُوْلى العاليةُ في نِظامِ (الكايست)، فوالدُهُ إذَنْ منَ الطَّبقةِ المتميِّزَةِ عَلى كُلِّ حال.

عاشَ غوتاما (بوذا) في وسطٍ غنيٍّ، وتمتَّعَ بِحَياةِ البذْخِ، وتزوَّجَ وعمرُهُ تسعٌ وعشرونَ سنةً، وأنْجبَ، غير أنَّهُ كانَ ذا حساسيَّةٍ شديدةٍ، ونفسٍ رقيقةٍ، وعطفَ على النّاسِ فكانَ يَخْرُجُ حيناً من قَصْرِه فيرى النّاسَ في حَياتِهِم وشقائهم وجوعِهم فتُستَفَزُّ نفسُه، ويطولُ تَفْكيرُهُ.

وقيل: إنَّهُ رأى يَوْماً مريضاً وجثَّةً ورجُلا فقيراً، فتمثَّلَ الشَّقاءُ أمامَ عينيهِ

بأجْمَعِه، فعادَ إلى قصرِهِ، واعتمَدَ أنْ يَتْرُكَ كلَّ ما هوَ عليه، وغادرَ في اليَوْمِ الثاني قَصْرَهُ، ويقالُ: إنَّهُ تَرَكَ زوجتَه وهيَ على وشكِ الوِلادَةِ.

كانَ (غوتاما) قد تَساءَلَ كَثيْراً ما هَذا الشَّقاءُ وَما سَبَبُه، فعمدَ إلى دراسةِ الدّيانَةِ البَرْهَميَّةِ فلم يَجِدْ فيْها سؤالهُ، ووَجَدَ أنَّ تلك الدّيانة تَسْعى إلى التَّوْحيْدِ بيْنَ (الأتمان، والبراهمان) عَنْ طَريْقِ التَّقمُّصاتِ المُتكرِّرةِ والآلامِ المُتَتابِعَةِ، وتعذيب النُّفوسِ، ورأى أنَّ ذلكَ الدّيْنَ في أيْدِ الكَهَنَةِ يوجِّهونَه ويستفيدونَ من قربانِهِ، فمجَّتْ نفسُه كلَّ ذلك، وكانَ هَذا هوَ السببُ الحقيقيُّ لتركِه قصرَهُ وهَيَمانِه على وجهِهِ في العالَمِ.

فخَرَجَ إذن يَبْحَثُ عَنْ الحَقيْقة ويطلبُها من العارفينَ، فيتَّصلُ باثنينِ منَ البَراهِمَةِ، ويأخذُ عنهما آراءهما، لَكِنَّهُ لا يجدُ في كُلِّ ذَلِكَ ما يُشْبِعُ رغبَتَهُ فيتركُهما ويهيمُ على وجهِه تارةً أُخْرى، فيَجْتَمِعُ بخمسةٍ مِنَ المتزهِّدينَ البَراهمانيِّينَ، ويعرفُ أنَّهُمْ يَبْحَثونَ عَنْ الحَقيْقةِ كَما يَبْحَثُ هوَ، وأنَّهُمْ يعذِّبونَ أنْفُسَهُم ويتزهَّدونَ في الحَياةِ، عسى أنْ يَصِلوا إلى الحَقيْقةِ، فسارَ معهم وعاشَ حَياتَهُم حَتَّى ظَهَرَتْ عِظامُ صدْرِهِ، ووقَعَ عَلى الأرْضِ من الجوعِ، وبقيَ على هَذِهِ الصّورَةِ ستَّ سنواتٍ سويّاً، وإذا بهِ يَرى أنَّ كُلَّ ذَلِكَ ليسَ بنافعٍ لَهُ، وأنَّ هَذا التَّعذيبَ وذَلِكَ الصِّيامِ لم يُؤَدّياه إلى كَبيْرِ شَيءٍ، فيعزمُ أنْ يَعودَ إلى الحَياةِ العاديَّةِ حياة التَّجوُّلِ دونَ تعذيبِ النَّفْسِ، ودونَ إلْحاقِ الأذَى بالجسمِ، فيفرُّ منه رفاقُهُ الخمسةُ إذْ خالفَ عهدَهُم، ويبتَعِدونَ عنه، ويهيمُ هوَ على وجهِهِ يسألُ النّاسَ الطَّعامَ والإيْواءَ، ثُمَّ يدبُّ به اليأسُ وَهوَ قد مَضى عَلَيْهِ أمدٌ طويلٌ لم يَصِلْ إلى مُناه.

ويلجأُ يَوْماً إلى شجرةِ تيْنٍ، فينوي أنْ لا يُغادِرها إلا بَعْدَ أنْ يتمَّ لَهُ فهمُ

الحَقِيْقةِ[1]، ويبقى تَحْتَ تلكَ الشَّجَرَةِ سبعةَ أسابيع، وَهوَ ينادي الحَقِيْقةَ، ويتأمَّلُ، ويطيلُ التَّأمُّلَ، ويطلبُ النُّورَ، وإذا بالنُّورِ يأتيهِ وتنْكَشِفُ الحَقائقُ لَهُ، فيتحرَّرُ ويَصلُ إلى المَعْرفةِ، وفي هَذِهِ الأثناء يأتيهِ تاجِرانِ فيُسْرِعُ في تَعْليمِهِما ما انْتهى إلَيْهِ من الرَّأي والاكتشافِ فيؤْمِنانِ بِما يقولُ، ثُمَّ يعودُ إلى رِفاقِهِ الخمسةِ، فيشرحُ لَهُمْ ما وَجَدَه، فيؤمنونَ بذلِكَ ويصدِّقونهُ، وسنشرحُ الحَقائقَ التي انتهى إلَيْها مأخوذةً من الكُتُبِ التي وضِعَتْ في الدّيانةِ البوذيَّةِ.

اكتشفَ غوتاما - وقد سُمِّيَ (بوذا) أي (المنوَّر بالنُّورِ) الذي أتاهُ - تَحْتَ تلك الشَّجَرَة الحقائقَ الأربع التي تُعدُّ أساس مَذْهَبِهِ ودينِه، وهَذِهِ الحَقائقُ هي:

١ - كُلُّ مَوجودٍ كائن في هَذا العالَم يتَلقَّى الألَمَ في نفسِهِ، ويعيشُ فيه طيلةَ حَياتِهِ، ولا قيمةَ للأشْياءِ، والحَياةُ كلُّها شقاءٌ وتعذيبٌ، والحَقيْقةُ الأوْلى إذن هيَ حقيقةُ التَّشاؤمِ الشَّديد الذي تتَّصِفُ به البوذيَّةُ أكثرَ من أيِّ دينٍ آخرَ، وهو تشاؤمٌ لا داعي لَهُ بالمقْدارِ الذي ذَكَرَتْه البوذيَّةُ.

٢ - ما هوَ أساسُ الألَمِ والشَّقاءِ؟

أساسُهُ أنَّ الإنْسانَ يَبْحَثُ عَنْ الشَّهوَةِ والملَذّاتِ، ويَبْحَثُ عَنْ زيادةِ الحَياةِ ويتتبَّعُ الحَياةَ، ويخلو فيْها ويطلبُ ملذَّاتِها ومسرَّاتِها، فَهوَ نَهِمٌ نَهَماً شَديداً.

وهَذا النَّهمُ الشَّديدُ هوَ سَبَبُ شقائه وعلَّةُ مصائبِهِ، إنَّ هَذا النَّهَم تصحبُهُ لَذَّاتٌ شهوانيَّةٌ، ويزدادُ البَحْثُ عَنْ تلكَ الملذّاتِ فلا يشبَعُ الإنْسانُ من ذَلِكَ البَحْث، وينتقلُ من إشْباعٍ للحواس إلى إشْباعٍ آخر، دونَ أنْ يتمَّ الإشْباعُ الكامِلُ، بَلْ البَحْثُ متَّصلٌ، والجريُ وَراءَ الشَّهوةِ مستَمرٌّ، والرَّغْبَةُ في الحَياةِ مُتَتابعَةٌ لا تقفُ، واللَّذةُ والرَّغْبَةُ تَجْعَلانِ الإنْسانَ يتمسَّكُ بتلكَ الأشْياءِ الدُّنيَويَّةِ التَّافهَةِ،

---

(١) وذلك أنه شعر براحةٍ كبيرة عند تلك الشجرة، فقرَّر البقاءَ عندها.

فيَدورُ في البَحْثِ عنها في حلقةٍ مُتَتابِعَةٍ لا تقِفُ، ويتولَّدُ خِلالَ ذَلِكَ الدَّوران والتَّتبُّعِ الشَّيخوخةُ والمَوْتُ والعذابُ والحزنُ واليأسُ.

٣ - يتساءَلُ الإِنْسانُ وتساءَلُ بوذا:

كيفَ نزيلُ الآلامَ ونتَخلَّصُ منها لنَحْيا الحَياةَ اللائقةَ؟

وجوابُ بوذا عَنْ ذَلِكَ: أنَّ القَضاءَ على الشَّهوةِ يُزيلُ الآلامَ، والقَضاءَ على الرَّغباتِ والنَهَمِ المستَمرِّ في البَحْثِ عَنْ المَلذَّاتِ يُبْعِدُ الآلامَ ويُزيلُ العذابَ، حَتَّى إذا لم يبقَ عِنْدَ الإِنْسانِ أيَّةُ شَهوةٍ (كانَ التَّراضي، والصَّفاءُ، والتَّحرُّرُ، وطرْدُ النَّهَمِ العنيفِ).

٤ - وإذا قضى الإِنْسانُ على شهوتهِ وتحرَّرَ من النَّهَمِ والعُنْفِ استطاعَ أنْ يُدْرِكَ (النَّرْفانا) والنِرفانا: مبدأٌ أساسيٌّ من مَبادِئِ البوذيَّةِ، اختلفَ المؤرِّخونَ والباحِثونَ في شأْنِها وَما هي؟

فقال بَعْضُهُم: إنَّها الفَناءُ.

وَقالَ آخرون: بَلْ هيَ اليَوْمُ الآخرُ، أوْ حياةٌ أُخْرى يدخلُ فيْها المرءُ بَعْدَ تحرُّرِه من نَهَمِهِ.

والذي انتهى إِلَيْهِ بَحثُ الباحثينَ المُتأخِّرينَ هوَ أنَّ **(النرفانا)** لَيْسَتْ هَذا ولا ذاك، بَلْ هيَ تلكَ النَّشوَةُ التي تنبَعِثُ في النَّفْسِ منْ إِدْراكِ المُنى في أَمْرٍ روحيٍّ، هيَ النَّشوَةُ التي يَصِلُ إِلَيْها العالَمُ وقد اكتشفت اكتشافاً جَديْداً لم يكتشف مثله، هيَ النَّشوةُ التي يحسُّ بها المتَصوِّفُ وقد انتَقَلَ إلى عالَمِهِ في إِحْساسهِ ومَقاماتِهِ، هيَ نَوْعٌ من اللَّذةِ الصَّافيةِ التي لا تُحَدُّ والتي لَيْسَتْ إِحساساً ما.

وَلَكِن كيفَ نصلُ إِلى (النرفانا)؟ وَما هيَ الطَّرِيْقُ إِلى ذلكَ؟

لعلَّ بحثَ بوذا هوَ ذا، وهو الأَصْلُ في مبدئه وأساسِ دينهِ.

يَقولُ بوذا: إنَّ الطَرِيْقَ إلى ذَلِكَ هوَ طريقٌ مثمَّنٌ أوْ مَبادِئ ثمانية:

١ - الإيْمانُ الصَّحيْحُ	٢ - العزمُ المُسْتَقيمُ
٣ - الكلامُ السَّليْمُ	٤ - العَمَلُ الصّالِحُ
٥ - الحَياةُ المُسْتَقيمةُ	٦ - الجهدُ الصَّحيْحُ
٧ - الفِكْرُ السَّليْمُ	٨ - التَّأمُّلُ الصَّحيْحُ

هَذِهِ هيَ أُسسُ العَمَلِ للوصولِ إِلى (النّرفانا) وكلُّها بثمانيَتِها طرائقُ صوفيَّةٌ وهي طرائقُ خيِّرَةٌ بارزةٌ في صلاحِها، من طلَبَها وعمِلَ بها وصلَ إلى تلك النَّشوَةِ، وتحرَّرَ مِنَ الألَمِ والشَّقاءِ.

والمبدأ السابع منها أي (الفِكْر السَّليْم) والثامن أي (التَّأمُّل الصَّحيْح) يقربان من العِبادَة، وقد يُظَنُّ أنَّهما من العِبادَة، على أنَّ بوذا لم تكنْ غايتُهُ عِبادَةُ إلَهٍ ما، أوْ البَحْثُ عَنْ الآلِهَةِ، فَطَرائقُهُ جَميْعُها هيَ لإزالَةِ الآلامِ، وللوصولِ إلى النَّشْوَةِ، ولرَفْعِ مُسْتَوى الإنْسانِ منْ حياةِ الشَّقاءِ، فليْسَتْ إذَنْ هَذِهِ الطَّرائقُ طرائقُ تعبُّديَّة، إنَّما هيَ أساليبُ لرفْعِ النَّفْسِ عَنْ مُسْتَوى الحَياةِ الدَّنيَّةِ ذاتِ الشَّقاءِ.

الرَّهبَنَةُ:

وتَقْتَضي هَذِهِ المَبادِئُ الثَّمانيةُ ممنْ يُريدُ أنْ يَصِلَ إلى كامِلِ النِّرْفانا أنْ يَتْرُكَ الحَياةَ الدُّنيَوِيَّةَ التي يعيشُ فيْها، وأنْ ينطلِقَ إلى تلكَ المُثُلِ العُليا والفِكْرِ السَّليْمِ، وأنْ يَهيمَ على وجهِهِ للوصولِ إلى النِّرْفانا، وهذا ما حضَّ عَلَيْهِ بوذا أتْباعَهُ، فهامَ التَّاجِرانِ - وهما أوَّلُ رُهْبانٍ في دينهِ - وحضَّ أيْضاً البَراهمانيِّينَ الخمسَةَ، فكانوا من أوائلِ رُهْبانه، وانْطَلَقَ هوَ نفسُهُ في ترْكِ العالَمِ والتَّبشيرِ بالحَقيْقَةِ خِلالَ ما بَقيَ من حَياتِهِ - وقد عاشَ فَوْقَ الثمانين - وكانَ لا يَلْجأُ إلى البيوتِ إلا زَمَنِ الشِّتاءِ، فيدخُلُ عِنْدَ الأُمَراءِ والمُلوكِ، ويُبَشِّرُ بمَذْهَبِهِ، ثُمَّ يعودُ بَعْدَ انقضاءِ الشِّتاءِ إلى هيمانِهِ، وإلى الاتِّصالِ بالنّاسِ وإفْهامِهِم ذَلِكَ الدِّيْنَ بالرِّفْقِ واللِّيْنِ، فـ(الرَّهْبَنَةُ)

أقْرَبُ الأشْياء إلى تَحقيْقِ دينِ بوذا، وقد أُسِّسَتْ صَوامِعُ الرَّهْبَنَةِ في أماكِنَ مُتَعدِّدَةٍ مِنَ الهنْدِ، ولَجأ الرُّهْبانُ إليْها، وتَكوَّنَ نوْعٌ من النِّظامِ الرَّهْبانيِّ المُحدَّد.

وَشَكا النّاسُ يومئذٍ من أُسلوبِ بوذا في هجْرانِ العائلةِ والأسْواقِ والانقطاعِ عَنْ الحَياةِ، وكثُرَتِ الأرامِلُ بيْنَ النِّساءِ بذهابِ أزْواجِهِنَّ.

أمّا **نظامُ الرَّهْبَنَةِ** فَقَدْ وُضِعَ وَضْعاً دقيقاً **بَعْدَ عَصْرِ بوذا**، على النَّحوِ التالي:

١ = لا يُقبل بيْنَ الرُّهْبانِ إلا منْ تقدَّمَ لامتحانٍ دقيقٍ.

٢ = وأُلزِمَ الرُّهْبانُ بلبسِ الثِّيابِ الصُّفْرِ.

٣ = لا يُوجَدُ دَرجاتٌ أو طبقاتٌ بَيْنَهُم، فهم مُتَساوونَ جَميْعاً، وفي ذَلِكَ حرب على مَبْدَأ (الكايست).

٤ = أكبرُ الرُّهْبانِ سنّاً يقرأُ كلَّ يَوْمٍ على زُمَلائه أقْوالَ الاعترافِ، يبدؤها بذِكْرِ الذُّنوبِ الأرْبَعَةِ الكَبيْرةِ، وهي (القَتْلُ، والزِّنا، والسَّرِقَةُ، والإعْجابُ بامتِلاكِ قوَّةٍ فائقةٍ)، هَذهِ الذنوبُ إذا وَقَعَ فيْها الرُّهْبانُ طُرِدوا من الصَّوامِعِ، فهي ذنوبٌ كَبيْرةٌ لا تُغْتَفَرُ، وهنالك ذُنوبٌ أصغَرُ يَنْبَغي أنْ يبتَعِدَ عنها الرُّهْبانُ، وهي: (شربُ الخَمْرِ، وتناولُ الطَّعامِ في أوْقاتٍ مُعيَّنةٍ، والرَّقصُ، والغِناءُ، وحُضورُ مَشاهِدِ الزِّينَةِ والتَّعَطُّرِ، واستِعْمالُ أدواتِ المَنْزِلِ المُريحَة، وأخْذُ المال).

ونستطيعُ بَعْدَ أنْ شَرَحْنا مَذْهَبَ البوذيَّةِ - ويُسمَّى الدَّرمة - أنْ نُلْحِقَ به المَبادِئَ الثلاثة الآتية: (أثِقُ ببُوذا، أثِقُ بالشَّريْعَةِ، أثِقُ بالجَماعَةِ).

= والمَبدأُ الأوَّلُ - الذي هوَ الثِّقةُ ببوذا - يوحي لِمُعتَنِقِ المَذْهَبِ وجوبَ الإيْمانِ ببوذا إيماناً يَجعلُ صاحِبَهُ سائراً على مَذْهَبِهِ.

= أمّا المَبدأُ الثَّاني فيجعلُهُ واثِقاً بالشَّرْعِ الذي وَضَعَهُ.

وينتجُ عَنْ المبدأ الثَّالثِ أنَّ على مُتَّبعِ البوذيَّةِ أنْ يثِقَ بالجماعةِ وبتَفسيْراتِهِم التي وَضَعوها للمَبادِئ.

الكُتُب الدّيْنيَّة:

ولعلَّ قولَ المبدأ الثاني (أثق بالشَّرْع) يوحي بأنَّ الثّقةَ يَجِبُ أنْ تَكوْنَ بالكُتُبِ الدّيْنيَّةِ التي فيْها عَرْضٌ للشَّرْعُ، هَذِهِ الكُتُب الدّيْنيَّةُ كُتِبَتْ باللُّغَةِ الباليَّة، وهي لغَةٌ قديمةٌ، والشَّرْعُ سُمِّيَ باسمِها، فقيلَ (الشَّرْعُ البالِيُّ) وَهوَ يَحوي ثلاثةَ أثْباتٍ:

الثَّبَتُ الأَوَّلُ هو (الفينايا):

وَهوَ ثبَتُ التَّلاميذِ، ويحوي: نظامَ الرَّهْبَنَةِ، ونَشْأَتَها، وتاريخَ الرُّهْبانِ الأولين من أتْباع بوذا، وكيف تطوَّرَ أمْرُهُم.

وفيه إثْباتٌ لِنظامِ الرَّهْبَنَةِ اسمه (سنغا).

الثَّبَتُ الثَّاني هو (الذامانا Dhamana):

وفيه مجموعةُ الوصايا ومجموعةُ الشَّرْعِ البوذي، مِنْ أقْوالِ بوذا ووصاياه - على ما يقال - على الأقل ما كانَ يعتنقُه تابَعوا بوذا في القُرونِ الأُوْلى من دينه، وفي هَذا الثَّبَتِ نجدُ المَبادِئَ الأَرْبَعَةَ، والمبدأ المثمَّن، والوصايا المختلفة.

الثَّبَتُ الثَّالِثُ:

هو الشَّرْعُ والتَّعليقاتُ التي وَضَعَها العُلَماءُ البوذيون.

فرق البوذيَّةِ:

لَم يتَّفِقِ البوذيونَ كلَّ الاتِّفاقِ على نُصوصِ كُتُبهِم.

وَهُمْ أيْضاً يَختلِفونَ في النَّظَرِ إلى الدّيْنِ نفسِه، فَقَدْ تفرقوا إلى فرقَتَي (هينايانا = العجلَةِ الصَّغيرةِ) و (مهايانا = العجلةِ الكَبيْرةِ).

= أمّا (الهينايانا) فانتَشرت في الهنْدِ الصّيْنيَّةِ وجنوبِ الهنْدِ وفي سيلان (سيرلانكا) خاصَّةً. وهي تتبع النُّصوصَ القَديْمَة، حريصةٌ على الدّيْنِ البوذي كَما وضَعهُ بوذا نفسُهُ، يتَمسَّكُ أصْحابُها بالمَبادِئ الأصْليَّةِ، ويُحاوِلون أنْ يُصْبِحوا كـ(بوذا) فيما يتَّبعونهُ من تعاليم، ويرونَ أنَّ الإنْسانَ يَجِبُ أنْ يَكونَ بوذا لنَفْسِهِ،

وأنْ يَصِلَ إِلى النِّرفانا بنفسِهِ، فسعيُهم فَرْديٌّ يَصِلونَ بِه إِلى الحَقيْقَةِ، فيَكْتَفونَ بذلكَ، ولا تَقْديسَ عِنْدَهُم للأَفْرادِ الآخرين، ولا يؤمنونَ بالآلِهَةِ.

= وأمّا فرقة (المهايانا) فَقَدْ انتشَرَت انتِشاراً كَبيْراً، وعدَّلَتِ البوذيَّةَ القَديْمَةَ فجَعَلَتْها قريبةً من فهْمِ الأَقْوامِ التي اعتَنَقوها. ويُحاوِلُ أَتْباعُ المهايانا اكتِشافَ ما اكتشَفَهُ بوذا نفسُه، ثُمَّ تعليم الآخرين هَذا الشَّيءَ المُكتَشف، فهُم إِذا يكرِّسونَ أَنْفُسَهُم للحياةِ الاجتماعيَّةِ، ويطمَعونَ بالوصولِ إِلى (النّرْفانا) لا للاستفادةِ الشَّخْصيَّةِ فحَسْب، بَلْ لإِفادةِ النّاسِ أَيْضاً وتَعْلِيْمِهِم، وعلى ذَلِكَ فهي أَقَلُّ فرديَّةً من الهينايانا، وَهُمْ يؤمنونَ بقدسيةِ أولئكَ الذين ساروا سِيْرَةَ بوذا وانتهوا إِلى معْرفةِ حقائقِهِ وانكبوا على إِفادةِ النّاسِ بها، ويرى المهايانا أنَّ في كُلِّ نَفْسٍ إِنسانيَّةٍ ذرَّة منْ بوذا يُمْكِنُ تَنْميتُها بحيثُ يصلُ الشَّخصُ إِلى دَرَجةٍ من القُدسيَّةِ. والواقعُ أنَّ هَؤلاءِ القديسين قد بلغَ من اعتبارِ العامَّةِ لَهُمْ أَنْ جعَلوهُم شِبْهَ آلِهَةٍ يُعْبَدونَ، وتُنْشأُ لَهُمْ الهياكِلُ، ويُصلَّى لَهُمْ كصلاةِ البراهمانيين.

غَيَّرَتْ هَذِهِ العجلة إِذنْ طَرِيْقَةَ بوذا وتعاليمه، التي أخذت تتَضاءَلُ في بَعْضِ المدارسِ المهايانيَّةِ حتى كادَتْ أن لا يبقى لها أَثَرٌ.

وأساسُ العقيدةِ (المهايانية) هو تَمَثُّلُ كائنٍ سامٍ خالِدٍ، أي تَمَثُّلُ بوذا تَمَثُّلا مُطْلَقاً يظْهَرُ في القدِّيسين في أَجْيالٍ مُختَلفةٍ.

= وأمّا (المهايانا) فانتشرَتْ في الصِّيْنِ، ذَلِكَ أنَّ امبراطوراً صينيّاً أَرْسَلَ من أَحْضَرَ لَهُ عالِمَيْنِ بوذيِّيْنِ، تَرْجَما لَهُ إِلى الصِّيْنيَّةِ الكُتُب المُقَدَّسَة البوذيَّةِ واطَّلَعَ عليها عُلَماءُ بلادِه، فإِذا بالبوذيَّةِ تنتشرُ في الصِّيْنِ في القرنِ الرّابِع والخامسِ للميلاد، ثُمَّ استقرَّ الأَمْرُ عِنْدَ الصِّينيِّنَ على الأَخْذِ بمبدأ (المهايانا) وطوَّروا مَبادِئها، فانتهوا من ذَلِكَ إِلى جَديْدٍ فيْها هوَ (**عَقيْدَة وجود الآخِرَة**) وفيها السَّعادَةُ للسُّعَداءِ، والعَذابُ لغيرهم، عَذابٌ يُقْصَدُ منه تخليصهُم من الآثامِ ورفعِهِم.

هَذا والفِرْقَتان تؤمِنان بـ:

= المَبادِئ الأساسيَّةِ الأرْبَعَة.

= وبالمبدأ المثمَّن.

= وتَحُضَّان على عَدَمِ الشُّرورِ.

= وتَحُضَّان على العفو عَنْ الأعْداء.

= وتُلِحَّانِ بصفَةٍ خاصَّةٍ على أهميَّةِ النَّوايا الطَّيبةِ الأخْلاقيَّةِ.

= وتُلِحَّانِ على وجوبِ التَّسامُح.

خامساً - الهِنْدوسيَّةُ

بعدَ أنْ أسَّسَ (بوذا) دينَهُ وانتشرَ في عصرِه منْذُ القَرْنِ الخامسِ أوْ السادسِ قَبْلَ الميلادِ، وتَسبَّبَ بسقوطِ قيمةِ الكَهَنَةِ، مما حدا بالكَهنَةِ إلى الانتِصارِ لهيبَتِهم فقاموا بمُحاربة البوذيَّةَ حَرْباً شَعواءَ لا هوادةَ فيها، فاضطرت البوذيَّةُ إلى أنْ تَلتَجِئ إلى الصِّيْنِ، واضطرَّ (البراهمانيّون) إلى أنْ يَنْظروا نظْرةً جَديْدَةً في ديْنِهِم القَديْمِ، ويَضَعوهُ بشَكْلٍ مُبَسَّطٍ قَريْبٍ إلى العامَّةِ ليَفْهَموهُ، فوَضعوا الدّيانَةَ التي سُمِّيَتْ (الهِنْدوسيَّةِ)، والتي يُمكِنُ شرحُها فيما يلي:

(البراهمان) في الدِّيانةِ الهندوسيَّةِ هو شيءٌ لا شخصَ له، وقدْ ظهر في سبعة آلهة أهمها ثالوث (**Trinity**) آلِهةٍ هم: (براهما) و(فيشنو) و(شيفا).

و(**براهما**) هوَ شخصُ الآلهةِ، وَهوَ إلَهٌ أحمرُ اللَّونِ لَهُ أرْبَعَةُ رؤوسٍ، كانَ يَسْبَحُ في بيضَةٍ، ثُمَّ كسَرَ البَيْضةَ فأخْرجَ منْ نِصْفِها السَّماءَ، ومن نِصْفِها الآخرَ الأرْضَ، والتَحَقَ قسمٌ منهُ بأحَدِ النِّصفَينِ والقسمُ الثاني بالآخرَ، فالقسمُ الأوَّلُ منه أصْبَحَ ذكراً، والآخَرُ أُنْثى، ومن القسمينِ خَلَقَ الحيوانَ والإِنْسانَ والكَوْنَ، وَبَعْدَ أنْ أتَمَّ الخَلقَ انسحبَ وأصْبَحَ بعيداً، ولذلكَ فإنَّ عبادتهُ خفَّتْ وتَضاءَلَتْ،

وفقدَتْ شعبيَّتَها، فليس لبراهما مِنَ المعابِدِ إلا القليلَ.

أمّا (**فيشنو**) فإنَّهُ كانَ يحلِّقُ في السَّماءِ على أجْنحَة طائرٍ سحريٍّ، وَهوَ شعبيٌّ لَهُ أثرهُ عِنْدَ المتعبِّدينَ، ويعتقدُ أنَّهُ يُنقِذُ الأرْواحَ بالتَّقمُّصِ، وبنُزولِهِ إلى الأرْضِ، ولَه تقمُّصاتٌ عديدةٌ، وثامِنُ تقمُّصٍ لَهُ هوَ (**كَرِيشنا**) ذَلِكَ الإلَهُ الجذَّابُ الذي حَياتُهُ حياةٌ شعريَّةٌ تشبهُ الأُغنيةَ.

والإلهُ الثالثُ - أي (**شيفا**) - هوَ إلَهُ المَوْتِ والخصْبِ، في يدِه إماتةُ الطَّبيعَةِ وإخْصابُها، وَهوَ غريبٌ في أطْوارِهِ، قاسٍ، وشَهَوانيٌّ، يتنعَّمُ تارةً، ويتنَزَّهُ تارةً.

وهنالك آلِهَةٌ أُخْرى أقلُّ أهميةً مِمّا وَصفْنا، وعددُها كَثيْرٌ، وقيلَ: إنَّها بلغتْ ثَلاثَةُ مَلايينَ إلَهاً، وهي تَتَكوَّنُ مِنْ كُلِّ شيءٍ، فهي من الحَيواناتِ، ومن البقَرِ، والقردَةِ، ومِنَ الأشْجارِ،... ومن غيرِ ذلك.

وهَذِهِ العِبادَةُ يعتقِدُها على الأغْلَبِ النّاسُ من الطَّبَقاتِ الدُّنْيا.

ولعلَّ سَبَبَ انكبابِ الطَّبَقاتِ الدُّنْيا مِنَ النّاسِ على عِبادَةِ الحَيواناتِ وبَعْضِ النَّباتاتِ هيَ أنَّهُ تثبتُ في أذهانِها أنَّ الآلهةَ العظيمةَ الأُخْرى مُنْطَلِقَةٌ إلى أعْمالِها ولا يُمْكِنُ الوصولُ إلَيْها إلا في المعابِدِ فقط، فالرُّجوعُ عنهم إلى الآلهةِ الصَّغيرةِ يظْهَرُ عِنْدَ هَذِهِ الطَّبَقات أقْرَبُ، ويَعْتَقِدونَ أنَّها تُساعِدهُم في حَياتِهم اليَوْميَّةِ.

فـ(**البَقرَةُ**) بيْنَ هَذِهِ العباداتِ ذاتُ مَكانَةٍ خاصَّةٍ وهي مقدَّسةٌ يَجِبُ أنْ لا تُمسَّ بسوْءٍ مَهْما فعلَتْ هيَ من سوْءٍ، ويَقولُ بَعْضُ الهنْدوسيّينَ: (إنَّ البقَرَةَ قُدِّستْ للنَّفعِ الكَبيْرِ الذي ينتُجُ منها، فهي تدرُّ الألبانَ، وتُعْطي السَّمادَ) على أنَّ هذا الكلام تأْويلٌ للواقِعِ أكثر مِمّا هوَ حقيقةٌ.

وإلى جانِبِ البقرة يُقدِّسُ الهندوس (**الثور**) لأنَّهُ يركبُهُ (الإلهُ شيفا).

على أنَّ (البقرة) و(الثور) ليسا إلَهَيْنِ عِنْدَ الهندوس، وليسَ لَهُما صِفَةُ الآلِهَةِ، إنَّما هما مقدَّسانِ لَهُما حقٌّ شَخصيٌّ إنْ صحَّ هَذا التَّعبيرُ، فلا يُمَسَّانِ بسوْءٍ،

ويبجّلانِ ويُقدّسانِ.

واختلافُ الآلهة عِنْدَ الهنْدوسيّينَ منشؤهُ على الأغْلبِ من اختلافِ الهنودِ في قبائِلِهم وعروقِهم ومستواهم، ففكْرَةُ (الكايست) عِنْدَهُم تأخُذ مَكانَها في الدّيانَةِ الهنْدوسيَّةِ، وتنتهي إلى أنْ تشدّدَ على فكرةٍ اجتماعيَّةٍ خاصّة، وهي أنّ أفرادَ الطَّبَقةِ العليا يَجِبُ أنْ لا يَلْمَسوا أفْرادَ الطَّبَقةِ الدُّنْيا، لكنَّ غاندي - فيما بعد - ثارَ على تلكَ الفِكْرَةِ ثورةً قويَّةً، ثُمَّ إنَّ جمهوريةَ الهنْدِ حاليّاً أصْدَرتْ قانوناً يُبْطِلُها ويشجُبُها.

تلكَ هيَ آلهةَ الهنْدوسيّينَ وَما يَحومُ حولَها من أفْكارٍ.

إنَّ القضيةَ المهمَّةَ عِنْدَ الهنْدوسيّينَ ليْسَتِ الاعتقادَ بدينٍ أوْ آلهةٍ، بَلْ الذي يأخُذُ مَكانَهُ الأهَمُّ عِنْدَهُم هوَ صفةُ المعيشةِ الهنْدوسيَّةِ والتقليديَّةِ، واتِّباعُ أصولِ تلكَ المعيشةِ، والقيامُ بالقربانِ والطُّقوسِ التي تتطلَّبُها.

وحياةُ الفَرْدِ عِنْدَهُم مطْبوعةٌ بطابعِ العباداتِ والطُّقوسِ ذاتِ الألوانِ المختلِفةِ التي تُلازِمُ مِنَ المهدِ إلى اللَّحْدِ، بَلْ هيَ تَبْدأُ من أشْهُرِ حمْلِهِ الأُوْلى حتّى بَعْدَ وفاتهِ بعهدٍ بعيدٍ، وهي **عباداتٌ** تدعي أنَّها تضمَنُ لَهُ سلامتهُ وأمْنهُ، وتذكِّرُهُ دوماً بأنَّهُ عضوٌ في المُجْتَمَعِ الذي يعيشُ فيه، ويجبُ أنْ يقومَ بما عَلَيْهِ نحوه، وهي شَعائرُ تَظْهَرُ في مُعْظَمِ المُناسَباتِ؛ مِنْ ولادةٍ، وزواجٍ، وموتٍ... وغير ذَلِكَ، ويأتي على رأسِها الحجُّ إلى الأماكنِ المُقَدَّسَةِ، وهي ترمي بصفةٍ خاصَّةٍ إلى أنْ تجْعَلَ المُجْتَمَعَ هوَ الأصْلُ الذي تبَني عَلَيْهِ حياةُ الهنْدوسيّينَ، والمُجْتَمَعُ مُقَدَّمٌ على الدَّوْلَةِ عِنْدَهُم، وحياتهم الفرديَّةُ والعامَّةُ يَجِبُ أنْ تتطبَّعَ بِما يريدُ المُجْتَمَعُ أنْ تتطبَّعَ به.

وَبَعْدُ فإذا كانتِ الآلهةُ العديدةُ من الهنْدوسيّينِ والمُجْتَمَعِ المهيمنِ على حَياتِهِم تميِّزُ ديانتهم تميُّزاً خاصّاً، فإنَّ ما يميزُها أيْضاً ويُضفي عليها طابعَ القوي الغالبِ هوَ الاعتقادُ بـ(التَّقمُّصِ)، وتلك فَلْسَفَةٌ دينيَّةٌ لها الأثَرُ الأكبَرُ عِنْدَ الهنودِ في تفكيرِهم

وعَقيْدَتِهِم.

فهُمْ يَرونَ أنَّ هنالك روحاً عامّاً ذاتِ جَوْهَرٍ واحدٍ مَهْما تَعَدَّدَتْ أشْكالُها الظاهِرَة، وهَذِهِ الرُّوحُ ليْسَتْ خاصَّةً بالإِنْسانِ وَحْدَهُ بَلْ تعمُّ الحيوانَ أيْضاً، وهي تنتقلُ من الحيوانِ إلى الإِنْسانِ، فالإِنْسانُ في الهنْدوسيَّةِ ليسَ كَما في الدّياناتِ السَّماويَّةِ كائناً متميِّزاً عَنْ غيرِه من الحَيواناتِ مِنْ أنَّ تلكَ الحَيواناتِ لا تمتلِكُ روحَهُ، بَلْ الهندوسُ يرونَ أنَّ للحيواناتِ روحاً هيَ مِنْ نَفْسِ روحِ الإِنْسانِ، ولا تخْتلِفُ عنها إلا من حيثُ تَطَوُّرُها خِلالَ مَراحلِ انتِقالِها بأثرِ (الكرما).

ويسعى الهنْدوسيّونَ إلى أنْ يَستَفيدوا من هَذا التَّطورِ، ومن (الكرمةِ) التي تدخُلُ الأرْواحَ منْ جسْمٍ نُسِخَتْ فيه إلى جِسْمٍ آخرَ تولَّدتْ فيه ثانيةً بشَكْلٍ مُختَلِفٍ عَنْ شَكْلِ الجسمِ الأوَّلِ.

هذا ويستعينُ بَعْضُ الهنْدوسيّينَ بطَرِيْقَةٍ في جلْبِ مَنافِعَ (الكرمةِ) وهي طَرِيْقَةُ (اليوغا)، ويقصدونَ بِهَذِهِ الطَرِيْقة أنْ يَعَجِّلوا اللِّقاءَ بالرّوحِ الشّاملةِ، ويُمارِسونَ في سبيلِ ذَلِكَ أعْمالا جسديَّةً، ويقومونَ بتضحياتٍ كَثيْرَةٍ، ويتَعرَّضونَ للآلامِ، ويَعْتَقِدونَ أنَّ طَرِيْقَةَ (اليوغا) تُفيدُ في الحُصولِ على التَّقمُّصِ والتَّطورِ منْ أدْنى إلى أحْسَن.

خُلاصةُ القولِ في الهندوسيَّةِ:

وجملةُ القولِ: إنَّ الدّيانةَ الهنْدوسيَّةَ هيَ مَجْموعَةُ عباداتٍ، وطقوسٍ، وآراءٍ، وعقائد فيْها المَظاهِرُ الابتدائيَّةُ من التَّفْكيرِ والعَقيْدَةِ، وفيها الآراءُ الفَلْسَفيَّةُ.

وطابعها الأصْليُّ أنّها قوميَّةٌ هنديَّةٌ لَم تسعَ إلى أنْ تَجْذبَ إلَيْها أُناساً منْ خارجِ الهنْدِ، بَلْ بقيَتْ هنديَّةً خالصةً.

سادِساً - ديانةُ السِّيخ

واضع الدّيانةِ السّيخيَةِ رجلٌ اسمهُ (نانك)، ونانك هنْدوسيٌّ ولد حوالي عام (١٤٦٩ م) وتوفي عام (١٥٣٨ م) نَشأ في عائلةٍ مُتوسِّطةٍ فقيرةٍ، وتعلَّم أوّلَ الأمْرِ على مُعلِّمٍ مُسلِمٍ، فعرَفَ الإسْلامَ عَنْ طَريْقهِ، ثُمَّ اتَّصل بغيرِه مِنَ المُعلِّمين، وأرادَ والِدُه أنْ يجْعَلَ منه ثرياً عَنْ طَريْق التِّجارةِ، لَكِنَّهُ أبى وألْقى بثَروتِهِ ومالِهِ إلى الفُقَراءِ، وخَرَجَ من بيتِهِ فعمِلَ خادِماً عِنْدَ شريفٍ مِنْ شُرفاءِ المُسْلِميْنَ، ولَمَّا بلغَ الخامسَةَ والثلاثين منْ عمُرِهِ رأى رؤيا كأنَّ يَداً تُمدُّ إلَيْهِ بكوزِ ماءٍ، وكأنَّ أبْوابَ الجَنَّةِ قد فُتِحَتْ لَهُ، وصَوْتاً يُناديه قائلا: (اذهبْ وردِّد اسمي، واجْعَلِ النّاسَ يردِّدونَه، وثابِرْ على السَّيْرِ على الصِّراطِ المُسْتَقيمِ في الاسمِ، والصَّدقاتِ والطَّهارَةِ، وذَلِكَ خدمةٌ لي ولاسْمي وذِكْراي). فحمَلَ هَذا القولَ وسارَ بهِ يَدعو إلى ديْنٍ جَديْدٍ، ويرحَلُ منْ مَكانٍ إلى مكانٍ، حَتَّى يُقالُ أنَّهُ بلغَ مكَّةَ، ويقالُ: إنَّ كُلا مِنَ المُسْلِميْنَ والهنْدوسيّينَ طالَبوا بجُثَّتِهِ حينَ وفاتِه، تأكيْداً لصلتِهِ بهم.

ويُذْكَرُ بِهَذِهِ المُناسبَةِ أنَّ جثَّتَهُ وجِدَتْ على شَكْلِ كتلةٍ مِنَ الأزْهارِ.

يُعَدُّ (نانك) في دِيانةِ السِّيخِ - التي - أسَّسها أوَّلُ مُعلِّمٍ (GARA) تبِعَهُ تسعَةُ مُعلِّمينَ آخرينَ، آخرهم (GOVIND SING) من أهْلِ القَرنِ السَّابعَ عشَرَ.

حاولَ (كوفيند سينغ) أنْ يرفعَ مِنْ مَكانَةِ السِّيْخ إلى طبَقَةِ المُقاتلينَ، والواقِعُ أنَّهُمْ أصْبَحوا مُحارِبينَ مِنْ طَبقَةٍ قويَّةٍ، حَتَّى أنَّهُم أتْعبوا الإنْكليزَ في حُروبِهم لَهُمْ، ولَمّا انْتَهتْ حربُهم مَعَ الإنْكليزِ عمَدَ هَؤلاءِ إلى الاستِفادَةِ مِنْهُم في الجيشِ، فكانتْ أحْسَنُ عناصِرِ الجيشِ مِنْهُم.

عقيدَةُ السِّيخ:

يُمْكِنُ أنْ نلخِّصَ عَقيْدَةَ السِّيخِ بأمرَيْنِ: **(وحدة الإلَهِ)** و**(أُخوَّة النّاسِ)**.

= فالله عِنْدَ السّيْخ واحِدٌ أَحَدٌ.

= والنّاس مُتآخونَ، بَلْ الأَدْيان جَميْعُها ديْنٌ واحِدٌ.

وقد تأثّرَ ديْنُ السّيْخ بدينَيْنِ آخرَيْنِ، فقد تأثّر بـ(الهنْدوسيَّةِ، وبالإِسْلام):

= **أَخَذَ من الهنْدوسيَّةِ**: فكرَةَ التَّقمُّصِ، وفكْرَةَ النرفانا، وأنَّ العالَـمَ واحِدٌ وَهــوَ (MORAGA). لكــن (نانــك) نبــذَ فكــرَةَ التّزَهُّــدِ، والرَّهْبَنَــةِ المَــوْجودَة في الهنْدوسيَّةِ، ونبـذَ فكـرَةَ الحـجِّ والغسـلِ في الأَنْهـارِ المـُقَدَّسةِ، والتَّسـولَ والبطالـةَ، واستَنكَرَ الكايست (طبقات النّاس).

= **وأَخَذَ من الإِسْلام**: التَّوْحيْد توحيداً مُطْلَقاً خالِصاً تامّاً، وأخـذَ منه فكـرَةَ الإِلَهِ وصـفاتِهِ، فالإِلَـهُ رحيمٌ رحمـانٌ، محبٌّ لعِبـادِهِ، هـادمٌ لـلآلامِ، يحـبُّ الفقـراء ويعطف عليهم.

وأَخذَ من الإِسْلام أَيْضاً بَعْضَ النواحي الأَخْلاقيَّةِ، فنـهى عَـنْ قتلِ الأَولادِ، وعن دفْنِ الزَّوْجاتِ مَعَ أَزْواجِهم، وعن زَواجِ الأَوْلادِ ممنْ هُمْ دونَ سنِّ البلوغِ.

هَـذا وديـن السّـيْخِ يـرى أنَّ في كُـلِّ نَفْـسٍ شيئاً مـن الإلـهِ، وجودُهـا في هَـذا العالَـمِ إِنّما هوَ تجربةٌ للرُّجوعِ إِلى الإِلهِ والاتِّحادِ به.

مظهَرُ السِّيخِ وعبادَتُهم:

= يتميَّزُ السّيْخُ مـن حيـثُ مظهـرهم الخـارجي بـ(الشُّعورِ الطَّويلـةِ، واللحـى المسْدلَةِ).

= ومن عِباداتِهِم: النُّهوضُ باكراً، وأَخذُ حَمام بـاردٍ، والتَّأَمُّلُ في اسـم الله، والصَّلواتُ في الصَّباح والمساءِ بتِلاوَةِ بَعْضِ الأَقْوالِ.

يبلغُ عـددُ السّيْخِ في الهنْدِ مـا ينـوفُ علـى عشـرَةِ مَلايـينَ نسـمة، يُقيْمـونَ في ولايةِ البُنْجابِ. وقدْ فضَّلَ السّيْخُ حينَ تقسيمِ شبْهِ القـارَّةِ الهنديَّـةِ إِلى دولـتي (الهنـد والباكستان) أَنْ يلتَحِقوا بالجمهوريةِ الهنْديَّةِ.

الفصلُ الثالث

من دياناتِ الصين

أوَّلاً - الطاويةُ

ثانياً - الكَوْنفوشيَّة

لا يوجَدُ في اللُّغةِ الصّيْنيَّةِ كلمةٌ واضِحةُ المعنى بيِّنةُ الفِكْرَةِ تدلُّ على ما يقابلُ كلمةَ الدّيْنِ في اللُّغاتِ الأُخْرى، والكلمةُ التي يَستَعْمِلونها للدّلالةِ على ما يقْرُبُ مِنَ الدّيْنِ هيَ كلمةٌ تُفيدُ ما يقابلُ لفظَ (المَذْهَبِ) العَربيَّةِ.

والواقِعُ أنَّ الدّيْنَ عِنْدَ أهل الصّيْنِ ليسَ ديناً على ما نعرِفُه من لفظِ الدّيْنِ، إنَّما هوَ سلوكٌ إنسانيٌّ، وفَلْسَفَةٌ أَخْلاقيَّةٌ، ونظرةٌ إلى الحياةِ الاجتماعيَّةِ، وتنظيمٌ لتلكَ الحَياةِ، فيَنْبَغي إذن حين البَحْثِ في أدْيانِ الصّيْنِ عامَّةً أنْ ننظرَ إلى تلكَ الأَدْيانِ على أنَّها نهجٌ أخْلاقيٌّ، وسلوكٌ وطَريْقةٌ ومَبادِئ اجتماعيَّة.

وكانَ في الصّيْنِ قَبْلَ تاريخها المعروف ديانةٌ فيْها عِبادَةُ مَظاهِرِ الطَّبيعَةِ، ولا سيَّما السَّماء التي كانت تُعبَدُ وتقدَّسُ ويُقدَّمُ لها القَرابيْن، وكانَ في عِبادَةِ الصِّيْنين القَديْمَة طقوسٌ كَثيْرَةٌ مشتَبِكَةٌ أُضيفَتْ إلَيْها طقوسٌ أُخْرى مِنَ الأدْيانِ التي لحِقتَ بَعْدَ ذَلِكَ فتشابكَتْ وأصْبَحَتْ على غايةِ التَّعقيدِ، والأدْيانُ اليَوْمَ في الصّيْنِ هيَ (البوذيَّةُ، الطَّاويَّةُ، والكَوْنْفوشوسيَّة) إلى جانِبِ الإسْلامِ. وقد سبق لنا الحديث عن البوذيّة في سياق أديان الهند الكبرى، وذلك بحكم النشأة. بقي أن نتعرّف على الطاوية والكونفوشية.

أولاً - الطَّاويَّةُ

تُنسبُ هَذِهِ الدّيانَةُ إلى فيلسوفٍ اسمُه (**لاأوتي**) وشخصيَّةُ هَذا الفيلسوفِ ليْسَتْ شخصيَّةً واضِحةً في التّاريْخِ، ويَذهَبُ عددٌ كَبيْرٌ من عُلَماءِ الأَدْيانِ إلى أنَّ تلك الشَّخْصيَّة خياليَّة، وأنَّ قصَّتهُ موضوعة، والقصَّةُ هيَ:

ولد (**لاأوتي**) نحو عام (٦٠٤ ق.م) وعمِلَ خازِناً للوثائقِ عِنْدَ الإمبراطورِ، ثُمَّ تَرَكَ عملَه وقد شاخَ، وقصدَ أنْ يَخْرُجَ خارِجَ المملكةِ، فلَمّا كانَ على حُدوْدِها استوقفَه موظَّفٌ من موظَّفي الحدودِ، وألْقى عَلَيْهِ بَعْضَ الأسئلَةِ، فانكبَّ يُحرِّرُ

جوابَهُ، ثُمَّ قدَّمَ إلى هَذا الموظَّف ما حرَّرَهُ في كِتابٍ سمَّاه (**تاء وتي كنغ**) ومعناه (**شَرِيْعةُ الصِّراطِ والفضيلة**) يَقولُ بعضُ الباحثينَ: إنَّ هَذا الكِتابَ حُرِّرَ في القرنِ الثالثِ قَبْلَ الميلادِ، وَهوَ كِتابٌ معقَّدٌ كلَّ التَّعقيدِ، متناقضٌ في فُصولِه وأجْزائهِ، يصعُبُ فهمُه، وقد أتى (**شانغ تسي**) فوضَّحهُ وفسَّرهُ.

وَبَعْدُ فلا نَستطيعُ أنْ نجزمَ برأيٍ معيَّنٍ عَنْ مؤسِّسِ ديْنِ الطَّاويَّةِ، بَلْ نتركُ شأنَهِ للتَّاريخِ المقْبِلِ.

أمّا كلمةُ (**طاو**) التي أُدْخِلَتْ في اسمِ الدّيْنِ وفي اسمِ كِتابِهِ المقدَّسِ فهي كلمةٌ لا يُمْكِنُ تَحديدُها، بَلْ إنَّ الكِتابَ المُقَدَّسَ حينَ ذَكَرَها اعترَفَ بأنَّ مفهومَها الأَصْليّ الذي وضِعَتْ لَهُ لا يُمْكِنُ تحديدُه ولا تصورُهُ، وقد تُفيدُ هَذِهِ الكلمةُ:

= ما يقابِلُ معنى (**الصِّراطِ**) بالعَربيَّةِ.

= وقد تَعني (مَجْرى الحَياةِ) و(مَجرى الكَوْنِ ونِظامِه وتتابعه).

= أوْ قد تعني (القوَّةَ الكامِنةَ في الطَّبيعَةِ أوْ خلفها والتي يسرى بها الكَوْنُ)، وهي قوَّة تقولُ الدّيانةُ عنها أنَّها أوجدَتْ الكَوْنَ من لا شيءَ، وتستطيعُ أنْ تجْعَلَ منَ الكَوْنِ مرَّةً أُخْرى لا شيءَ أيْضاً، فتُعيدُ ما كانَ إلى ما كانَ.

وليسَ للإلهِ ذِكْرٌ في كِتابِ الطاويَّةِ إلا مرَّةً واحِدةً، وقيلَ إنَّهُ وجِدَ بَعْدَ الطَّاو.

مُخْتَصرُ القولِ في الطَّاويَّةِ:

أنَّها مَذْهَبٌ يدْعو إلى ترْكِ الأُمورِ تَسري في أعنَّتِها دونَ أنْ يبذلَ الإِنْسانُ جهدَه لتغييرها، ويخيَّلُ إليَّ أنَّ الذي يَدْعو لذلكَ هوَ أنَّ هنالكَ قوَّةً تسيِّرُ الكَوْنَ، وهي الطَّاو، فلنَدَعْها تسيِّرهُ، ولنعتمِدْ عليها.

ويقدِّم عُلَماءُ ذَلِكَ المَذْهَبِ مِثالا على ترْكِ الأُمورِ تَجْري، فيقولون: انظرْ إلى الماءِ كيفَ يَجْري مِنَ الأعْلى إلى الأسْفَلِ، فيَخْضَعُ لتلكَ القوَّةِ التي تُسيِّرهُ،

والماءُ تكمنُ فيه قوّةٌ هائلةٌ، فَهوَ يَستطيعُ حيْناً أنْ يقلَعَ الصَّخْرَ مِنْ مَكانِه، فلنكنْ كالماءِ نَجْري مَعَ الطّاو ونسيرُ ونخضعُ لها.

ويصوِّرونَ مُعْتَنِقَ المَذْهَبِ تصويراً يَجْعَلُونَهُ فيه قابِعاً في بيْتِهِ، مُكتفياً بِما عِنْدَهُ، لا يبحثُ عَنِ الجَديْدِ مِنَ الأمْرِ، ولا يطلبُ الكَثيْر، ويطلبونَ منَ الحكومَةِ أنْ تَكوْنَ محدودةً ضَيِّقَةَ الجِهازِ لا متَّسِعةً ولا باحِثَةً عَنْ التَّطورِ والاتِّساعِ، والمثَلُ الأعْلى عِنْدَهُم هوَ التَّحررُ من الشَّهْوَةِ والتَّجْرِبَةِ الحسيَّةِ، وذَلِكَ بالتَّأمُّلِ الصوفيِّ.

وقد أخَذَتْ الطَّاويَّةُ خِلالَ مَراحلِ تَطوُّرِها من البوذيَّةِ والكَوْنفوشيَّةِ ووضعت مَبادِئ عشرَةً لمعتَنِقيها وَهيَ:

١ - إجْلالُ البنين لآبائهم وأجْدادِهِم.

٢ - الإخْلاصُ للإمبراطورِ والمُعلِّمينَ.

٣ - المعاملةُ الطِّيبةُ مَعَ كلِّ المَخْلوقاتِ.

٤ - الصَّبْرُ واستنكارُ السُّلوكِ السَّيِّء.

٥ - تضحيةُ النَّفْسِ في سبيلِ مُساعَدَةِ الفُقَراء.

٦ - تَحريْرُ الأرِّقاء.

٧ - غَرْسُ الشَّجَرِ.

٨ - إقامَةُ الآبارِ وفتحُ الطُّرقاتِ.

٩ - تعليمُ الجهَّالِ وتَحسينُ الأحْوالِ.

١٠ - دراسةُ الكُتُبِ المُقَدَّسَةِ، وتقديمُ القَرابيْن للآلِهَةِ.

أمّا **عَقيْدَتُهُم في الآلِهَةِ** فهي عَقيْدَةٌ على رأسِ آلهتها مثلَّثٌ من الآلِهَةِ، هم: **(لاوتسي)**، و**(الإمبراطور جادى)** وَهوَ سلطانُ الكَوْنِ عِنْدَهُم، ثُمَّ أوَّل كائنٍ في السَّماءِ، على أنَّ **(الطَّاو)** تَبْقى مقدَّمةً على الآلِهَةِ لأنَّ فيْها سرّ الكَوْنِ.

أمّا **فَلْسَفَةُ الطَّاويَّةِ** فمعقَّدةٌ غايةَ التَّعقيدِ، غير بيِّنَةِ المعالمِ، على أنَّها بَعْدَ أنْ

تـدرَّجتْ في الـزَّمن آلـتْ إلى البَحْـثِ عَـنْ (**إكسـيرِ الحَيـاةِ**) وأصْـلِها، وجَوْهَرِهـا، ومادَّتِهـا الأُوْلى، وكيفيَّةِ الوصـولِ إلَيْهـا وشَحْنِها في نُفـوسِ النّـاسِ وإطالـةِ العمـرِ، وقيل: إنَّ أَحَدَ عُلمائِهِم وصلَ إلى ذَلِكَ الإكْسيرِ واكتَشفهُ.

وفي فَلْسَفَة الطَّاويَّةِ التفريقُ بيْـنَ قوَّتين كونيتين:

= إحداهما موجبةٌ وهي (**يانغ**) المبدأُ الذَّكرُ وهي (السَّماءُ).

= أمّا القوَّةُ السَّالبةُ فهي (**يين**) المبدأُ المؤنَّثُ وهي (الأَرْضُ).

وباتِّـحاد القوَّتينِ (يانغ) و(يين) خَرَجَ العالَـمُ وعمَّ الكَوْنَ.

والبَحْث عن إكسيرِ الحَياةِ يدأبُ عَلَيْهِ الطّاويون ويَشْغَلونَ فيه مُعْظَـمَ وَقْتِهِم، بَلْ إنَّ رِجالَ ديْنِهِم وَهُمْ مَقْسومونَ إلى قِسْمَيْنِ:

= الرُّهْـبانُ الذين يُقيْمونَ في الصَّوامِعِ ويَتَعَبَّـدونَ بالتَّأمُّـلِ وبمُمارَسَـةِ الفَضـائلِ العَشْرِ.

= وَالقِسّيسونَ الذين يُقيْمونَ بيْـنَ النّاسِ.

كُلٌّ مِنْ هَـذَيْنِ القِسْـمَيْنِ مِـنْ رِجـالِ الـدّيْنِ يُمـارِسُ العُلـومَ الرّوْحيِّةَ وكيْميـاءَ السَّعادَةِ، ويَتَدخَّلُ في حَياةِ النّاسِ، فيطبِّبُـونَهم على الطَرَيْقـةِ الرّوْحيِّـةِ، ويَسْعَوْنَ في زَواجِهِم على تلـك الطَرَيْقـةِ، بَـلْ يُحـاوِلونَ اكتِشـافَ الضـائع بهـا أيضـاً، وهـي إذنْ تَلْعَبُ في حَياتِهِم دَوْراً مهمّاً.

والطَّاويَّةُ ديْنُ عددٍ عظيمٍ من أهـلِ الصّيْـنِ يَدينونَ به لا علـى الطَرَيْقـةِ الـتي ذَكَرْناها تَماماً بأَصْلِها وتَطَوُّرِهـا التّـاريْخيِّ، بَـلْ علـى مـا يَفْهَمـونَ مِـمّا انتـهتْ إلَيْـهِ عُقولُهم ومواهبُهم.

ولقد أصْبَحَتِ الطَّاويَّةُ عام (٤٤٠ ق.م) ديْنَ الدَّوْلَةِ للصِّينِ، ثُـمَّ إنَّهـا في عـام (٦٦٦ م) تقدَّمَتْ على الكَوْنفوشيَّةِ وتفوَّقتْ عليها في مكانَتِها في الدَّوْلَةِ، ثُمَّ عـادَتْ وفقدَتْ المُنَزَّلَة الأُوْلى التي احتلَّتْها.

ثانياً - الكَونفوشيَّة

الكَونفوشيَّةُ أو (الكونفوشيوسية) مَذْهَبٌ يهتّمُ بالدَّوْلَةِ والعائلةِ، فينظّم شؤونها تنْظيماً أخْلاقيّاً، فَهوَ إذاً ليسَ ديْناً بالمعنى الذي نفهمْ، وليسَ فيه آلِهَةٌ أوْ إلَهاً، وليسَ فيه هياكلَ ومعابِدَ تضمُّ بين جُدْرانِها كهّان، إنّما هوَ منظّمٌ اجتماعيٌّ أخْلاقيٌّ.

واضع هَذا الدّيْن - إنْ صحَّ استعمالُ كلمةِ الدّيْنِ عَلَيْهِ - هوَ **كونفوشيوس**، الذي عاشَ في القرنِ السادسِ والخامسِ قَبْلَ المِيْلادِ، واتَّفَقَ عُلَماءُ الصّيْنِ على أنْ يُحدِّدوا تاريخَ ميلادَهُ بسنةِ (٥٥١ ق.م) وتاريخ وفاته بسنَةِ (٤٧٩ ق.م) على أنَّهُ لا يوجدُ شيءٌ في المَصادِرِ القَديْمَةِ والمعاصرَةِ لكونفوشيوس يُثْبِتُ هَذَيْنِ التّاريْخَيْنِ.

وحياةُ كونفوشيوس دخلتْ فيْها الأُسْطورةُ فلعبَتْ بَعْضَ الدَّورِ، ولئن لم تزيِّنها وترفَعها وتطليها طِلاءَ النُّبوَّةِ أوْ الآلِهَةِ إلا أنّها أحدَثَتْ فيْها بَعْضَ الجَديْدِ، والباحثونَ المُحْدثونَ لا يقْبَلونَ بترجمةِ كونفوشيوس كَما وردَتْ في المَصادِرِ الصّيْنيَّةِ المُتأخِّرَةِ عَنْ زَمانِه، بَلْ يَرونَها على الشّكْلِ الذي يَستَنتِجونها لهُ من كِتاباتٍ تُعَدُّ من أساسِ الدّيانَةِ الكونْفوشوسيَّة، وهي التي تسمَّى بـ(المُخْتاراتِ) أي مختارات من أقْوالِ كونفوشيوس وأحاديثِه وأفْعالِهِ، وسنعرضُ لحَياةِ كونفوشيوس كَما تَرْويها المَصادِرُ الصّيْنيَّة، ثُمَّ نَعودُ إلى ذِكْرِ حَياتِهِ كَما تَراها المَصادِرُ الغربيَّةُ الحَديْثَة.

كونفوشيوس في المَصادِرِ الصّيْنيَّةِ:

تعطي المصادرُ الصِّينيَّةُ (كونفوشيوس) حياةً عاديةً، لَكِنَّها حياة إنسانٍ ذي أثَرٍ كَبيْرٍ في محيطِهِ من النَّاحيةِ الإداريَّةِ والاجتماعيَّةِ.

نشأ كونفوشيوس في عائلةٍ نبيلةٍ فقيرةٍ، وكانَ والدُه جنديّاً، فرُبِّيَ على

الآدابِ السّاميةِ والتَّهْذيْبِ، لَكِنَّهُ نَشأَ على الفقرِ، ولِدَ في مقاطعةِ (لو) في عَصْرٍ كانتِ الحروبُ فيه كَثيْرَةٌ، وكانَ الحُكّامُ شديدينَ على الرَّعيَّةِ، وتقدَّمَ كونفوشيوس تَقَدُّماً سَريعاً بذكائهِ، وحصَلَ على وَظيْفَةٍ عمِلَ فيْها، ثُمَّ لَمَّا بلغَ سنَّ العشرينَ أسَّسَ مدرسةً أوْ مُجَمَّعاً علميّاً غايتُه كَشْف الحِكْمَةِ وإشْراكها في الحَياةِ، وأدارَ ذَلِكَ المُجمَّعَ حَتَّى سنِّ الرّابعةِ والثّلاثينَ، وجمعَ حَوْلَهُ عَدداً منَ التلامذَةِ، ثُمَّ سافرَ وقَضى عشرة سنواتٍ في سفَرِه، وعادَ بَعْدَ أنْ علَّمَ كلَّ من أرادَ العِلمَ، ولَمَّا عادَ انقطع إلى العِلْم والتعليمِ أيْضاً.

وفي عام (٥٠١ ق.م) عيَّنَهُ الأميرُ (تينغ) وَهوَ حاكمُ مُقاطَعةِ (لو) التي نَشأَ فيْها، عيَّنَهُ عامِلا لَهُ على مدينةٍ صغيرةٍ، فقامَ في عملِهِ في تلكَ المدينةِ بشَكْلٍ حازَ به إعْجابَ الأميرِ فعيَّنَهُ وزيراً للأشغالِ العامَّةِ، ثُمَّ وَزيراً للعدلِ، وفي وزارَتِهِ نظَّمَ الأُمورَ تنظيماً رائعاً، بحيثُ أصْبَحَ مِثالا يُقْتَدى به، وبحيثُ سارَتْ شهرَتُه فأقْبَلَ النّاسُ عَلَيْهِ من أرجاءِ العالَمِ الصِّينيِّ يُشاهِدونَ أعمالَهُ ونظامَهُ، وسادَ العدلُ في زَمانِه وقويَ سلطانُ الحكومةِ، واضطر الأشرارُ إلى الاختفاءِ خَجَلا من أعمالِهم، وأطاعَتِ النِّساءُ أزواجهنَّ، وسادَ الخَيْرُ والبركةُ.

لكنَّ الأُمورَ ما قُدِّرَ لها أنْ تستمرَ، فَقَدْ وَشى الواشونَ به، وأغْرَوا واستَعْمَلوا الهدايا ليُبْعِدوهُ عَنْ السَّلطانِ، فأرْسَلوا إلى حاكمِ (لو) ثمانينَ جاريةً جميلةً وغانيةً - أوْ عشرة حسب بَعْضِ الأقْوالِ - وقبِلَ هَذا الحاكمُ تلك الهَديَّة وأبْعَدَ كونفوشيوس عَنْ عملِه، فخَلا الجوُّ تارةً أُخْرى للواشينَ يَعْبَثونَ كَما يريدون.

ورَحَلَ كونفوشيوس في أرْجاءِ الصّيْنِ مرَّةً أُخْرى مدَّةَ اثنتي عشرة سنة، يعلِّم ويَدْرِّسُ، ويعيشُ من عملِه وتَدْريْسِه، وطلبَ إلَيْهِ الحُكّامُ أنْ يقبَلَ الوَظائفَ عِنْدَهُم، لَكِنَّهُ لم يكنْ يقبلُ ذَلِكَ، لأنَّهُ لم يَرَ حاكِماً يَرْضى بهِ وبإصْلاحاتِهِ، وقد قال: لو رأيْتُ أميراً يسلِّمني الحكمَ مَعَ الحريَّةِ والسُّلْطانِ الكافي لأصْلحتُ الأُمورَ

جَمْيعاً بمدَّةٍ لا تتَجاوَزُ ثلاثَ سنواتٍ.

وبقيَ كونفوشيوس في رحلتِه حَتَّى استدعاهُ حاكم (لو) فعادَ إِلى بلدتِه سنةَ (٤٨٣ق.م) تلك السَّنة التي توفيَ فيْها بوذا، على أنَّهُ لم يتولَّ أي عملٍ، بَلْ انقطعَ إِلى النَّظَرِ في الكُتُبِ الدِّيْنيَّةِ القَديْمَةِ، فوَضَعَ هَذِهِ الكُتُب وضْعاً حَديثاً وشَرَحَها، ثُمَّ وافته منيَّتُه عام (٤٧٩ ق.م) فاستقبَلَ أجَلَهُ باسِماً، ولَمْ تَظْهَرْ عَلَيْهِ خَشْيَةٌ أَوْ خَوْفٌ، ولَمْ يَتْلُ صَلاةً ما أَوْ تَعْويْذاً، وأصْبَحَ مَكانُ دَفْنِهِ مَزاراً ومَحَجّاً لأَهْلِ الصّيْنِ.

هَذا ما تَقولُهُ المَصادِرُ الصّيْنيَّةُ المُتأَخِّرَةِ عَنْ زَمانِه.

كونفوشيوس عند عُلَماءِ الدّيْنِ المُقارَن المُحْدَثين:

للباحثِينَ المتأخِّرينَ في الأديانِ رؤية مختَلِفَة لحَياةِ كونفوشيوس عمَّا قدَّمتُه لنا المصادرُ الصّيْنيَّةُ، وذلكَ لأنَّهُمْ يَرْجِعونَ إِلى كِتابِ (المُخْتارِ) من أقوالِه فلا يَجِدونَ فيْها ما يَدلُّ على أنَّهُ تَولَّى المَناصِبَ العاليةَ، أوْ قامَ بالأعْمالِ الحكوميَّةِ المشارِ إِلَيْها، ويَرْجِعُ أُولئكَ الباحِثونَ إِلى تلكَ (المُنتَخباتِ) فيستَخلِصونَ منها مسيرَةَ حَياتِهِ وفقَ السِّياقِ الآتي:

كانت الحالةُ عندَما وِلِدَ حالةَ حربٍ وخصامٍ بيْنَ الحكوماتِ الصّيْنيَّةِ المتعدِّدَةِ، وكانَ الحُكّامُ ظالمينَ يضطهِدونَ الشَّعْبَ، والخرابُ سائدٌ، فوَضَعَ كونفوشيوس أُسلوباً للأَخْلاقِ الاجتماعيَّةِ والحكوميَّةِ، أُسْلوباً يحفظُ السَّلامَ ويُعيدُ الطُّمأنينةَ، ويُعطي الشَّعْبَ حكْماً دائماً عادِلا، وجمَعَ حَوْلَهُ تلاميذَ يعلِّمُهم مَبادِئَهُ، وحكمتهُ، وهم من أولادِ النُّبلاءِ ومن أصحابِ المَناصِبِ العُلْيا، فعلَّمهُم فنونَ التَّربيةِ الصَّحيْحةِ، وطلبَ إِلَيْهِم أَنْ يَجْعَلوها هَدفاً في أعْمالِهِم.

أمّا كونفوشيوس فلم يَكُنْ لَهُ منصبٌ حكوميٌّ عالٍ، بَلْ كانَ مُعلِّماً يعيشُ

مِمّا يتقاضاهُ مِنْ تلاميذِه، ورَحَلَ وعمره (٥٥) سنةً رحلَةً استغرقَتْ عشرَ أعْوامٍ، رَحَلَ إلى المُقاطَعاتِ الصّينيَّةِ، ولَمْ يَسْتَطيعْ في رحلَتِه أنْ يفوزَ بوَظيْفَةٍ عاليةٍ يُطبِّقُ فيْها مَبادِئَ حكمَتِهِ وأُصولَ المُجْتَمَعِ الذي يفكّرُ فيه، ،يقومُ مِنْ طَريْقها بالإصْلاحاتِ التي كانتْ هَدَفَهُ.

تلك حَياة كونفوشيوس كَما تَظْهَرُ من مُقْتَطَفاتِ أَقْوالِهِ وأَحاديثِهِ وأَفْعالِهِ، ولعلَّ المَصادِرَ الصّيْنيَّة أَرادَتْ أنْ تُشيرَ إلى أنَّ هَذا الفيلسوف لم يُعْطَ الرَّأيَ فحَسْب، بَلْ وَضَعَ هَذا الرَّأيَ موضِعَ التَّطبيقِ، ونجحَ في تطبيقِه، فَهوَ مثالٌ يُحْتَذى به.

وعَلى كُلِّ حالٍ فليسَ عَدَمُ تمكُّنِه منْ إجْراءِ إصْلاحاتِهِ بمقلِّلٍ من أهميَّةِ ما أَوْجَدَ من فكرةٍ عَنْ الإدارَةِ والنِّظامِ والأَخْلاقِ.

فكرة عامَّة عَنْ الكَوْنفوشيَّةِ:

إذن فالكَوْنفوشيَّةُ هيَ أُسلوبٌ أَخْلاقيٌّ لإدارةِ المُجْتَمَع بأجْزائه المختلفةِ من عائلةٍ وحكمٍ، والواقِعُ أنَّ الكَوْنفوشيَّة لا تَنْظُرُ إلى الدّيْنِ نظرةَ الأَدْيانِ الأُخْرى إذْ إنَّهُ مَذْهَبٌ ليس فيه نَظْرةٌ إلى كائنٍ أعْلى، وإلى يَوْمٍ آخرَ، فالذي يهمُّ كونفوشيوس هوَ إصلاحُ المُجْتَمَعِ الذي كانَ يعيشُ فيهِ، وَهوَ لا ينظرُ إلى الإنْسانِ إلا على أنَّهُ مَخْلوقٌ اجتِماعيٌّ لَهُ صِلاتٌ اجتماعيَّةٌ، وله واجبٌ اجتماعيٌّ، هَذا الواجبُ الاجتماعيُّ وتلك الصِّلاتُ الاجتماعيَّةُ يَجِبُ تنظيمها بحيثُ يسودُ السَّلامُ وتستقرُّ الطُّمأنينةُ في النَّفْسِ، ويسودُ العدلُ ويتمُّ الحقُّ.

وتَرى الكَوْنفوشيَّة أنَّ الإنْسانَ تربطُه بأخيهِ الإنْسان صِلاتٌ تُسمَّى (جين) ويعنون بِهَا ذَلِكَ العَطْف المُتَبادَل بيْنَ الإنْسانِ والإنْسانِ الآخرَ، وهَذا العَطْفُ يَكونُ على صِفاتٍ خمسٍ مَبْنيَّةٍ على صِلاتٍ بيْنَ أنْواع خَمْسَةٍ مِنَ النّاسِ، هي:

١ - صِلَةُ الحاكمِ بالتّابعِ (الرَّعيَّة).	٢ - صِلَةُ الأبِ بابنهِ
٣ - صِلَةُ الأخِ الكَبيْرِ بأخيهِ الصَّغيرِ	٤ - صِلَةُ الزَّوْجِ بزوجَتِهِ
٥ - صِلَةُ الصَّديقِ بصديقِه	

هَذِهِ الضُّروبُ الخمسةُ مِنَ الصِّلاتِ تُبْنى على ما يسمُّونَه بـ (لي)، و(لي): هوَ مزيجٌ من السُّلوكِ ومن التَّقْديْسِ والاحترامِ.

وفي هَذِهِ الصِّلاتِ درجاتٌ مِنَ النّاسِ هيَ درجةُ الأعْلى ودرجةُ الأدنى، فـ(الحاكِمُ أعْلى مِنَ المحكوم)، و(الأبُ أعلى من الابنِ)، و(الزَّوجُ أعْلى من الزَّوْجَةِ،... وهكذا).

والأدنى يَجِبُ أنْ يُعامِلَ الأعْلى بنَوْعٍ من الاحترامِ الزَّائدِ الذي يَكادُ يبلغُ حَدَّ التَّقْديْسِ، وأنْ تَكوْنَ أعْمالُه سائرة سيرةً فيْها سُلوكٌ مُقيَّدٌ وحَركاتٌ مُعيَّنَةٌ.

على أنَّ الأعْلى إذا أرادَ أنْ يَحصلَ على التَّقْديْسِ مِنَ الأدْنى وَجبَ عَلَيْهِ أنْ يُعامِلَ الأدْنى معاملةً فيْها الاحترامُ والسُّلوكُ الحَسَنُ.

فالتَّقْديْسُ لا يأتي عَنْ طَريْقِ الضَّغْطِ والإِكْراهِ إنَّما يأتي بشعورٍ ينتابُ النَّفْسَ عَنْ طَريْقِ المعاملةِ الحسنةِ، وعنْ طَريْقِ الاقتداءِ بأصْحابِ السُّلوكِ الحَسَنِ، وعلى ذَلِكَ فالحاكمُ هوَ المثالُ الذي يَقْتَدي به الشَّعْبُ، فيجبُ أنْ يَكونَ مُترفِّعاً كلَّ التَّرفُّعِ لا يتَناوَله اللَّوْمُ أبداً، وأعْمالُه يَجبُ أن تَكوْنَ خاليةً مِنْ كُلِّ ما يَعْرِضُ للنَّقْدِ.

وتَرى الكَوْنفوشيَّةِ أنْ هَذا النِّظام من التَّقْديْسِ والاحترامِ والسُّلوكِ الحسن والإدارةِ العادلةِ تؤدِّي مَعَ الزَّمنِ إلى تَوْحيْدِ الإنْسانيَّةِ والتَّساوي بيْنَ النّاسِ، ولَكِن يَجبُ تأْجيل ذَلِكَ أكثرَ ما يُمْكِنُ فلا يأتي ذَلِكَ اليَوْم إلا بَعْدَ أنْ تسودَ الفضيلة تماماً وتستقرَّ الأخْلاقُ، ولكي نستعجِلَ هَذا اليَوْم يَجبُ علينا أنْ نصحِّحَ الألْقاب.

والسُّؤالُ ماذا يعني تصحيح الألْقابِ؟

يعني أنَّهُ يَجِبُ أنْ لا يُعْطى لعملٍ مِنَ الأعْمالِ أوْ لإنْسانٍ مِنَ النّاسِ لقبٌ لا يستحقُّه، يَجِبُ أنْ يُمتَحنَ صاحِبُ العَمَلِ حَتّى إذا اجتازَ امتحانَهُ بسُلوكِهِ وأعْمالِهِ ومعرفتِهِ عُهِدَ إلَيْهِ بذلكَ العَمَلِ الذي لَهُ لقبٌ معيَّنٌ، فمُطابقةُ الألْقابِ لأحْوالِ النّاسِ

أساسٌ في الكَوْنفوشيَّةِ، فالمَلِكُ مَثَلا يَجِبُ أنْ لا يُسمَّى مَلِكاً إذا كانَ يَضَعُ الضَّرائبَ المرْهِقَةَ على النّاسِ.

وكانَ الحُكّامُ والولاةُ والموظفونَ يَجْتازونَ امتِحاناً معيَّناً على أساسِ ما وردَ في الكُتُبِ الكَوْنفوشيَّةِ، حَتَّى إذا اجتازوا ذَلِكَ الامتحانَ بنجاحٍ أُسنِدَتْ إلَيْهِم الوظائفُ وألْقابُها.

* الكُتُب الكَوْنفوشيَّةِ:

يظْهَرُ مِمّا تَقدَّمَ أنَّ كونفوشيوس يهتمُّ اهتماماً خاصّاً بالحكومةِ وبولاةِ الأمْرِ، ويعتقدُ أنَّ أعْمالَهُم أوْ قسْماً كَبيْراً منها يَجِبُ أنْ يتولّاهُ المثقَّفونَ العارِفونَ الذين يأْخُذونَ ثَقافتِهِم من الكُتُبِ الكَوْنفوشيَّةِ.

ويَرى كونفوشيوس أنَّ الإنْسانَ يصبَحُ حَكيماً عاقِلا إنْ تَدارسَ الكُتُبَ وتَلقَّى معلوماتها عَلى يَدِ أُستاذٍ قادرٍ ماهرٍ، فالمعْرفَةُ إذن عِنْدَ كونفوشيوس أصْلٌ مِنَ الأُصولِ في الحِكْمَةِ والإدارةِ، ولذلك وَجَدْنا خِلالَ تاريخِ الصّيْنِ إجْلالا للعلِمِ وتتبُّعاً لَهُ وتَدارساً لأجْزائهِ، والكُتُبُ التي تُعْطي الحِكْمَةَ وتمكِّنُ الإنْسانَ في المعْرفَةِ وتجعلهُ قادِراً على أنْ يَتَولَّى شؤونَ النّاسِ هيَ نَوْعانِ من الكُتُب:

= النَّوْعُ الأوَّلُ: الأُصولُ الخمسةُ القَديْمَةُ.

= النَّوْعُ الثاني: الكُتُبُ الأرْبَعَةُ المُلحَقةُ.

والأُصولُ الخمسةُ التي يعتمِدُ عليها الكَوْنفوشوسيون هيَ كتبٌ قديمةٌ أعادَ النَّظَرَ فيْها كونفوشيوس، وأصْلحَ ما فيْها ووَضَعَها بصيغَتِها النِّهائيَّةِ، وأضافَ إلَيْها كِتاباً من عندِه، فأصْبَحَتْ خَمْسَةً وَهيَ:

١ - كِتابُ (**الوثائق التّاريْخيَّة**): وَهوَ كِتابُ خُطَبٍ وأعْمالٍ رسميَّةٍ وآثارٍ لقُدماءِ أباطِرَةِ الصّيْنِ.

٢ - كِتابُ (**القصائد والشِّعْرِ**): ويحوي (٣٠٥) من الأغاني القديمةِ الرَّسميَّةِ الدِّيْنيَّةِ.

٣ - كِتابُ (**التَّبدُّلاتِ**): وَهوَ كِتابٌ لَهُ منحًى صوفيّاً، فيه ذِكْرٌ لِما يَقَعُ في العالَمِ من تبدُّلٍ وتغيرٍ قائمٍ على التنبؤ ويَعْتَمِدُ الطاؤيون على هَذا الكِتاب كَثيراً، وقد أخَذوهُ عَنْ الكَوْنْفوشوسيَّة.

٤ - كِتاب (**القُدَّاسِ والحَفَلاتِ**): وَهوَ يَذْكُرُ وينظِّمُ الحَفَلاتِ الرَّسميَّةِ وأصولِها.

٥ - كِتابُ (**حَوليَّات الرَّبيعِ والخَريفِ**) وَهوَ كِتابٌ قيلَ إِنَّهُ الوَحيْدُ من الخَمْسةِ الذي وضَعَهُ كونفوشيوس لنَفْسِهِ، وضمَّنهُ التَّاريْخَ الذي حدثَ منْذُ (٧٢٢ ق.م) إلى (٤٨١ ق.م).

هَذِهِ هيَ الأُصولُ الخمْسةُ، ونَرى من تَعْدادِ أسْمائها أنَّها تتبَعُ القَديْمَ، وتُعْنى به، وتضعُه الوَضْعَ الذي ارتَضاهُ كونفوشيوس، ويظْهَرُ فيْها كونفوشيوس بمظهَرِ الآخذِ بالتُّراثِ الذي بيْنَ يديْهِ والمنظِّم له.

أمّا الكُتُبُ الأرْبَعَةُ التي تُضافُ إلى الأُصولِ الخَمْسَةِ فهي مُلْحَقَةٌ بتلك، وفيها (آراءُ كونفوشيوس، وحَياتُهُ، وآراءُ تلاميذِه وأتْباعِه وأفكارهم)، وهي تتضمَّن الكُتُبَ الآتية:

١ - المنْتَخَباتُ مِنْ أقْوالِ كونفوشيوس وأحاديثِهِ وأفعالِهِ: وقد ذَكَرْنا أنَّ المؤرِّخينَ المُحْدَثينَ اعتمدوا على هَذا الكِتاب في استِخراجِ حياةِ كونفوشيوس بصحَّتِها ودقَّتِها كَما يَرونَ.

٢ - المعْرِفَةُ الكُبْرى: وَهوَ كِتابٌ منسوبٌ إلى (تسين تسيان) أحَدِ تلامذَةِ كونفوشيوس.

٣ - مَذْهَبُ الوسطِ؛ أوْ حالَةُ الانسِجامِ والاتِّزانِ: وفيه بيانٌ للنِّظامِ الذي يَجِبُ أنْ يسيرَ عَلَيْهِ الكَوْنفوشيوسيون في أخْلاقِهم واتِّزانِ نُفوسِهم وطبيعتِهم.

٤ - آثارُ منسيوس: وَهوَ مصلحٌ من كبارِ مُصْلحي الصّيْنِ، أكمل مَذْهَب

كونفوشيوس بعده بـ (١٥٠) عاماً.

من هَذَيْنِ النّوعينِ من الكُتُبِ تَتَكوَّنُ الأُصولُ والمَبادِئ التي يَعْتَمِدُ عليها المَذْهَبُ الكَوْنفوشيوسي في الإدارةِ والحُكْمِ والأَخْلاقِ والتَّعبُّدِ، على أنَّ أَحَدَ الأباطرَةِ أرادَ أنْ يقضي على هَذِهِ الكُتُبِ فأمرَ بإحراقِها جَميْعاً، لكنَّ المتحمِّسينَ للمذهَبِ استطاعوا أنْ يُنْقِذوا قسماً من نُسَخِها، وبذلكَ حُفِظَتْ وسَلِمَتْ.

* عِبادَةُ السَّماء:

ما كانَ قصدُ كونفوشيوس - كَما قلنا - قَصْداً دينيّاً بالمعنى الذي تعرَّفنا عليهِ - أي البَحْث عَنْ الإلَهِ ومعرفته وتعبُّده - ولَمْ يرمِ إِلى إيجادِ مَذْهَبٍ جَديْدٍ من حيث الفِكْرُ الإلَهي، بَلْ أقرَّ ما كانَ عَلَيْهِ ديْنُ الصّيْنِ قبلَهُ بوجهٍ يتلاءمُ مَعَ دينِهِ وعَقيْدَتِهِ واتِّجاهِهِ المَسْلَكي، إذ استبقى عِبادَةً كانت قبلَهُ وهي عِبادَةُ السَّماءِ (تيين)، فقدْ كانَ الصِّينيّونَ يَعْبُدونَ السَّماءَ ويُقدِّمونَ لها القَرابيْنَ، ويَرى كونفوشيوس في السَّماءِ شيئاً غير ما كانَ يَراهُ قدماءُ الصّيْنِ، فَهوَ يعتَقِدُها قوَّةً في الكَوْنِ فيْها قدرةٌ غيرُ قدرةِ الإنْسانِ، قدرة تَعْمَلُ في سبيلَ العدلِ والحَقِّ، ولها من العطفِ والرَّحْمَةِ على الإنْسانِ ما لها، وهي تحبُّ النِّظامَ والانسجامَ والتَّرتيبَ، وهي مثالٌ للرَحْمَةِ.

ولعلَّ الباحثَ في مَذهَبِ كونفوشيوس - مِنْ آثارِه - يستنتجُ:

= أنَّ كونفوشيوس كانَ موحِّداً، يرى أنَّ للكونِ إلَهاً واحِداً، لَكِنَّهُ تسامَحَ في تَقْديسِ المَظاهِرِ الطَّبيعيَّةِ والأَجْدادِ والأَرْواح (الجنّ).

= وكانَ كونفوشيوس يأبى تأليهَ الأشْخاصِ والأفْرادِ، ويعتقدُ أنَّ ذَلِكَ تملُّقاً لا يستحقُّونه، وكلُّ أَمْرِه أنَّهُ في سبيلِ نظامِهِ الاجتماعيِّ السياسيِّ يرى أنَّ الإمبراطورَ مَعْقودٌ لَهُ في السَّماءِ - أي أنَّ سلطتَهُ خوَّلَها لَهُ الإلَهُ، فَهوَ إذن يُمثِّلُ الإلَهَ عَلى الأَرْضِ في المَبادِئ الأَخْلاقيَّةِ والاجتماعيَّةِ التي يتَّبِعُها.

هَذا هوَ رأيُ كونفوشيوس في التَّوْحيْدِ، ولو أنَّهُ لا يظْهَرُ واضِحاً كلَّ الوضوحِ منْ آثارِه فَهوَ - كَما قُلْنا - لا يريدُ أنْ يتعرَّضَ بشَكْلٍ خاصٍّ للإلَهِ، ولخَلْقِهِ للكونِ، ولقدرتِهِ، بَلْ غايةُ أَمْرِهِ أنَّهُ يتمثّلُهُ قدرَةً فائقةً فَوْقَ القدرَةِ البَشَريَّةِ، قدرةً عادلةً رحيمةَ محسنةً منظَّمةً.

على أنَّ رأيَ كونفوشيوس في الإِلَهِ لم يأْخُذْ به الصِّينيّونَ على حقيقتِه وعلى شَكْلِه، بَلْ رَجَعوا إِلى دينِهِم القَديْمِ، وَهوَ ديْنُ عِبادَةِ المَظاهِرِ الطَّبيعيَّةِ والأَرْواحِ بَلْ الأَشْخاصِ، فلم يتغيَّرْ شيءٌ من هَذِهِ النَّاحيةِ في ديْنِ الصِّينيِّينَ بَعْدَ أنْ مَضى زمنٌ على وَفاةِ كونفوشيوس.

* النَّاحيةُ الأَخْلاقيَّةُ والاجتِماعيَّةُ:

نشرعُ الآنَ في تفْسيْرِ ما أجمَلنا ذكرَهُ في النَّظرةِ العامَّةِ عَنْ ديانةِ كونفوشيوس، وقد ذَكَرْنا أنَّ كونفوشيوس يهتمُّ بالأَخْلاقِ والمُجْتَمَعِ، وقد كانَ في الواقِعِ مُنْهَمِكاً في وَضْعِ أُسْلوبٍ يَجْعَلُ من الإِنْسانِ شَخْصاً متسامِياً، وقد يقصِدُ بكلمة (مُتسامي): الشَّخْص المُسْتَقيم المتَّزن الذي يقودُ الآخرينَ في هَذا الصِّراطِ ويهديهم سبيلَهُ.

والاعتدالُ عندهُ أساسٌ في كُلِّ شيءٍ.

وَضَعَ كونفوشيوس مَبادِئَ في الأَخْلاقِ تُختَصَرُ في قولٍ مشهورٍ لَهُ، وَهوَ: **(لا تَعْمَلْ مَعَ الآخرين ما لا تحِبُّ أنْ يَعْمَلوهُ معَكَ)** في هَذا المبدأ الخُلاصةُ الخُلقيَّةُ لِمَبْدأ أَخْلاقيٍّ متَّزنٍ يَجْعَلُ الإِنْسانَ ينظرُ إِلى غيرِه نظرتَهُ لنَفْسِهِ.

ووَضَعَ كونفوشيوس مَبادِئ خَمْسَة حدَّدها بحيثُ تجمعُ فكرتَهُ عَنْ الأَخْلاقِ وتنظيمِ المُجْتَمَعِ وَهيَ:

١ - **الثَّقافَةُ**: فالإِنْسانُ يَجِبُ أنْ يَكونَ مطَّلعاً على الكُتُبِ الدّيْنيَّةِ عارفاً بها.

٢ - **الإِخْلاصُ**: وواضحٌ من ذَلِكَ أَنَّهُ يريدُ العَمَلَ المُخْلِصَ الذي ليسَ فيه نيَّةٌ سيئةٌ.

٣ - **النِّظامُ في الحَياةِ الشَّخْصيَّةِ**: فعلى الإِنْسانِ أَنْ يَكونَ منظَّماً في أُمورِه وشؤونِهِ نِظاماً يتبعُ نسَقاً مُعيَّناً لا اضطرابَ فيه.

٤ - **الانسجامُ في العلاقاتِ العائليَّةِ والاجتماعيَّةِ**: وهي انسجامُ الشَّخصِ مَعَ محيطِه، وسيرُه على قَواعدِه.

٥ - **السَّلامُ العام**: وَهوَ مبدأٌ إِنسانيٌّ عامٌ يَدلُّ على الحِكْمَةِ الكَوْنفوشيَّةِ.

* تَقْديسُ الأَجْدادِ:

قُلنا إِنَّ كونفوشيوس لم يأْتِ بالجَديْدِ فيما يتعلَّق بالفِكْرَةِ الإِلَهيةِ، وأَنَّهُ تتبَّعَ الآثارَ القَديْمَةَ فوَضَعَها بالصِّيغةِ النِّهائيَّةِ، فَهوَ إِذن **اطَّلعَ على** تاريخ الصِّيْنِ، وعلى العَقْليَّةِ الصِّيْنيَّةِ، وعلى طبيعةِ مواطِنيهِ اطِّلاعَ الحكيمِ، فوَضَعَ لَهُمْ مبدأً يُناسِبُ عقلَهم وطبعَهم ومزاجهم، ولذلكَ بَقيَ دينُه في الصِّيْنِ ثابتاً على الأَيّامِ.

وقد وجِدَ في آثارِهم وأعمالهم ما يَدلُّ دلالةً تامَّةً على إِجلالِ الآباءِ والأَجْدادِ، فأقرَّ ذَلِكَ الإِجْلال على أَنَّهُ تقوى أساسيَّة يُقدِّمُه الابنُ نحوَ أبيهِ. وَهوَ رأْسُ الفَضائلِ عنده لِما يَتَكوَّنُ فيه من اعترافٍ بالجميلِ، وقيامٍ بحقِّ صاحبِ الحقِّ. ولعلَّه لم يقصِدْ منْ إِجْلالِ الأَبْناءِ لآبائهم عبادتهم لَهُمْ، بَلْ نَوْعاً من التَّقْديْسِ والتَّبجيلِ الذي يرى أَنَّهُمْ يستحقُّونهُ، كَما ويرى أنَّ الأَبْناءَ يَسْمونَ بهَذا الإِخْلاص وذَلِكَ الإِجْلال.

ودرجَ الصِّينيّونَ مِنْ بَعْدِهِ على إِقامَةِ هيكلٍ للأَجْدادِ في كُلِّ بيتٍ من البيوتِ، توضَعُ في ذَلِكَ الهيْكَل أَسْماءُ الأَجْدادِ والآباءِ المتوفين، تُكْتَبُ على أَلْواحِ وتُقدَّسُ تلك الأَرْواحُ وتَتْلى أمامَها الطُّقوسُ، وتُقَدَّمُ لها القَرابيْنُ، وتبذلُ فيْها المشروباتُ،

وذَلِكَ بمناسبةِ الولاداتِ والوَفَياتِ.

ويَقولُ الباحثونَ: إنَّ هَذِهِ الطُّقوس وتلك العبادات إنَّما هيَ تعبيرٌ عائليٌّ عَنْ الشُّعورِ نحو الأَجْدادِ، فالأَوْلادُ مَدينونَ لَهُمْ بالشُّكرِ لأَنَّهُمْ أَتَوا بهم لهَذا العالَمِ. ولا يُلزَمُ الأَوْلادُ بتَقْديسِ أَجْدادِ غيرهم، فهم مُلْزَمونَ بمَن هم أصْحابُ المعروفِ معهم.

وكانَ كونفوشيوس يرى أنَّ تَقْديسَ الأَجْدادِ الآخرين نَوْعٌ من التَّملُّقِ لا جَدْوى منه ولا موجِبَ له.

على أنَّ الصِّيْنيينَ انتَهوا إلى أنْ صاروا يرَونَ عِبادَةَ الأَجْدادِ عِبادَةً أساسيَّةً، وهكذا أقاموا الهياكِلَ للأَجْدادِ عامَّةً، وأقاموا احتفالاتٍ وأعْياداً خاصَّةً أمامَ أُولئكَ الأَجْداد، فوضَعوا في تلكَ الهياكِل الأَلْواحَ بأَسْماءِ عددٍ كَبيْرٍ ممن هم أساسُ الحضارةِ الصِّيْنيَّةِ وأساسُ الفِكْرِ الصِّيْنيِّ وأساسُ تلك المَدَنيَّةِ، وضمَّنوا تلك الهياكِلَ في الطَّرَفِ الشَّماليِّ الأَقْصى منها عِبادَةَ كونفوشيوس نفسِهِ، ولو رأى ذَلِكَ كونفوشيوس لامْتَعَضَ وتألَّمَ، وقد تَمَّ ذَلِكَ على مَراحِلَ:

= فَقَدْ أعطى الأَباطِرةُ بالتَّالي لكونفوشيوس أَلْقاباً مُتدرِّجةً، فسمَّاهُ أحدُهم (أميراً) والآخر (أُستاذاً أعلى) وآخر أعْطاهُ (رتبَةَ الكَمالِ العَظيم)، و(أعْظَمَ الحُكماء).

= ثُمَّ قَرَّروا عام (٥٥٥ م) أنْ يؤسِّسوا لَهُ هَيْكلا في كُلِّ مدينةٍ كَبيْرةٍ من مدنِ الصِّيْنِ، وقَرَّروا أن تُقَدَّمَ لَهُ القَرابيْنُ وأنْ يُعْبَدَ.

= ثُمَّ ضمُّوا إلَيْهِ عَدداً من التَّلاميذِ ونَحْواً من أسماءِ ستِّينَ عالماً من عُلَماءِ الكَوْنفوشيَّةِ.

وَكانَت عبادتُهُ خِلالَ ما يقرُبُ من (١٥٠٠) عام تُقامُ في الصِّيْنِ مرَّتين كلَّ عامٍ في موعدِ (تَعادُلِ الرَّبيع) و(تَعادُلِ الخَريفِ).

ولما تأسَّستِ الجمهوريَّةُ الحَديْثَةُ في الصّيْنِ أَبْطَلَتْ عِبادَةَ كونفوشوس بَعْدَ أنْ عَرَفَتِ الصّيْنُ الأَدْيانَ الأُخْرى العالميَّة، فوجدَتْ أَنَّها تفعَلُ شيئاً مُسْتَغْرباً.

على أَنَّهُ حينَ أُبْطِلَتْ عِبادَةُ كونفوشيوس عُدَّتْ ذِكْرى مِيلادِهِ عيداً وطنيّاً عامّاً.

وأتَتْ بَعْدَ ذَلِكَ حُكومةُ الصّيْنِ الشَّعْبيَّة الشُّيوعيَّة فنظرَتْ بحذَرٍ كَبيْرٍ إلى الكَوْنفوشيَّةِ، وأَلْغتْ مِنَ المَدارِسِ الأساسيَّةِ كتُبَ الدّيْنِ الكَوْنفوشي بِما فيْها الأُصولُ الخمسة والكُتُب الأَرْبَعَة.

الفصلُ الرّابع

من أديانِ بلاد فارس

أولاً - الزَّرَدشتيّة

ثانياً - المانويَّة

أولاً – الزَّرَدشتيَّة

الزَّرَدشتيَّةُ: دينٌ ثنوي ينتهي أمرُه بالتَّوحيدِ، وهَذا الدّيْنُ عُرِفَ في العُصورِ الإِسْلاميَّةِ السابِقَةِ وحتَّى يَومِنا هَذا بـ(المجوسيَّةِ)، على أنَّ المَجوسيَّة ليْسَتْ إِلا تَحْريْفاً لذلك الدّيْنِ الأَصْلي الذي هوَ ديْنُ (زرَدَشْت).

وزَرَدَشْت عاشَ على ما قالَه أكثرُ الباحثينَ بالتَّقريبِ في القرنِ السادسِ قَبْلَ المْيلادِ، ومنهم من يضبِطُ تاريخَ حَياتِهِ كَما يلي (٦٦٠ – ٥٨٠) ق. م، وكلُّ هَذا تقريبٌ لا تُعرَفُ حَقيْقَةُ تاريخِه. بَلْ يدَّعي بَعْضُ النَّاسِ أنَّ وجودَه نفسَه رَمْزيٌّ، وأنَّهُ لم يَكُنْ هناك شَخصٌ اسمه (زرَدَشْت).

حياة زَرَدَشْت:

انقطَعَ زَرَدَشْت لنَفْسِهِ مدَّة منِ الزَّمنِ يتعبَّدُ ويتهجَّدُ، حَتَّى إذا كانَ لَهُ منَ العمرِ بيْنَ الثَّلاثينَ والأربعينَ قال: إِنَّهُ أُوحيَ إِلَيْهِ ديْنٌ جَديْدٌ. وشرَعَ زَرَدَشْتُ يُبَشِّرُ بهَذا الدّيْنِ بيْنَ النَّاسِ بهمَّة لا تفتُرُ، وامتدَّ بهِ الزَّمَنُ في هَذا التَّبشيْرِ دونَ نجاحٍ كَبيْرٍ، ولَكِنَّهُ كانَ من حُسْنِ حظِّه أنْ اجتَمعَ بملِكِ الفُرْسِ واسمه (كتشمبا) **ولعلَّه** والد (دارا). وجاهَدَ زَرَدَشْتُ ليُقنِعَ الملكَ فلَمْ يَقْتَنِعْ هَذا إلا بَعْدَ أن ظَهرَتْ لَهُ المُعجزَةُ – على ما قيل – وَهيَ: أنَّ زَرَدَشْت أنْبتَ شَجرَةَ أرز على عتَبَةِ قصْرِه، فآمنَ، ودعا النَّاسَ إِلى الأخْذِ بذلكَ الدّيْنِ الجَديْدِ، وسارَ زَرَدَشْت في أنْحاءِ المْلَكَةِ يُبَشِّرُ بِدينِهِ، وأقامَ على ذَلِكَ نحواً من سبعَةٍ وعشرينَ عاماً لا يكلُّ ولا يملُّ حَتَّى قُتِلَ في حربٍ مَعَ أهْلِ بلخ، فتوفي وترَكَ منْ بعدِه ديْنَهُ.

كتابُ الزردشتيَّة:

يقالُ إنَّ زَرَدَشْتَ وَضَعَ كتاباً لدينِهِ اسمه (الافيستا)، على أنَّ هَذا الكتاب يحوي خَمْسَةَ أسفارٍ مختلفَةٍ، وهو مضطربٌ في نُصوصِه غير مُستقيمٍ، ادْمِجَتْ فيه

نُصوصٌ ليْسَتْ منه، وأُقْحِمَتْ فيه إقْحاماً.

ومِنَ الأسْفارِ الخمسةِ كتابُ صَلاةٍ يحوي (الغَطْسَ) **ولعل** الغطسَ أَقْدمُ قطعةٍ من الافستا، ولعلَّ بَعْضَهُ بقلمِ زَرَدَشْت نفسه.

والافستا يُدعى أَيْضاً بـ (زندافستا) - أي تفسير القانون -.

والكتاب مكتوبٌ باللُّغةِ الفارسيَّةِ القَديْمةِ، سوى النُّصوص التي أُلْحِقَتْ به في عَصْرِ السَّاسانيّينَ باللُّغةِ الفَهْلويَّة، وهي نُصوصٌ أدبيَّةٌ تفسيريَّةٌ للكتابِ، تتمِّم بَعْضَ ما فيه.

مبادئ زردَشت:

إنَّ الدّيْنُ الذي جاءَ به زَرَدَشْت قُصِدَ به إصْلاحُ الدّيْنِ القَديْمِ، إصْلاحُ ديْنِ المَظاهِرِ الطَّبيعيَّة الذي يُعبَدُ فيه عددٌ هائلٌ من الآلِهَةِ.

= أرادَ زَرَدَشْت أنْ يصْلِحَ هَذا الدّيْن وأنْ يقرِّبَه منَ التَّوْحيْدِ، وأرادَ أنْ يَبْعَثَ فيه حياةً جَديْدَةً.

= ووضَعَ أُسساً للإصْلاحِ الاجتماعيِّ، فحضَّ على العَمَلِ في الأرْضِ والخوفِ من الدَّنَسِ والابتعادِ منه وتطهيرِ النَّفْسِ وتَقْديسِها بالصَّفاءِ وفعْلِ الخَيْراتِ.

= ومن وصاياه وصايا ثلاث حضَّ فيْها على أنْ يَكونَ للإنْسانِ نوايا حسنة، وكلام حسن، وأفعال حسنة.

فقصدَ إذن بدينِه شيئاً من الطُّهْرِ والسُّموِ بالنَّفْسِ البَشَرِيَّةِ، وإصْلاحِها ورَفْعِها عَنْ المُسْتَوى الذي كانت عَلَيْهِ في ديْنِ الفرس القَديْمِ.

الإلَهُ في الزَّردشتيَّةِ:

أمّا نظرتُه التي عَنْ الإلهِ فليسَ بوسعِنا أنْ نعرفَها وأنْ نضبطَها، فقد دَخَلَ عليها كَثيْرٌ مِنَ الأشْياءِ شوَّهَتْها وأبْعدَتْها عمَّا وضعها عَلَيْهِ زَرَدَشْت، ولَمْ يَتَّفِقْ

الباحِثونَ على الدّيْنِ الذي أتى به زَرَدَشْت، بَلْ اختلَفوا فيه اختِلافاً كَبيْراً. ولَمْ تنته إلينا كتاباته صحيحةً موثّقةً، بَلْ مَضى زمنٌ طويلٌ عليها جُهِلَتْ فيه، ثُمَّ جُمِعَتْ بَعْدَ قرونٍ عديدةٍ على غيرِ حقيقتِها الأُولى. وعلى ذَلِكَ فلا يُنْتَظَرُ منّا أنْ نصِلَ إلى فكرةٍ دقيقةٍ عَنْ دِيْنِ زَرَدَشْت، وما بينَ أيْدينا يُقرِّبُ فكرتَه، ولذا فإنّنا سنعرِضُ هَذِهِ الفِكْرَة عَرْضاً عامّاً لا على أنّها حقيقة تاريخيَّة، بَلْ هو ما انتهت إلَيْهِ أفْكارُ المؤرِّخينَ المُحْدَثينَ.

فعلى رأيهم أوْ رأى بَعْضُهُم أنَّ زَرَدَشْت كانَ يعتقدُ أنَّهُ وجِدَ منْذُ الأزلِ إلهانَ:

أحدهما: (أهورا مزده) ويسمى أيْضاً (هرمز) أي (العلم السامي).

والإله الآخر: (أهرمان).

عمد (هرمز) إلى خَلْقِ النُّوْر والحَياةِ، فغارَ منه (أهرمان) وخلقَ اللَّيْلَ وجهنَّم، ردّاً على خصمِه، واستعرَ القِتالُ بيْنَ الاثنينِ، وَهوَ قتالٌ سينتهي يَوْماً.

ثُمَّ إنَّ (هرمز) خَلَقَ خِصالا ستّاً هم وزراؤه، وهي (الخَيْرُ، والخِصالُ الحسنَةُ، والعدلُ، والملكُ الإلَهيّ التقيُّ الصّالِحُ، والعفو، والخُلود).

وعاد (أهرمان) فخلَقَ مقابلَ ذَلِكَ خِصالا شرِّيرةً، هم وزراؤه، وَهيَ: (القساوةُ، والغضبُ، والذنوبُ، والسِّحرُ،... وغير ذَلِكَ.

واستمرَّ القِتالُ بيْنَ المَبْدأيْنِ (مبدأ الخَيْرِ، ومبدأ الشرِّ) ثلاثةَ آلافِ سنةٍ.

ثُمَّ خَلَقَ (هرمز) الأرْضَ والإنْسانَ والحيوانَ، فخلقَ (أهرمان) الشياطينَ، وامتدَّ ذَلِكَ ثلاثة آلاف سنةٍ.

وفي الدَّورَةِ الثَّالِثَةِ - وهي تَمْتَدُّ ثلاثةَ آلافِ سنةٍ - وجِدَ زَرَدَشْت وبشَّرَ بدينِه، وسيأتي بعدَهُ مُصْلِحونَ ثلاثة.

ثُمَّ تبدأُ دورةٌ رابعةٌ يتغلَّبُ فيْها (هرمز) على (أهرمان) فيقضي عَلى كُلِّ

الشُّرورِ وتَسودُ الخَيْراتُ، ولا يَبْقى في العالَمِ إلا رَبٌّ واحِدٌ، والنَّاسُ على اتِّصالٍ وثيقٍ به.

على أنَّهُ يَنْبَغي للنّاسِ أنْ يُساعِدوا (هُرْمُزَ) في القَضاءِ على الشرِّ، فللإِنْسانِ أثرُه في ذَلِكَ الصِّراعِ بيْنَ الخَيْرِ والشرِّ، والإِنْسانُ مدعو إِلى أنْ يُحارِبَ إِلى جانِبِ الخَيْرِ، وفي ذَلِكَ عونٌ لهرمز في القضاءِ على الشرِّ.

وهكذا نرى أنَّ هَذِهِ الدّيانَة تَبتَدِئُ ثَنويَّة (فيْها الخَيْرُ وفيها الشرُّ) يتقاتَلان ولَكِنَّها تنتهي وحدانيَّةً توحيديَّةً، إذ يتغلَّبُ الخَيْرُ على الشرِّ.

ولعل زَرَدَشْت وَجَدَ قَبْلَ عَصْرِهِ عدداً منَ الآلهةِ تُعبَدُ، فحوَّل العَقيْدَةَ بها بأَنْ جعلها أَفْكاراً لا آلهة ذات أشكالٍ، وقسَّمها إِلى قِسْمَيْنِ (قسم خَيِّرٍ، وقسم شرِّير) بحيث يقضي الخَيِّرُ على الشِّرِّير. ولعله لم يَكُنْ في ذهنِ زَرَدَشْت أنَّ الخِصالَ التي خلَقَها (هرمز، وأهرمان) هيَ آلهةٌ إِنَّما هيَ تمثيل للاتِّجاهاتِ، فأتى مَنْ بعدَهُ فجعَلوها آلهةً يَعْبُدونَها. ومن هَذِهِ الآلهةِ إلَهٌ أَسْقَطَهُ زَرَدَشْت عَنْ مكانتِهِ القَديْمَة وَهوَ (كمترا) هَذا الرَّبُّ اعتقدَ النَّاسَ بَعْدَ زَرَدَشْت في عَصْرِ السَّاسانيينَ أنَّهُ (إِلَهُ النُّوْرِ) فجُعِلَ إِلَهاً حقيقياً، وقيلَ إِنَّهُ ضحَّى ثوراً وخلقَ بدمِهِ الكائنات، ولذلك يُضحَّى بثَوْرٍ عِبادَةً له.

كانَ زَرَدَشْت على ما يُقالُ قدْ رأى أنَّ الرَّبَّ يُمْكِنُ تمثيلُه بشكلٍ جواهرَ طبيعيِّة خالصةً أَهَمها النّارَ، وأتى الكَهَنَة فأحدثوا من ذَلِكَ عِبادَةَ النّار. وكانَ أن اشتهرت ديانَةُ زَرَدَشْت بالمَجوسيَّة أي عِبادَةَ النّار. وعِبادَةُ النّار إِنَّما أَصْلُها في ديْنِ زَرَدَشْت تطهير النيران من الدنس باعتبارها من الجواهر الإلهية المَخْلوقة. ولما عبدت بَعْدَ ذَلِكَ أحدثت لها هياكل ووضع في كُلِّ هيكل نار تتقد ولا تنطفئ أبداً. وكانَ للكهنة الذين يُقيْمونَ في المعابد بَعْدَ زَرَدَشْت أثر كَبيْر فهم المحامون لدينه وَهُمْ المطهرون لعبادته ووصل أثرهم إِلى الحكم نفسه فكانوا يوجهون المُلوكَ.

اليومُ الآخر عندَ الزَّردشتيَّةِ:

النَّاسُ في الزردشتيَّةِ مُحاسبونَ على أفعالِهم، وستوزن تلك الأفعالُ في اليَوْم الآخرِ وزناً دَقيقاً، وهي مسجَّلةٌ تسجيلا تامّاً، ويمرُّ الإنْسانُ على طَريْقٍ تحته جهنَّم، فإنْ كانَ المارُّ صاحِبَ خَيْراتٍ وَجَدَ الطَّريْقَ عَريْضاً، وانتَقَلَ منه إلى عالَمِ النُّورِ، أمّا إذا كانَ صاحِبَ شرورٍ فإنَّهُ يجِدُ طَريْقَهُ ضيِّقاً جداًّ فيقعُ منه إلى جهنَّم، وإذا توازنت أعمالُه الطَّيبةُ مَعَ أعمالِه السَّيئةِ وجبَ عَلَيْهِ أنْ يمرَّ بالمَغْسلِ، وأنْ يغسِلَ ذنوبَه ثُمَّ ينتقل إلى عالم النُّورِ.

الزردشتيَّةُ في العَصْرِ الحاضِرِ:

ذكرنا أنَّ الدّيْنَ الزرادشتي انتَقَلَ إلى عَصْرٍ كانَ فيه مُظْلماً لم يُعرَف، ومجهولا مخفيّاً، وامتدَّ هَذا العَصْرُ ونما ولعلَّه بلغ أرْبَعَةً أوْ خَمْسَةً من القُرونِ، ثُمَّ أعادَ السَّاسانيّون هَذا الدّيْنَ، وترْجموا (الافستا) إلى الفَهْلَويَّةِ، وأسَّسوا هياكِلَ النِّيرانِ في كُلِّ مدينةٍ، ووضَعوا عليها الحفَظَةَ، وامتدَّ الأمْرُ إلى ظَهَرَ الإسلام ومدَّ رواقَه على أماكن انتشار الزَّردشتيَّة، فبدأت الزردشتيَّةُ بالانْحِسارِ وعِبادَةُ النّارِ تتلاشى، وبخاصَّةٍ في زمن المتوكِّل العبَّاسيِّ، فانتقَلَ بَعْضُ المتعبِّدينَ لها مُهاجِرينَ إلى بلادِ الهِنْدِ، وفيها اليَوْم مِنْهُم عددٌ يُدْعَونَ بـ(الباريسين) أي: الفرس القدماء.

ثانياً - المانويَّة

تقدَّم معنا أثرُ الزَّرَدَشتيَّة في بلاد فارِسٍ، ومن المفيدِ مَعْرِفَةُ المانوية التي كانَ لها مِنَ الأثرِ في حَياةِ الفرسِ ما يُشابِه أثرَ الزَّرَدَشتيَّة، وكانَتْ تُرادِفُ عِنْدَ المُسْلِميْنَ كلمةً (الزَّنْدَقة) التي كانت تُطلَقُ عليها خاصَّةً قَبْلَ أن تُطْلَقَ على الإلْحادِ عامَّةً.

المانوية مزيجٌ من الدّياناتِ المختلفة: (الزَّرَدَشتيَّة - البوذيَّة - المَسيْحيَّة) ومؤسسها (ماني) ولد سنة (٢١٦ م) في عائلة متزهِّدَةٍ متمسِّكةٍ، تنتسِبُ إلى يوحنَّا

المَعْمدان.

حياة ماني:

وِلِدَ في مدينةٍ قريبةٍ منْ مكانِ بغدادَ الحالي، ولَمَّا بلغَ السَّادِسةَ والعشْرينَ من العُمرِ رأى أنَّهُ أُوحيَ، إِلَيْهِ فأخذَ يُبَشِّرُ بدعوتِه، وأُعْجِبَ (سابور الأَوَّلُ) بدينِه فاعتَنَقَه، لكنَّ الكَهَنَةَ حرَّضوه على هَذا الدّيْنِ الجَديْدِ فأبْعدَ ماني، فسارَ هَذا يَجوبُ آسيا حَتَّى بلغَ الهِنْدَ وتَجاوزَ حُدوْدَ الصّيْنِ مُبَشِّراً بدينهِ، ولَمَّا استَوْلى على الملك (بهرام الأَوَّلُ)، ظنَّ ماني أَنَّهُ يَسْتَطيعُ العَودةَ إِلى بِلادِه بأمانٍ، فعادَ، لَكِنَّهُ استُقْبِلَ بمعارضَةٍ شديدةٍ من الكَهَنَةِ، وأُلْقِيَ في السِّجنِ، فبقيَ فيه حَتَّى ماتَ.

على أنّه لم تطْفَئ جذوةُ دينِه، فما لبثَ أن انتَشر مِنْ أقْصى العالمِ إلى أقْصاه، فقَدْ كانَ دُعاتُه متحمِّسينَ حماسَةً شَديدةً، وَكانَت أَفْكارُ هَذا الدّيْنِ تَجولُ في أذْهانِ النّاسِ آنذاك.

غيرَ أنَّ الاضطهادَ ما زالَ يُلاحِقُه في كُلِّ مكانٍ، فقدْ اضطهدَه أباطِرةُ القسطنطينية، وباباوات روْما وغيرهم.

واستَّمرتِ المانوية تَبُثُّ تَعاليمها لا تَني عَنْ ذَلِكَ مدَّة ألفِ سنةٍ، تدخلُ في الفِرَقِ المنشقَّة والمتَزنْدِقة فتؤثِّر فيْها وتوجِّهها، وقدْ دَخلَتْ المانوية في بلادِ الإِسْلامِ ونفثَت أثَرها في بَعْضِ المَذاهِبِ المبتدعةِ، فردَّ عليها المتكلِّمونَ، حتَّى انمحى أثرُها بالحجج والبَراهين.

ديانة ماني:

المانوية ديْنٌ ثَنويٌّ بُنيَ على الصِّراعِ بيْنَ قوَّتين متناقضتين.

ويدَّعي مؤسِّسهُ أَنَّهُ أُوحيَ إِلَيْهِ من عِنْدَ الله، وأَنَّهُ المنقذُ الذي نصَّ عَلَيْهِ المَسيْحُ، وأَنَّهُ آخرُ الأَنْبياءِ، ويدَّعي أنَّ دينَه لا يختلف عَنْ أدْيانِ الرُّسُلِ الذين

أُرْسِلوا قبْلَه، وَهُمْ (نوح، وإبراهيم، وبوذا، وعيسى) وإنَّهُ إنَّما جاءَ ليشرحَ تعاليمَهم ويوضِّحَ ما التبسَ منها، ويتوِّجها ويكمِّلها.

والواقع أنَّ ماني وَضَعَ نظريَّةً كونيَّةً تاريخيَّةً بنى عليها دينَه الذي اقتبَسه من منابعَ مختلفة، فهو يرى أنَّ الأوقاتَ ثلاثةٌ: (الماضي، والحاضِر، والآخر)، ويشرح حالَ هَذِهِ الأوقات الثلاث ويَذْكُرُ ما حصل فيها، بما خلاصته:

أمَّا الماضي: فقدْ خَلَقَ اللهُ الكَوْنَ من عالَمَيْنِ مُتناقِضَينِ (النُّور، والظُّلْمَة) وأسكنَ الملائكَةَ في النُّورِ، والشَّياطينَ في الظُّلماتِ، والعالَمانِ مُنْفَصِلانِ كلَّ الانفصالِ، وبَيْنَهُما حُدودٌ، فَفي الشَّمالِ مَلَكوتُ النُّوْرِ يَسودُ فيه ذو العَظَمَةِ الإلَهُ الخالِد. وفي الجنوبِ مَلَكوتُ الظُّلْمَةِ وهي مادَّةٌ مَحضُ.

شاهدَ إبليسُ مَلَكوتَ النُّورِ والملائكةَ فحَسَدَهم، وأرادَ أنْ يستوليَ على مملكتِهم، وبما أنَّ خالقَ الكَوْنِ في جَوْهَرِهِ غيرُ مُقاتِلٍ، ومَلائكتَه أصْحابُ سلامٍ، فقدْ خَلَقَ اللهُ الرَّجُلَ الأوَّل ليُقاتِلَ الظُّلماتِ، وقاتلَ الإنْسانُ الأوَّلُ الشَّيْطانَ فلم يقدِرْ عَلَيْهِ، وقُهِرَ أمامَهُ، فبعث إلَهُ النُّوْرِ رَسولا آخرَ تغلَّبَ على الشَّيْطانِ، على أنَّ الإنْسانَ تأثَّرَ بقتلِه الشَّيْطانَ فدخَلَه شيءٌ منَ الظَّلامِ.

واستطاعَ إبليسُ أنْ يحبسَ كميةً كَبيْرةً من الجَوْهَرِ النُّورانيِّ، هَذِهِ الكميَّة يَجِبُ استِخْلاصُها منه ومِنْ يَدِ أتْباعِه، وهكَذا نظَّمَ إلَهُ النُّوْر جَيْشاً هائلا يحرِّر هَذا الجوهَرَ، فكوَّنَ الشَّمسَ والقمرَ مِمّا استخلَصَ منَ الشَّياطينِ، وخلقَ الأرْضَ، واستخدَم لِخَلْقِها حُسَّاداً من الشَّياطينِ. هَذا هوَ الماضي عِنْدَ (ماني).

أمَّا الحاضِرُ: فيتَّصِلُ بالإنْسانِ الحالي، وهَذا الإنْسانُ الحالي ولِدَ من قِطَعِ النُّوْرِ التي حَبَسَتْها الشَّياطينُ في طرفٍ لحميٍّ، فعليه إذن أنْ يُنْقِذَ نفسَه من ظُلْمَةِ جسمِه، فيقهره ويعودُ نوراً، والعالَمُ مُكوَّنٌ من قوَّتيْنِ: قوَّةِ النُّوْرِ وهي قوَّةُ الخَيْرِ، وقوَّةِ الظَّلامِ وهي قوَّةُ الشَّرِّ، والمادَّة ظلامٌ فهي شرٌّ، ويجبُ على الإنْسانِ أنْ

يقهَرَها، ويكون قهرُها وغلبتُها بالزُّهْدِ بها، والابتعادِ عَنْ الشَّهوةِ الجسديَّةِ، لكنَّ قَهْرَها ليسَ سَهْلا، والنّاسُ متفاوتونَ في المقدرَةِ على غلبَتِها، فهم ثلاث طبقات:

أولا: طبقةُ الأصفياءِ الأبْرارِ، وهَؤلاءِ قادرين عليها، فيجبُ عَلَيْهِم أنْ يتزَّهَّدوا، ولا يتزوَّجوا، ولا يَطْلبوا المادَّةَ أبَداً، فلا يَقْتنوا شيْئاً.

ثانياً: طبقة المستمعين، وهَؤلاءِ أقلُّ قدرَةً مِنَ الأصْفياءِ على نبذِ المادَّةِ، فعليهم أنْ يَمتَنِعوا عَنْ الملَّذاتِ الجِسْميَّة ما أمكنَهم، وعليهم أنْ يمتَنعوا عَنْ القتلِ والزِّنى.

وَبِما أنَّ الطَّبقَةَ الأوْلى يجبُ أنْ تَبْقى بعيدةً عَنْ المادَّةِ فعلى المُستَمعينَ أنْ يُقدِّموا لها المَعيْشَةَ والحَياةَ، وكلَّما تحرَّر قسمٌ من النُّورِ علَتْ ذرَّاتُه فحلَّتْ في الشَّمسِ والقمرِ حيث تَصْفو، ويبقى في طبقةُ المستمعينَ الظَّلامُ، لَكِنَّها تقدِرُ أنْ تَمْحوَهُ وتأْتي عَلَيْهِ حين تُمْسَخ فتُصبِحُ يَوْماً منْ طبقَةِ الأخْيارِ.

ثالثاً: طبقةُ المذنبينَ، وهَذِهِ هيَ الطَّبقةُ التي يَبقى الظَّلامُ فيْها، وهي التي تَزولُ أرْواحُها إلى النّارِ. بهَذا شرح (ماني) الحاضِرَ.

أمّا المستقبل: فيأْتي عِنْدَما تُسْتَخْرَجُ الأنوارُ مِنَ الأرْواحِ البَشَريَّةِ، عندئذ يشتَعِلُ العالَمُ شعلةً كونيَّةً، ويعودُ الانفصالُ بيْنَ المَلَكوتينِ كَما كانَ.

يظْهَرُ مِمّا تَقدَّمَ أنَّ المانويَّةَ مَزيجٌ منَ (البوذيَّةِ، والزَّرَدَشتيَّةِ، والنَّصْرانيَّةِ) أخذَتْ بصفةٍ خاصَّة عَنْ الزَّرَدَشتيَّةِ الصِّراعَ بيْنَ الخَيْرِ والشَّرِّ، بيْنَ (أهورا مزده، وأهرمان).

عرفت هَذِهِ الدّيانَةُ من نصوصٍ قديمةٍ اكتُشِفَتْ في تُركستانَ، وفي الفيومِ بمصر.

انتشرتِ المانويَّةُ لأنَّها كانتْ تفسيراً تاريخياً لِلأدْيانِ القَديْمَة مَعَ عنايةٍ بالزُّهْدِ والتَّقشُّفِ.

وأخفَقَتْ لأنَّها كانت ثَنويَّةً فهي لم تِسْتَطِعْ أنْ تَتلاءمَ مَعَ التَّوحيدِ الذي انتشرَ في بلادِها الأُوْلى.

البابُ الثّاني

في الأَدْيان الكِتابيّة أَوْ المُنزلَة

الفصل الأَوّل : الدِّيانَةُ اليهوديَّة

الفصل الثّاني : الدِّيانَةُ النّصْرانيَّة

تمهيد:

بَدأ الـدّيْنُ مـعَ هُبـوْطِ آدَمَ إلى الأرْضِ، وذَلِـكَ أنَّ اللهَ تَعـالى خَلَـقَ آدم ﷺ، وجعله خليفتَه في الأرْضِ، وأخبرَ الملائكة بذلك، قالَ تَعالى: ﴿وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إنِّي جاعِلٌ في الأَرْضِ خَليفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] فَثارَ التَّساؤلُ في نُفوسِهِم عَنْ الحِكْمَةِ مِنْ ذلِكَ، وَسألوا رَبَّ العالَميْن: ﴿قالوا أَتَجْعَلُ فيها مَنْ يُفْسِدُ فيها وَيَسْفِكُ الدِّماءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ؟﴾ [البقرة: ٣٠] فأجابَهُم رَبُّ العالَميْن ﴿إنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

وكـرَّمَ اللهُ تَعـالى بَـني آدمَ، وخَلَقَهُـم في أَحْسَنِ تَقْـويْمٍ، وسَخَّرَ لَهُـمْ مـا في السَّماواتِ والأرْضِ، ولَمْ يَخلُقْهُم عَبَثاً، ولَمْ يَتْرُكْهم سُدًى، وإنَّما أمَدَّهُمْ بِحَبْلٍ مِنَ السَّماءِ، وبيَّنَ لَهُمْ طَريْقَ النُّوْرِ والهِدايَة، وأنْزَلَ عَلَيْهِم الوَحي، واصْطَفى مِنْهُم أنْبياء ورُسُلا، وأوْحى إليهِم بالكُتُبِ والصُّحُفِ والشَّرائعِ والأحْكامِ، ليَهْتَدوا بها، ويَسيْروا على مِنْوالِها، ويَسْلُكوا الصِّراطَ المُسْتَقيمَ، صِراطَ اللهِ العَزيْزِ الحَميْدِ، وطَريْقَهُ القَويم.

ولا يَعْلَمُ عَددَ الأنْبياءِ والرُّسْلِ أحَدٌ إلا اللهُ تَعالى، وذَكَرَ القُرآنُ الكَريمُ مِنْهُم خَمْسَةً وعِشْرينَ رَسولا.

وقد أنْزَلَ اللهُ كُتُباً كَثيْرَةً، ذَكَرَ لَنا القُرآنُ منها:

= **التَّوراةَ** الذي أنْزَلَهُ اللهُ تَعالى على سَيِّدِنا موسى.

= **والزَّبورَ** الذي أنْزَلَهُ اللهُ تَعالى على سَيِّدِنا داود.

= **والإنْجيلَ** الذي أنْزَلَهُ اللهُ تَعالى على سَيِّدِنا عيسى.

= **والقُرآنَ** الذي أنْزَلَهُ اللهُ تَعالى على سَيِّدِنا محمد ﷺ.

- وصُحُفَ إبراهيمَ وغَيْرَها.

ولم يبْقَ مِنَ الرِسالاتِ المُنَزَّلَةِ إلا (اليَهوديَّة - والنَّصْرانيَّة - والإِسْلامَ)، وتُسمَّى (الرِّسالات السَّماويَّة) ويَدْرُسُ الطَّالِبُ في مقرَّرِ (العَقيْدَةِ) الدِّيْنَ الإِسْلاميَّ، ويَدْرُسُ في مقرَّرِ (الفرق والأَدْيانِ): (الفرق الإسلامية) إلى جانب دراستِه: (اليَهوديَّةَ، والنَّصْرانيَّةَ) وتُسَمَّى: الأَدْيان الكِتابيَّةِ[1].

وقد طَرأَ على هاتَيْنِ الرِّسالتَيْنِ عبْرَ التّاريْخِ وقَبْلَ بعثَةِ محمد ﷺ تَطوُّراتٌ وتَغْييراتٌ، وحلَّتْ عليهما بَعْضُ العَوارِضِ، منها ما ذَكَرَهُ القرآنُ الكَريْمُ، عند حديثِهِ عَنْ اليَهودِ، قالَ تَعالى: ﴿مِنَ الَّذينَ هادوا يُحَرِّفونَ الكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ﴾ [النساء: ٤٦]، وقالَ عزَّ وجلَّ: (وَقَدْ كانَ فَريقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعونَ كَلامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفونَهُ مِنْ بَعْدِ ما عَقَلوهُ وَهُمْ يَعْلَمونَ﴾ [البقرة: ٧٥]، وقالَ تَعالى: ﴿يُحَرِّفونَ الكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ وَنَسوا حَظّاً مِمّا ذُكِّروا بِهِ﴾ [المائدة: ١٣] وغير ذَلِكَ مِمّا ورد في [البقرة: ٤١ - ٥٩]، [الأعراف: ١٦٢]، [إبراهيم: ٢٨]، [الفتح: ١٥].

وقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «لا تُصَدِّقوا أهْلَ الكِتابِ وَلا تُكَذِّبوهُمْ، وَقولوا: ﴿آمَنّا بِاللهِ وَما أُنزِلَ إِلَيْنا﴾»[2] [البقرة: ١٣٦]

وقد أكَّدت الدِّراساتِ العِلْميَّةِ والتّاريْخيَّةِ الحَديْثَة وقوعَ التَّحْريفِ والتَّبْديلِ في

---

(١) لاشكَّ في أنّ الدِّين الذي أنزله الله عزَّ وجلَّ على جميع أنبيائه عليهم الصَّلاة والسَّلام واحد. وإنَّما استعمل الإطلاقُ هنا بصيغةِ الجمعِ باعتبار تعدُّد الرِّسالات والشَّرائع، واختلاف العقائد بعدما طرأ عليها من التَّحريف والتَّبديل.

(٢) أخرَجَه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة، باب قَوْلِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تَسْأَلوا أَهْلَ الكِتابِ عَنْ شَيْءٍ» (٧٣٦٢).

الإنْجيلِ الـمُنَزَّلِ على عيسى ﷺ، وأنَّ الأناجيْلَ المَوْجودَةَ الآن، المَنْسوبَةَ إلى (مَتَّى وَلوقا ومُرْقُص ويوحَنّا) هيَ مِنْ وَحْيِ كُتَّابِها، جاءَ في تَعاليمِ المَسيْحيَّةِ أنّها إلْهامٌ لَهُم من روحِ القُدُس، فقالوا: (الإلْهامُ فَهوَ عونٌ روحيٌّ من قِبَلِ الرّوحِ القُدُسِ، يحثُّ الكاتبَ أنْ يعبِّر عمَّا يريدُ اللهُ أنْ يُطْلِعَ النّاسَ عَلَيْهِ من الحَقائقِ الدّيْنيَّةِ الضَّروْريَّةِ، لخلاصِ نُفوسِهم)[1]، وقالوا: (إنَّ اللهَ هوَ الذي أَلْهَمَ مُخْتاريهِ في تَدْوينِ الكِتابِ المُقَدَّسِ....، وكون الكِتاب المُقدَّسِ إلْهاماً لا يعني أنَّ الرُّوحَ القُدُس أمْلاهُ على الكاتبِ حَرْفاً حَرْفاً وكلمةً كلمةً، ولا أنَّهُ صحَّح المعلوماتِ الطَّبيعيَّةِ والجغرافيَّةِ والتّاريْخيَّةِ التي كانَ الكاتبُ قد استَقاها منْ بيئتِه، بَلْ تركَه يستعينُ بتلكَ المعلوماتِ الطَّبيعيَّةِ ليعبِّر بها عَنْ مَقاصِدِ اللهِ بأسلوبِه الشَّخصيِّ)[2].

ويَقولونَ: (إنَّ الكِتابَ المُقَدَّسَ هوَ مِنْ صُنْعِ اللهِ ومِنْ صُنْعِ الإنْسانِ مَعاً، كلٌّ بحسبِ مرتبتهِ، فاللهُ هوَ واضِعُه الرَّئيسيُّ، وأمّا الإنْسانُ فأداتُه النّاطقةُ الواعيةُ والأمينةُ، فاللهُ مثلا هوَ الواضِعُ الرَّئيسيُّ للإنْجيلِ بحسبِ (لوقا)، أمّا (لوقا) فكانَ أداتَه الواعية)[3].

ولَكِنَّ هَذا التَّحْريفَ والتَّبْديلَ لم يأتِ على جَمِيْعِ عَقائدِ هاتَيْنِ الرِّسالتَيْنِ، ولَمْ يُبدِّلْ جَمِيْعَ الأَحْكامِ المُنَزَّلَةِ، لِذلكَ جاءَ في الحَديْثِ الشَّريفِ السَّابِقِ - في رِوايَةِ أبي داودَ - (ما حَدَّثَكُمْ أَهْلُ الكِتابِ فَلا تُصَدِّقوهُمْ ولا تُكَذِّبوهُمْ، وَقولوا: آمَنّا باللهِ وَرُسُلِهِ، فإنْ كانَ باطِلا لم تُصدِّقوهُ، وإنْ كانَ حَقّاً لم تُكذِّبوهُ)[4]، وبقيَت عِنْدَهُم بَعْضُ العقائدِ الصَّحيْحَة، ذاتِ الأَصْلِ الصَّحيْحِ، كَما بَقيَ لديهم

---

(١) تعاليم الدّيانَةِ المَسيْحيَّة، للصَّف الثّالث الثّانوي: ص٩.

(٢) المرجع السَّابِق، ص ١٣.

(٣) المرجع السَّابِق ص ١٣.

(٤) أبو داود في أوَّلِ كتابِ العلم، باب، رواية حديثِ أهل الكِتابِ (٣٦٤٥).

آثارٌ كَثيْرةٌ منَ الأَحْكامِ السَّماويَّةِ، ولما جاءَ الإِسْلامُ وجدَ (صَعيداً مُشْتَركاً) طيِّباً بيْنَ هَذَيْنِ الدّيْنَيْنِ وبينَ الإِسْلامِ، فسمَّاهُم القُرآنُ (أَهْلَ الكِتابِ) واتَّجه القُرآنُ الكَريْمُ في آياتٍ كَثيْرةٍ لمخالطَةِ أَهْلِ الكِتابِ لتَحريكِ نوازعِ الفِطْرَةِ والإيْمانِ في قلوبِهِم، وأَنَّهُمْ أَوْلى النّاسِ بقَبولِ الإِسْلامِ، وتصديقِ رَسولِ اللهِ ﷺ، فمن ذَلِكَ الآيةُ الجامعةُ في قولِه تَعالى: ﴿قُلْ يا أَهْلَ الكِتاب تعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إِلا اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقولوا اشْهَدوا بِأَنّا مُسْلِمونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]، ولبَّى لفيفٌ كَبيْرٌ مِنْهُم فعلا دعوةَ القُرآنِ، وانضَوى تَحْتَ ظِلالِ الإِسْلامِ، وبَقِيَ أَكثرُهم على ديْنِهِم، فعامَلَهم الإِسْلامُ معاملةً خاصَّةً، وميَّزهم على المُشركينَ من عَبدَةِ الأَوْثانِ والأَصْنامِ، ومنحَهم لقبَ (أَهلِ الذِّمَّةِ) لأَنَّ المُسْلِميْنَ أعطَوْهم ذمَّةَ اللهِ ورسولِه، وتَعاهدوا معهم بالعيشِ بسلامٍ وأَمْنٍ في الوطنِ الواحدِ، وتحتَ رايةِ دَولَةٍ واحِدَةٍ، وتحدَّدتِ العَلاقَةُ بعقدِ الذمَّةِ، وعاشوا عبْرَ التّاريْخِ الإِسْلاميّ مَعَ المُسلِميْنِ، وفِي أَرْضِ المُسْلِميْنِ إلى يَوْمِ النَّاسِ هَذا[1].

الدِّيْنُ واحِدٌ والشَّرائعُ متَعدِّدةٌ:

ولا بُدَّ من التَّنبيهِ هُنا أَنَّ دعوةَ الرِّسالاتِ السَّماويَّةِ جَميْعها ودعوَةَ الرُّسلِ والأَنْبياءِ جَميْعهم واحِدة، إِذْ هي جميعاً متَّفقة في العَقيْدَةِ أُصولا وفروعاً، وأَنَّ الأَنْبياءَ والمُرْسَليْنَ منْذُ أَوَّلِ الأَنْبياءِ والبَشَرِ (آدم)، إِلى خاتِمِ الأَنْبياءِ والمُرْسَليْنِ (مُحَمَّدٍ رَسولِ اللهِ)، كانوا يدْعونَ إِلى عِبادَةِ اللهِ وَحْدَهِ واجتنابِ الطَّواغيْتِ،

---

(١) أَلَّفَ العلامةُ ابنُ قيِّم الجوزيَةِ (ت: ٧٥٠ هـ) كِتاباً جامِعاً في بيانِ أَحْكامِ أَهلِ الذِّمَّةِ وحقوقِهم بعنوانِ (احْكامُ أَهلِ الذِّمَّةِ) حقَّقه الدكتور صبحي الصّالِح، وطبعتْه جامعةُ دمشقَ سنة (١٩٦١م)، كَما أَلَّف الأُستاذُ الدُّكتورَ عبدُ الكريم زيدان رِسالَة دُكتوراه في هَذا الموضوع، بعنوانِ (أَحْكامُ الذِّمِّيِّينَ والمُستأمَنينَ في دارِ الإِسْلامِ) طبعت في بغداد سنة (١٩٦٣م).

والاستسلام للهِ وَحْدَهِ، وعَدَمِ الإشْراكِ بهِ، والدُّخولِ في عبادتِه وطاعتِه، والإيْمانِ بملائكتِه وكُتُبه ورُسُلِه واليَوْمِ الآخرِ وبالقَضاءِ خَيْرِه وشَرِّهِ مِنَ اللهِ تَعالى.

قال تَعالى: ﴿ولَقَدْ بَعَثْنا في كُلِّ أُمَّةٍ رَسولاً أَنِ اعْبُدوا اللهَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقالَ تَعالى: ﴿إِذْ جاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيديهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلّا تَعْبُدوا إلا اللهَ﴾ [فصلت: ١٤]، وَقالَ تَعالى: ﴿إِنِ الحُكْمُ إلا للهِ أَمَرَ أَلّا تَعْبُدوا إلا إِيّاهُ﴾ [يوسف: ٤٠]، وقالَ عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَضى رَبُّكَ أَلّا تَعْبُدوا إلا إِيّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقالَ تَعالى: ﴿آمَنَ الرَّسولُ بِما أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ والمُؤْمِنونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقالوا سَمِعْنا وَأَطَعْنا غُفْرانَكَ رَبَّنا وَإِلَيْكَ المَصيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وَلَكِنَّ هَذِهِ الرِّسالات تَختَلِف فيما بَيْنَها في الأَحْكام التَّشْريْعيَّةِ التي أَنْزَلَها اللهُ تَعالى لِتَحقيْقِ مَصالِحِ النّاسِ في الدُّنْيا والآخِرَة، وَبِما يُصْلِحُ مَعاشَهم ومَعادَهم، ولَمّا كانتِ المَصالِحُ تَخْتَلِفُ مِنْ قومٍ إلى قومٍ ومن أُمَّةٍ إلى أُمَّةٍ، ومن مُجْتَمعٍ إلى آخرَ، ومنْ زمانٍ إلى زمانٍ، ومن مكانٍ إلى مكانٍ، فاقتضَتْ حِكْمَةُ اللهِ تَعالى أَنْ يُشَرِّعَ للنّاسِ ما يُناسبُهم في ذَلِكَ، فاختلفَتِ الأَحْكامُ في بَعْضِ جَوانِبِها، وتَعَدَّدَتِ الشَّرائعُ السَّماويَّة، وهَذا ما يُعرفُ بـ(**وحدَةِ الأَدْيانِ وتعدُّدِ الشَّرائع**)، إلى أَنْ نسخَ اللهُ تَعالى جَميْعَ الشَّرائع السَّابقةَ بالإسْلامِ، وجعلَه الدِّيْنَ الخالِدَ، والشَّريْعَةَ الباقيَةَ إلى يَوْمِ الدِّيْنِ، واختارَه اللهُ لعِبادِهِ، ورَضيَه لَهُمْ ديْناً، لقوله تَعالى: ﴿اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتي وَرَضيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ ديناً﴾ [المائدة: ٣].

صعوبَةُ البَحْثِ في تاريخ الأَدْيانِ:

تاريخُ الأَدْيانِ بحثٌ شائقٌ واسعٌ يقتضي تكريسَ الجهدِ لوضعِه الوضعَ الصّالِحَ، والأَدْيانُ كَثيْرَةٌ لا يُمْكِنُ حَصْرُها في بحثٍ كبحثِنا الموجزِ هنا، ولا في

أوْسعَ منهُ.

ولَو كانَ هناكَ مُتَّسعٌ من الوَقْتِ لأمْكَنَ البَحْثُ عَنْ الدّياناتِ الابتدائيَّةِ مِنْ طَوْطَميَّةٍ وغيرِها.... وعنِ الدّياناتِ التي تُعْبَدُ فيْها مَظاهِرُ الطَّبيعَةِ والحَيواناتِ والنَّباتاتِ والجَمادات، لكنَّا سنقتصِرُ في بَحثِنا هَذا على الأدْيانِ التي تأخُذُ مِنْ مَعيْنٍ مُتَشابِهٍ...، تلكَ هيَ الأدْيانُ التي تنظُرُ إلى الإلهِ على أنَّهُ ربٌّ مجرَّدٌ عَنْ الكائناتِ الحيَّةِ والجَمادات والظّواهِرِ الطَّبيعيَّةِ، وهَذِهِ الدّياناتُ هي: (اليَهوديَّةُ، وفكَرةُ أخْناتون، والزَّرادشتيَّةُ، والمَسيْحيَّةُ والبوذيَّةُ، والكَوْنفشيَّةُ...) ومَا يَتْبَعُها منَ الأدْيانِ.

قُلْنا إنَّ البَحْثَ عَنِ الدّياناتِ عامَّةً صعبٌ، ونعودُ فنقولُ: إنَّ بَحثَنا هَذا ما هوَ إلا مُقَدِّمةً وابتداءً، فيجِبُ أنْ يستَمِرَّ البَحْثُ، وأنْ يوسِّعَ، وأنْ يَكونَ أدقَّ وأحكمَ.

وسوفَ نبحثُ هنا الأدْيانَ الكِتابيَّةَ أوْ المُنَزَّلَةَ، وهما الدّيْنُ اليَهوديّ، والدّيانَةُ النَّصْرانيَّة، وذَلِكَ في فصْلَيْنِ.

الفصل الأول

الدِّيانة اليَهوديَّة

- أولاً - التاريخ اليهودي
- ثانياً - الكتبُ المقدَّسةُ لليهودِ
- ثالثاً - أَنبياءُ اليهودِ
- رابعاً - الرَّبانيُّونَ وعقيدة اليوم الآخر
- خامساً - الشريعة واليهود
- سادساً - فرق اليهوديَّةُ المعاصرَة
- سابعاً - الحركةُ الصُّهْيونيَّة

مدخل

الدِّيانةُ اليَهوديَّةُ أقدَمُ دينٍ من النَّوعِ الذي نُريْدُ أنْ نَبْحثَ فيه...

ويعْرِضُ لبحثِنا عَنْ اليَهوديَّةِ صُعوباتٌ، فاليَهوديَّةُ كَما نعلَمُ أُوحيَتْ إلى أنْبياءِ بَني إسْرائيْلَ ديانَـةً توحيديَّةً، غيرَ أنَّ اليَهـودَ أنْفُسَهُم لم يَكونـوا في كُـلِّ عُصـورِهم موَحِّدينَ ولَمْ يأخذوا بالتَّوْحيْدِ دوْماً، ومِنْ هُنا يَبْدو بَعضُ الالتِباسِ.

ثمَّ إنَّ اليَهوديَّةَ في تَطَوُّرِها مَعَ الأنْبياءِ ديانَةٌ فيْها ناسِخٌ ومنسوخٌ، أوْ فيْها أشْياء جَديْدَة تُضَمُّ إلى القَديْمِ، لكنَّ اليَهودَ لا يعتَرِفونَ بالنّاسخِ والمَنسوخِ، ولا يَعْتَرِفـونَ بالضَّمِّ.

وعرْضُ تدرُّجِ الدّيانَةِ اليَهوديَّـةِ خِلالَ التّاريْخِ صعْبٌ وشاقٌّ، لأنَّنا لا نَتبيَّنُ كلَّ التَّبيُّنِ مَراحِلَ التّاريْخِ بوضوحٍ، وليسَ عنْدَنا في الأبْحاثِ التي كَتَبَهـا أهـلُ المِلَلِ والنِّحلِ فِكْرَةٌ واضحَةٌ عَنْ تـاريخِ اليَهوديَّـةِ، وعلَيْنـا في مُعْظَمِ الأدْيـانِ أنْ نرجِعَ إلى عُلَماءِ الأدْيانِ المُقارنَةِ الذين ينظرونَ إلى الأديانِ لا عَلى أنَّها سماويَّة موحى بها مـنَ اللهِ سبحانه وتَعالى، بَلْ مِنَ صُنْعِ البَشَرِ، هَذا وأقْوالُهم مَبْنيَّةٌ على الشَّكِ والرِّيْبَةِ ووجودِ الاحْتِمالِ، فليْسَتْ إذاً عِلْميَّة صرفَة، على أنّنا يَنْبَغي أنْ نَستَفيدَ مِنَ الأشْياءِ الثَّابتَةِ التي أظْهرَها التّاريْخُ في اكتِشافاتِهِ وحَفْرياتِـهِ، وبكـلِّ ذَلِكَ ينفَتِحُ أمامَنا بـابُ السُّؤالِ كَبيْراً، والصُّعوباتَ تَتْرى في ذَلِكَ.

ولِكي يَكونَ البَحْثُ واضحاً لا بُدَّ لنا:

= مِنْ ذِكْرِ جانبٍ مِنْ تاريخِ اليَهود في تَطوراتِه السِّياسيَّةِ والاجتماعيَّةِ.

= ثُمَّ عَرْضِ الكُتُبِ المُقدَّسَةِ التي يَعتَمِدونَ عليها.

= ثُمَّ ذكْرِ أنبيائهم، مُبتدئينَ بإبراهيمَ عليه السلام فموسى عليه السلام فالآخرين.

= ونَذْكُرُ خِلالَ ذَلِكَ عَقيْدَتَهُم وَما آلَتْ إلَيْهِ فكرتُهم عَنْ اليَوْمِ الآخِرِ.

= ثُمَّ نَشْرَحُ عاداتِ اليَهودِ وشَرْعَهُم.

= ثُمَّ نَعْرِضُ لِفِرقِهِم والإِصْلاحِ الذي تَناوَلَه بَعْضُ مُصلحيهِم في القَرنِ الثَّامنِ عَشَر.

أولاً - التّاريْخ اليَهوديّ:

يَنْسُبُ اليَهودُ أَنْفُسَهُم إِلى (إِسْرائيْلَ) فيقولون عَنْ أَنْفُسِهُم: إِنَّهُمْ إِسرائيليونَ، وإِسْرائيْلُ هو (يعقوبُ بْنُ إِسْحاقَ بْنِ إِبراهيمَ) فلـ(يعقوبَ) اسمان هما: (إِسْرائيْل) و(يعقوب)، ويقالُ للإِسرائيليينَ أيضاً (يهود) و(عِبْريّونَ) فإبراهيمُ على هَذا هوَ جدُّ اليَهودِ، وفي الوَقْتِ نفسِه هوَ جدُّ (العربِ المستَعْرِبَة) إسماعيل ابن إبراهيمَ، وإبراهيمُ عليه السلام هوَ ابن (تارِح) وكانَ أبوه يَسكنُ (قُوْر) مِنْ كَلْدان، ثُمَّ انتَقَلَ وابنُه إلى (حرَّان) فأقاما فيها، وهناك عَرفَ إبراهيمُ ربَّه، وتلقّى منه كَلماتٍ، ووَعْداً لشعبِه بالأَرْضِ المُقَدَّسَةِ، فسُرَّ لِهَذا الوَعدِ وتَرَكَ حرَّانَ...

ثُمَّ إِنَّ قسماً من اليَهودِ استقرُّوا في (غوش) شَمالِ شرقيِّ مصر، وانتشَروا فيْها وَمَضى عَلَيْهِم الزَّمنُ فاضطهدَهم (رَعْمسيس الثاني) كَثيْراً حَتَّى قادَهُم موسى إلى خارجِ مِصْرَ إِلى الأَرْضِ الموعودَةِ.

ثُمَّ إِنَّ اللهَ تَعالى أَلْقى بكلماتِهِ إِلى موسى عَلَيْهِ السَّلامُ في طورِ سيناءَ، فأتى بها قومَهُ... لكنَّ قسماً مِنْهُم لم يتَّعظْ بها وخالفَها وامتدَّ بهم التِّيهُ عَدداً كَبيْراً من السِّنين... ثُمَّ إِنَّهم وَجَدوا أَنْفُسَهُم في حالَةٍ يَسْتَطيعونَ فيْها الهُجومَ على (كَنْعان) التي كانت تُقيمُ ما يُعرفُ اليَوْمَ بأَرْضِ (فِلِسطيْن) وفتَحوها واستقرُّوا فيها...، إلا أَنَّهُمْ حاربوا عِنْدَ ذَلِكَ عَدواً لَدوداً، حاربوا الفلسطينيينَ لمدَّةٍ طويلةٍ...، وأرادوا أَنْ يَكونَ عَلَيْهِم مِلكٌ يقودُهم، فأصبَحَ ملكُهُم (شاؤول)[1] وحاربَ الفلسطينيينَ وأَفْلَحَ في أَوَّلِ الأَمْرِ، لَكِنَّهُ عادَ فهُزِم أمامَهم واستَوْلى على الحُكمِ مكانَه (داوود)

---

(١) وقد وردت تسميتُه في القرآن الكريم (طالوت).

فحاربَ الفلسطينيينَ، وقتَلَ جالوتَ، وحكمَ اليَهودَ، ثُمَّ خلَفَه ابنُه سليمانُ، وتوسَّع الملكُ في عهدِ سليمانَ توسُّعاً كَبيْراً، وكثُرتِ الأموالُ، وبنى (سليمانُ) الهيْكَل...

بَعْدَ وفاةِ سُليمانَ أصابَ الوهَنُ إسْرائيْلَ، فانقَسَمَتْ قسمينِ؛ قسم في الشّمالِ، وقسم في الجنوبِ: أمّا دولة الشّمالِ: فسُمِّيَت (دولة إسْرائيْل). وأمّا دولة الجنوب: فسُمِّيَت (دولة يهوذا).

وَكانَت دولةُ الجنوبِ أقْوى من دولةِ الشمالِ ... واستمرَّ القتالُ بيْنَ الدَّوْلَتَيْنِ خِلالَ قَرنينِ مِنَ الزَّمَنِ، وفي عام (٧٢٢ ق.م) افتتحَتْ يَهوذا دَولَةَ إسْرائيْلَ، ودَخَلوا عاصِمَتَها، ونُفيَ أكثرُ أهْلِها، وحصلَ تَوْحيْدٌ بيْنَ المملكتينِ غيرَ أنَّ يَهوذا ما لبثَتْ أنْ وقَعَت تَحْتَ نيْرِ (الآشوريِّينَ) ثُمَّ (المِصْريِّين) وهدمَ (البابليونَ) هَيْكَلَ سُليمانَ العَظيم، وفرَّ الشَّعْبُ اليَهوديُّ من أرْضِه، ولَمْ يعُد الإسرائيليونَ إلَيْها إلا في عَهدِ (قورش) وأصْبَحوا أقْوياءَ في عهدِ اليونانِ، على أنَّ القُدسَ هُدِمت عام سبعين للميلاد (٧٠م).

ومن ذَلِكَ التّاريْخ بَدأَ الرَّبانيُّون يَبْحَثونَ ويَدْرُسُونَ ويَضَعونَ قواعِدَ الدّيانةِ، وتشتَّتَ اليَهودُ بَعْدَ ذلكَ، ففرَّ قسمٌ مِنْهُم إلى غربِ أُوربا، واستقرُّوا فيْها، وازدهرَ شأنُهُمْ، وأخذوا بالبَحْثِ والفَلْسَفَةِ، ولقوا في الأندَلس (إسبانيا) في عهْدِ المُسْلِمِيْنَ خاصَّةً في القرن (٩ - ١٢) الميلادي حرِيَّةً وتَسامُحاً شَديداً، فتقدَّمَت الدِّراسةُ عندَهُم، ولَمَّا بدأَتْ الحروبُ الصَّليبيَّةُ، لقيَ اليَهودُ اضطهاداً شديداً في جَميْعِ أنْحاءِ العالمِ الغربيِّ لاسيَّما في إسبانيا بَعْدَ أن احتَّلها المَسيْحيونَ، فقُتِلَ من اليَهودِ في القرنِ الخامسَ عشرَ الميلادي مئةُ ألفِ شخصٍ، وطُرِدَ اليَهودُ من إنكلترا عام (١٢٩٠م) ومن فَرَنْسا وإسبانيا والبرُتغالِ، وفُرِضَتْ القَوانيْنُ القاسيةُ عليهم:

= فلا يَسْتَطيعونَ أنْ يَمْلِكوا الأرْضَ.

= ومنعوا من مُمارَسَةِ بَعْضِ الحرف الحرَّةِ، فاضطروا للعَملِ بمهنٍ لا قيمَةَ لها.

وعاشوا بالذُّلِّ والحرمانَ وكانَ الذينَ يُنْفَونَ يَلْجؤونَ إلى الممالكِ الإسْلاميَّةِ، ولجأ قسمٌ مِنْهُم إلى (بولَّندا) كَما هربَ اليَهودُ الألمانُ إلى (بولَّندا)، فقاسوا فيْها أشدَّ الويلاتِ، واضطهدوا أنَّى حلُّوا إلا في البلادِ الإسْلاميَّة، على أنَّ أفْكارَ الثَّوْرَةِ الفَرنسيَّة والثَّوْرَة الأمريكيَّةِ عزَّزت مَوْقِفَهم، وأعادَت إليْهم بَعْضَ حرِّيتِهم فعادوا يَعْمَلونَ، واستفادوا مِنَ النِّظامِ الرَّأسماليِّ، فقَويَ أمْرُهم أمَّا في روسيا فإنَّهم لم ينالوا حقَّهم إلا بعدَ الثَّورةِ البلشفيَّةِ (١٩١٧م) على أنَّهُمْ ظَلّوا فيْها غيرَ قادرينَ على مُمارَسَةِ شَعائرِ دينِهم حقَّ المُمارَسَةِ، وأسَّسَ السُّوفييت الرُّوسُ لليهودِ دولةً يهوديَّةً في (بيروبيجان) (١٩٣٤م).

أدَّى تحرُّر اليَهود إلى بروزِ حركتينِ مُختَلفتين نَزْعة صُهْيونيَّة، ونَزْعة إصْلاحيَّة، وتحاربت النَّزْعتانِ، إحْداهُما مَعَ الأُخْرى، وفي عَهْدِ (هتلر) اضطِهدَ اليَهودُ وضُيِّقَ عَلَيْهِم الخناقُ، ويقالُ إنَّهُمْ في أثناءِ الحرب العالميَّةِ الثانية قَتَلَ هتلر منهم شَنْقاً وإعداماً وذَبْحاً من خَمْسَةِ ملايين نسمة إلى ستَّةِ مَلايين[1].

ويظْهَرُ مِنْ هَذا البَحْثِ أنَّ اليَهودَ اضطهدوا في أنْحاءِ العالمِ إلا في بِلادِ المُسْلِميْنَ، فَقَدْ رأوا فيْها الحريَّة والسَّلامُ... هَذِهِ البلادُ التي عامَلَتْهُم بالإحْسانِ هيَ البلادُ التي وجَّهوا سهامَهم إليها، فاستولوا عَلَى بَعْضِ أراضيها (فلسطين)، ومثَّلوا بأهليها قَتْلا وسَفْكاً وانتِهاكاً وتنكيلا، فَكانوا أسوأ مثلٍ لنُكرانِ الجميلِ.

ثانياً - الكُتُبُ المُقَدَّسَةُ لليهودِ (العَهْدُ القَديْم - تَناخ):

قَبْلَ أنْ ندخُلَ في البَحْثِ عَنْ اليَهود يَنْبَغي أنْ نأخذَ فكرةً عَنْ الكُتُبِ المُقَدَّسَةِ

---

(١) فيما عُرِفَ تاريخيّاً بـ(الهولوكست) على أنَّ بعضَ الدِّراساتِ الجادَّة أنْكرَتْ وجودَ الهُلوكوسْت.

التي يتَّخذُها اليَهودُ، وأنْ نعرفَ كيفَ تمَّ جُمْعُها، وَما هيَ أجْزاؤها ومَوضوعاتُها، فيُمْكِنُ دِراستُها من حيثُ (العَقيْدَة، والعِبادَة، والأخلاق) دِراسةً عِلْميَّةً، فعَقيْدَة اليَهود وتاريخهم ورِسالَةُ أنبيائهم تَظْهَرُ واضحةً في الكُتُبِ المـُقَدَّسَةِ، والكُتُبُ المُقَدَّسَةُ حَتَّى يومنا هَذا مَعيْنٌ فيَّاضٌ للبَحْثِ عَنْ الدّيانَةِ اليَهوديَّةِ وتاريخها، وهي مصدرٌ أوَّل في ذَلِكَ، وتكادُ تَكوْنُ أعظَمَ المَصادِرِ وأوْسعَها.

والأسْفارُ المـُقَدَّسَةُ عِنْدَ اليَهود جُمِعَتْ مَعَ الأناجيْلِ، فكوَّنت ما يُسمِّيه المَسيْحيونَ بـ(الكِتابِ المُقَدَّسِ = BIBLE)، فالكِتابُ المُقَدَّسُ إذن قسمان:

١- العَهْدُ القَديْمُ (Testament Old) ويسمِّيه اليهود (تَناخ = Tanakh)

٢- العَهْدُ الجَديْدُ (Testament New)

والعَهْدُ القَديْمُ هوَ الذي يهمُّنا في بحثِنا عَنْ الدّيانَةِ اليَهوديَّةِ لأنَّ فيه كُتُبهم المُقَدَّسَة، وهَذا العَهْدُ القَديْمُ ليسَ بيْنَ أيدينا نسخة منه ترجِعُ إلى المَصادِرِ الأُوْلى التي أخذ منها، فلا شيءَ من عهْدِ موسى عَلَيْهِ السَّلامُ، ولا شيءَ من عهدِ الأنْبياءِ الآخرين لليهودِ، وإنَّما جُمِعَ العَهْدُ القَديْمُ في أوقاتٍ متأخِّرةٍ عَنْ عهدِهم، وجُمِعَ جَمْعاً مختلفاً وبين أيْدينا اليَوْمَ العَديدَ من النُّسخِ، ثلاثُ نسَخٍ منه مأخوذٌ بها عِنْدَ اليَهودِ والنَّصارى، تختَلِفُ كلُّ نسخَةٍ منها عَنْ الأُخْرى:

= السبعينية (Septuagint): تسمى (السَّبْتاجنت) وهي ترجمةٌ يونانيَّةٌ نُقِلَتْ من اللُّغةِ العبريَّةِ في القرنِ الثالثِ قَبْلَ الميلادِ، وهي تتضمَّن الشَّرْعَ اليَهوديَّ بصفةٍ خاصَّةٍ دونَ تاريخِ اليَهودِ. وكانَتْ تُقْرأُ في الكَنائسِ القَديْمَةِ في العُصورِ النَّصْرانيَّةِ الأُوْلى.

= الفولغاتا (Vulgate): (الشَّائعة أو الدَّارجة) وقد جَمَعَ هَذِهِ النُّسخَة (سان جيروم ت: ٤٢٠م) جَمَعَها باللُّغةِ اللاتينيَّةِ، وهي تختلِفُ عَنْ الماسورةِ كلَّ

الاختلافِ، وتُقارِبُ بَعْضَ المُقارَبةِ النُّسخَةَ الأُوْلى التي تأْخُذُ بِها الكنيسةُ المَسيْحيَّةُ من غيرِ البروتستانت، أمّا البروتستانت فعدُّوها مَنْحولَةً، وجَعَلوها ذَيْلا للماسورةِ، وسمَّوْها بالعَهْدِ المنحولِ (أبوكريفا = **Apocrypha**).

= الماسورة (**Masoretes**): (المستلمة) وجُمِعَتْ ما بين القرنيْنِ السَّادسِ والعاشرِ الميلاديينِ، وأقدمُ مَخطوطةٍ مَوجودة لها وجِدَتْ في حلبَ، وترجِعُ إلى القرنِ العاشرِ الميلاديِّ، وتتضمَّنُ هَذِهِ النُّسخَةُ نصَّ العَهْدِ القَديْمِ بكامِلِهِ باللُّغةِ العِبْريَّةِ. وتخْتلِفُ هَذِهِ النُّسخَةَ عَنْ الأُوْلى (السَّبْتاجنت) كلَّ الاختلافِ في ترتيبِها وفي نُصوصِها، وهيَ نسخَةٌ معترفٌ بها عِنْدَ اليَهودِ، ومعترفٌ بها عِنْدَ البُروتستانت من النَّصارى.

هَذِهِ النُّسَخُ الثلاثُ مِنَ العَهْدِ القَديْمِ تخْتلِفُ كَما ذَكَرْنا - في نصِّها، وفي تركيبِها، وفي أقْسامِها - وسنبحث الآن جرياً على هَذا الترتيب وأقسامِه، وسنأْخُذُ فيه بِما يَقولُ اليَهود التَّقليديّونَ.

ينقسم التَّناخ[1] إلى ثَلاثَةِ أقسامٍ (التَّوراة - أسْفار الأنْبياءِ - الكِتابات)

١- **التَّوْراةُ**: وهي تنقسم إلى خَمْسَة أسْفارٍ، وفي هَذِهِ الأسْفار تاريخُ اليَهودِ وشريعتُهم المُنَزَّلَة، والقُرْآنُ الكَريْمُ يشير إلى التَّوْراةِ كَثيْراً، ويقصِدُ بها هَذِهِ الأسْفار الخَمْسة على الأخصِّ، وقليلا منْ غيرِها، أمّا الأسْفارُ الخمسةُ فهي:

أ- سِفْرُ التَّكْويْنِ: وفيه تاريخُ بَدْءِ الخَليقَةِ، وتاريخُ العالمِ حَتَّى عهدِ النَّبيِّ يوسف عَلَيْهِ السَّلامُ. فَهوَ إذاً سفرٌ تاريخيٌّ فيه عِبرٌ وأقاصيص.

ب- سِفْرُ التِّيهِ أو الخُروجِ: (اكسود يوس) وفيه تاريخُ اليَهودِ منْ خُروجِهِم مِنْ مِصْرَ حَتَّى اليَوْمَ الذي لقَّنهُم فيه موسى شريعَتَه، وفي هَذا السِّفر مُختَصرُ

---

(١) في أحدِ التَّقسيماتِ، وهو ما ذكرته دائرة المعارف البريطانية.

الشَّريْعَةِ، وبيانُها الموجَز العام.

ت- سِفْرُ التَّوابينَ أوْ اللاويين: وهَذا السِّفرُ يَحوي على وجْهِ الإجْمالِ والتَّقريبِ (العبادات - والأخلاق - والنكاح...) وَما شابه ذَلِكَ مِنْ شَرْعِ اليَهودِ.

ث- سِفْرُ الأَعْدادِ: وفي هَذا السِّفرِ سَردٌ لتجوُّلِ إسْرائيْلَ في الصَّحراءِ، وغزوهِم كَنْعانَ، وتقسيمُ الأراضي بَيْنَهُم وتَعْدادُهم.

ج- سِفْرُ تَثنيةِ الاشْراعِ: وهو عرضٌ تاريخيٌّ سريعٌ، ونصائحٌ أخلاقيَّةٌ، وتَشْريْعاتٌ خاصَّةٌ، وتبريكُ موسى لقومِهِ ثُمَّ وفاتِهِ.

٢ - **أَسْفارُ الأَنْبياءِ**: وأسْفارُ الأنْبياءِ أَقَلُّ قدسيَّةٍ من التَّوراةِ عِنْدَ اليَهودِ، وهي تتضمَّنُ أَسْفارَ أنبيائهِم، مثل أسْفارِ: (يشوع - والقضاة - والمُلوكِ - وراعوث - وصمويل...) وعَدَدُها ثَمانيَةُ أسْفارٍ.

٣ - **الكِتاباتُ**: والكِتاباتُ هيَ نُصوصٌ شِعْرِيَّةٌ أو تاريخيَّةٌ مُختلفةُ الاتِّجاهِ في شَكْلِها، وأهَمها (**الزَّبورُ**)، وغير ذَلِكَ من الآثارِ.

ولليهودِ كِتابٌ آخر هوَ: (**التَّلْمودُ**) ويعدُّونَهُ الشَّرْعَ الشَّفَهيَّ الذي جُمِعَ فيما بَعْدُ، وأُضيفَتْ إلَيْهِ شُروحُ الرَّبَّانيِّينَ وأعْمالَهُمْ وأَقْوالُهُمْ وتَحْليلاتُهُم للكِتابِ المُقدَّسِ. وهو يعدُّ كذلك كِتاباً مقدَّساً عند (اليَهودُ الأَرْثوذكس). وله نسختان مختلِفتان اختِلافاً كبيراً، هما: (التلمود البابلي) - وهو المقصود عند الإطلاق - و(التلمود الأورشليمي).

ثالثاً - أَنْبياءُ اليَهودِ:

نتكلَّم هنا عَنْ أَنْبياء إسْرائيْل خاصَّةً، لكنَّا نُقدِّمُ لذلكَ بحثاً عَنْ نبيٍّ لم يَكُنْ يهوديّاً وإنَّما كانَ حنيفاً وَهوَ (إبراهيمُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ):

أ - **إبراهيم عليه السلام**: كانت فكرَةُ مؤرِّخي الأديانِ العلميَّة - أي غيرِ

الدِّينيَّةِ - بأَنَّ شخصيَّةَ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ شخصيَّةٌ خياليَّةٌ لا يؤيِّدُها التّاريْخُ، غيرَ أنَّ هَذا الرَّأي الذي ينطلِقُ مِنْ عَدَمِ الاعترافِ بالرِّسالاتِ السَّماويَّةِ تبيَّنَ أنَّهُ غيرُ صحيحٍ ومُجانبٌ للصَّوابِ، نَتيْجَةً لدراسةِ عالمٍ كَبيْرٍ يسيرُ على الطَّريْقةِ العِلْميّةِ اللادينيَّة نفسِها، وَهوَ العالم (**ليوناردو وللي**).

تبيَّن لَهُ ذَلِكَ وَهوَ يَدْرُسُ التّاريْخَ في أَرْضِ الجزيرةِ - شَمال شَرقي سوريَّة - وقد عرَفها وعرَفَ وَضْعَ الكَلْدانييّنَ، واستمرَّ عَدداً من السِّنينِ يُحقِّقُ ويتتبَّعُ، فاهتدى أخيراً إلى أنَّ شخصيةَ إبراهيم هيَ شخصيَّةٌ حقيقيَّةٌ، ونَشرَ ما انتهى إِلَيْهِ بحثُه عام (١٩٣٦م) في كتاب أَسْماهُ (اكتشافاتُ تاريخ إبراهيمَ والدِّيْنِ اليَهوديِّ) وإنّنا نتَّبعُ بحثَهُ في ذَلِكَ مَعَ بَعْضِ الاستطراد والشَّرح فنقولُ:

كانَ أهلُ بابلَ يَعْتَقِدونَ بمظاهرِ الطَّبيعَةِ، ويؤمنونَ خاصَّةً بإلهٍ يسمونه (نَنّار) وَهوَ إِلَهُ القمرِ، وَكانَت عِبادَةُ الأَوْثانِ منتشرةً في الهلالِ الخصيبِ، تلكَ العِبادَة التي تجعلُ للربِّ صفَةً ماديَّةً، فَهوَ يتمثَّلُ بمظهرٍ من مَظاهرِ الطَّبيعَةِ، أَوْ وَثنٍ مِنَ الأَوْثانِ، هَذِهِ العِبادَةُ كانت مُنْتَشِرةً حينما كانَ أبو إبراهيمَ وإبراهيمُ في (أُور)، وحينما انتَقَلا إلى (حرّانَ)، يَقولُ (وللي): إنَّهما لعلَّهما هناك كانا يؤمنانِ بـ(**الإلهِ نَنّار**)، وحدثَ في عهدِهما حوادثُ غَيَّرَتِ الآراءَ، وجعلتْ نَفْسَ إبْراهيمَ تمجُّ عِبادَةَ الأَوْثانِ، ذَلِكَ أنَّ الكَلْدانييِّنَ هُزموا في حروبِهم، وكانوا في حالةٍ سيِّئةٍ، وهُزِمتْ آلهتُهم التي يؤمنونَ بها... فنظرَ إبراهيمُ فوَجَدَ أنَّ آلهتَهُ غير قادِرةٍ على أمْرِها، فنبذَها وصارَ يَبْحَثُ عَنْ إلَهٍ يوفي حقَّ الفِكْرَةِ السّاميةِ التي يجدُرُ أنْ تُنْسَبَ للإلَهِ، فسمِعَ صوتَ الوَحيِ، فأُوْحيَ إِلَيْهِ بوجودِ الإلهِ الواحدِ الأحدِ.

ويشرحُ (وللي) تصوُّرَ إبراهيمَ للإلهِ الجَديْدِ، فإذا بتلكَ الفِكْرَةِ تُعْطيْنا ثلاثَ صفاتٍ جَديْدَةٍ للإلهِ هيَ:

١- أنَّ (يهوا) - أي الله - إلَهٌ مجرَّد لا تَمثيلَ ماديّ لَهُ، فليسَ حَجراً ولا

حَيواناً ولا مَظهراً من مَظاهِرِ الطَّبيعَةِ، إنّما هوَ مُنزَّهٌ عَنْ المادَّةِ مُمثَّلٌ في الأذْهانِ، وَهوَ خالِقٌ يخلقُ بكلِمةٍ مِنْهُ، فيَقولُ للشَّيءِ (كُنْ) فيكونُ، وَهوَ يتصرَّفُ بمَخْلوقاتِه كيف يَشاءُ.

٢- إنّه إلَهُ عدْلٍ وخيرٍ، فَهوَ حَريصٌ على مَصْلَحَةِ إبْراهيمَ، وَهوَ حريصٌ على الخَيْرِ كلِّه إذ هوَ يحضُّ عَلَيْهِ ويدعو إلَيْهِ وإلى فعلِهِ.

٣- إنَّهُ يُعطي للإنْسانِ فرديّتَهُ وشخصيَّتَهُ، فلا يفعلُ كالأرْبابِ الذينَ يهتَّمونَ بصورَةٍ خاصَّةٍ بالقبيلةِ نفسِها دونَ أفْرادِها، والذينَ يهتَّمونَ بحوادِثِها جَميْعِها وأفرادِها جَميْعِهم دونَ شخصٍ مُعيَّنٍ، إنَّهُ إلَهُ إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ، وإبراهيمُ خليلُ (يهوا).

وكذلِكَ تَظْهَرُ الشَّخْصيَّةُ الإنْسانيَّةُ منفَرِدَةً عَنْ القبيلَةِ، لها قيمتُها الخاصَّة كَما ظَهَرَتْ شخصيَّةُ الإلَهِ مُنفَردة عَنْ المادَّةِ ومظاهِرِ الطَّبيعَةِ.

هَذِهِ الصِّفاتُ الثَّلاثُ هيَ أهَمُ تَقَدُّمٍ للبَشَريَّةِ، فَقَدْ دَخَلَتْ الإنْسانيَّةُ في صراطٍ جَديْدٍ هوَ صراطُ التَّجريدِ والخَيْرِ والشَّخْصيَّةِ الفرديّةِ.

وتقولُ التَّوْراةُ التي بيْنَ أيدينا - ويوافِقُها وللي -: إنَّ إبْراهيمَ وَضَعَ عادةَ الخِتانِ، وميَّزَ بِهَذِهِ العادَة أتْباعَه عَنْ غيرِهم.

ب - **موسى عليه السلام**: ومَضى زمنُ اليَهودِ بَعْدَ أنْ نزلَ الوَحيُ على إبْراهيمَ فلم يَعودوا يُدْرِكونَ ما كانَ يُقرِّره لَهُمْ إبْراهيمُ عَنْ (يهوا) إنَّهم عَرفوا اسم (يَهْوا) وعرفوا أنَّهُ إلهٌ، لَكِنَّهُم كانوا يَعْتَقِدونَ أنَّهُ إلَهُ (إسْرائيْلَ) كَما يؤمنُ غيرُهم بأرْبابِهم، وكانوا يَعْتَقِدونَ أيْضاً أنَّ الآلِهَةَ الأُخْرى مَوجودة ولها قوَّتُها، إلا أنَّ يَهْوا هوَ إلَهُ إسْرائيْلَ، يساعدُها ويقوِّيها، وجاءَ موسى عَلَيْهِ السَّلامُ بشرْعِه وهوَ قائدٌ كَبيْرٌ يَسْتَطيعُ أنْ يقودَ النّاسَ وَراءَهُ بقوَّةٍ وحكمةٍ ومعْرفَةٍ، وخَرَجَ ببَني إسْرائيْل مِنْ مِصْرَ، وكانَ (رعمسيس الثاني) يضطهِدُهم كَثيْراً، ثُمَّ إنَّهُ تَلقَّى وحيَه في طورِ سيناءَ

على نارِ العَوْسَجِ، وعادَ (بألْواحِه) وفيها قانونُ شَرْعِه، وَهوَ قانونٌ يحوي الفِكْرَةَ الخالِصَةَ عَنْ اللهِ، وعنِ القانونِ الجَزائيّ والشَّرْعِ التَّعبُّديِّ، ومادَّة ذَلِكَ نَجِدُها في السِّفرَينِ الثاني والثالثِ مِنَ العَهْدِ القَديْمِ، وكانَ هَذا الشَّرْعُ الدّيانَةَ اليَهوديَّةَ بالإضافَةِ إلى شَرْعِ إبْراهيمَ عَلَيْهِ السَّلامُ.

جـ - **أنْبياءٌ آخرون**: وَلَمْ يأخذِ اليَهودُ جَميْعاً بفكرَةِ موسى، وَلَمْ يَفْهَموها كلّهم حقَّ فهمِها، بَلْ إنَّ مِنْهُم من خَرَجَ عليها، ومنهم من اعتقَدَ الآلِهَةَ الآخرينَ للأممِ الأُخْرى أرْباباً، ولا ريبَ أنَّ اليَهودَ كانوا يَعْتَقِدونَ أنْ (يهوا) إلههم، وأنَّهُ قادرٌ عَلى كُلِّ شَيْءٍ، وَلَكِنَّ قسماً كَبيْراً مِنْهُم يعتقِدُ أنَّ الآلهةَ الآخرينَ للشُّعوبِ الأُخْرى آلهةٌ، فَكانوا يَخْشَونَ هَذِهِ الآلهة ويَطلُبونَ العونَ من إلَهِهِم (يهوا) أمامَها، ويتلقَّونَ إشاراتِه عَنْ طَريْقِ الأحْلامِ وغيرِ ذلكَ.

وأُصيبوا في تاريخِهم بِما رأيْناهُ من ذي قَبْل، فتفرَّقوا دوْلَتَين (شماليَّة، وجنوبيَّة) ووقعتِ الحربُ بيْنَ الدَّوْلَتَيْنِ، وكانَ الأنْبياءُ يَظْهَرونَ بيْنَ الآونَةِ والأُخْرى في هَذا الشَّعْبِ المضطربِ فيَنْصَحونَه ويوبِّخونَه، ويَعِدونَهُ، ويتَوعَدونَه، وكانوا يصبُّونَ لعَناتِهم على الأغنياءِ والظّالِميْنَ والمُلوكِ، وَما زالوا بِهِم حَتَّى بثُّوا في أذْهانِهم أنَّ اللهَ واحدٌ أحدٌ، وأنَّ الأرْبابَ الأُخْرى لَيسوا آلهةً، ولا قيمَةَ لَهُمْ، و أنَّ اللهَ هوَ الذي خَلَقَ الكَوْنَ بأجْمَعِه وأنَّهُ هوَ الذي يتحكَّمُ فيه، ووضَعوا لَهُمْ بَعْضَ القواعدِ والشُّروحِ للألْواحِ، فتوسَّعتِ الدّيانَةُ وأخَذَتْ شَكْلا موسَّعاً موضَّحاً.

رابعاً - الرَّبانيُّون:

يَقولُ أبو الفِداءِ - فيما نقَلَهُ القَلْقَشنديُّ -: (إنَّهُ ليسَ في التَّوْراةِ فكرة اليَوْمِ الآخرِ والمعادِ) ويؤيِّد الباحثون الأجانبَ ذلك، غير أنَّهُمْ يُضيفونَ أنَّ اليَهودَ كانوا يَعْتَقِدونَ بوجودِ الرّوحِ، وهي ثانيةُ الجَسَدِ، وتَدخلُ فيه فيَحْيا، وتَخْرجُ منه

فيموتُ، ويجعلونَ للأرْواح وجوداً خاصّاً، فالأرْواحُ تجتمعُ في مكانٍ يُدعى (شيؤل) وتَبقى فيه، ويُقدِّمُ لها اليَهودُ القَرابينَ، ويَخشَونَ شرَّها، ويقومون بتَعْويذاتِهم خَوْفاً منها.

على أنَّهُمْ يَعْتَقِدونَ أنَّ الإِنْسانَ يُجْزى في هَذِهِ الدُّنْيا عمَّا عمِلَ إنْ خَيْراً فخيرٌ، وإِنْ شرّاً فشرٌّ، وقَدْ يَكونُ بيْنَ النّاسِ من يفعَلُ الخَيْرَ لَكِنَّهُ يُجْزى بالشَّرِّ، وتَفسيْره عِنْدَهُم أنَّهُ مسؤولٌ عَنْ أعمالِ غيره فيُجْزى بالشَّرِّ الذي فعلتْه قبيلتُه والإِنْسانُ ابنُ شَعْبِه، وَهوَ مسؤولٌ عمَّا يفعلُه غيره...

ولَمَّا تقدَّمَ بهم التّاريْخُ وأصابَتْهُم النَّكباتُ وَجَدوا أنَّ العدلَ لا يتمُّ في هَذا العالم، وأنَّ كَثيْراً مِنْ ذَوي الشَّرِّ يتمتَّعونَ سَعيدينَ، **فشَرعَ الرَّبَّانيُّونَ يفكِّرون في الأَمْرِ**، ونظروا في الأَرْواحِ فَقالوا: إِنَّها ستَبْقى لتَلقَى جَزاءَها، وهكذا قال الرَّبانيُّون بـ(يَوْمِ آخِرِ) تُجْزى فيه الأَرْواحُ، وَهوَ (يَوْم الميعادِ)، عِلماً بأنَّ طوائفَ منَ اليَهود لم يقولوا بِهَذِهِ الفِكْرَة، منهم (الصَّدوقيونَ) الذين تمسَّكوا باعتقادِ أنَّهُ لا مَعادَ.

واستمرَّ الرَّبانيُّونَ يفسِّرون التَّوراةَ ويشْرَحونَها، ويفصِّلونَ الأَحْكامَ التي ليْسَتْ فيها، ومجموعُ أبْحاثِهم وكتاباتهم نَجِدُها في (التُّلْمودِ) وفيه أحْدَثُ شَريعةٍ لليَهودِ.

خامساً - الشَّرِيْعَةُ واليَهودُ:

تَبيَّن مَعَنا في البَحْثِ بَعْضُ هَذِهِ الشَّرِيْعَة اليَهوديَّة، فَقَدْ شَرَحْنا فكرةَ (الإِلَهِ - والمعادِ - والوعد بأرْضِ كَنْعانَ - والخِتانَ).

ونُضيفُ هنا أنَّ اليَهودَ آمنوا بأنَّهُ سيأتي (المَشيْخَة) يعني المَسيْحَ عَلَيْهِ السَّلامُ ليُنْقِذَهُم مِمّا هُمْ عَلَيْهِ من السّوْءِ والشَّرِّ، ويَجْعَلُ العدلَ والسَّلامَ والمحبَّةَ والأَمْنَ تَسودُ العالَمَ.

ومِنْ شَرِيْعَةِ اليَهودِ:

= النَّهيُ عَنْ أكلِ لحمِ الخنْزيْرِ أوْ لَمْسِهِ أوْ لَمْسِ جلدِه.

= وأكبَرُ أعيادِهِم هوَ عيدُ الفِصحِ، ويقع في (١٤/نيسان) - أي نيسانهم - يعني أواخِرَ آذار، ويمتدُ إلى نيسان، ويستَمِرُّ سبعةَ أيامٍ، يمتنعونَ فيه عَنْ أكْلِ الخُبْزِ الذي تدخلُه الخَميرةُ، يَحْتَفِلونَ بهَذا العيد لخُروجِهم مِنْ مِصْرَ، وكأنَّهُمْ يريدونَ باحتفالِهِم هَذا أنْ يَبدؤوا عاماً جَديْداً، ولا يصحُّ لَهُمْ أنْ يَستَعْمِلوا أوني المطبخِ التي استَعْمَلوها في العامِ السَّابقِ.

= وَهُمْ يَحْتَفِلونَ أيْضاً بيَوْمِ السَّبتِ، وَهوَ عِنْدَهُم اليَوْم السابعُ من الخَلْقِ، استراحَ فيه الرَّبُّ بَعْدَ خَلْقِه للعوالمِ - على ما يَقولونَ - فهُم يتوقَّفونَ فيه عَنْ العَمَلِ، ويقومونَ فيه بالعِباداتِ وليسَ لِزاماً عَلَيْهِم أنْ يؤدوا تِلْكَ العِباداتِ في الكَنيسِ الذي حَلَّ محَلَّ الهَيْكَلِ القَديْمِ بَلْ يؤدُّونَ قسْماً كَبيْراً منها في بيوتِهم.

سادساً - فِرَقُ اليَهودِ المُعاصِرة:

لليهودِ فرقٌ عديدةٌ في السَّابقِ، وفي يَوْمِ النّاسِ هَذا، نَجْتَزِئُ منها بذِكْرِ ثلاثٍ تمثِّلُ مجموعَهُم، فَقَدْ قامَ فيلسوفٌ ألْمانيٌّ يهوديٌّ اسمه (**موسى مندلزون**) فقال: (إنَّ اليَهودَ يَجِبُ أنْ يتمثَّلوا ثقافيّاً بالشَّعْبِ الذي يعيشونَ بَيْنَهُ، وأنْ يعتَبِروا أنفسَهم من ذَلِكَ الشَّعْبِ مَواطنينَ كبقيَّةِ المواطنينَ)

إنَّ نَظَرِيَّةَ مندلزون هَذِهِ تقتضي التَّخلي عَنْ كَثيْرٍ من عَقائدِ اليَهودِ، ونظرتِهم إلى الحَياةِ والعَمَلِ فيها، وبيانُ ذَلِكَ:

أوَّلا: إنَّ اليَهودَ يَعْتَقِدونَ أنَّهُمْ شَعْبُ الله المُخْتار الذي ارتبطَ بعهدٍ متينٍ مَعَ الله، فعليه أنْ يُقيْمَ العهدَ - فَقَدْ عاهدَ اللهَ أنْ يُطيعَ أوامِرهُ وأنْ يتحمَّلَ مَصائبَ الدَّهرِ ليَكونَ شَعْبَهُ المُخْتار. وَهوَ بتحمُّلِه المصائبَ يغسلُ خطاياهُ ويستحقُّ ذَلِكَ

الاختيار.

أمّا (**مندلزون**) فيدعو الشّعبَ اليهوديَّ إلى أنْ يختلطَ بالشّعوبِ الأُخْرى ويُصبِحَ جزءاً منها، فَهوَ يَدْعوهُ إذنْ إلى أنْ يتخلّى عَنْ فكرةِ الشّعْبِ المُخْتار.

ثانياً: إنَّ الحَياةَ العاديَّةَ بيْنَ الشّعوبِ الأُخْرى على طَريْقتِها تقتضي من اليَهودِ أَنْ يتخلَّوا عَنْ مبدأ السَّبتِ وترْكِ العَملِ فيه، وأنْ يَعيشوا كغيرِهِم.

ثالثاً: إنَّ انْصِهارَ اليَهودِ في الشّعوبِ الأُخْرى يُبْعدُهم حتماً عَنْ فكرةِ العودةِ إلى الأرْضِ الموعودة (أرْضِ الميعادِ)، التي هي بالنِّسبَةِ إليهم المَوْطِنِ الأوَّل. إذاً لقدْ تخلّى مندلزون وأتْباعُه عَنْ: فكرة الشّعْب المُخْتار، وعن السَّبْت، وعن الأرْضِ الموعودة. وأصْبَحَ الدّيْنُ عِنْدَهُم نَوْعاً مُبْهماً منَ التَّوْحيْد والإيْمانِ بالله.

وقد تَصدَّى سائرُ اليَهودِ لدَعوَةِ مندلزون هذِه وحصَلَ نِزاعٌ بين الفَريقَيْنِ وآلَ أمرُ اليَهودِ إلى طائفتين:

أ - (**الأرثوذكس**) وهم المتعلِّقونَ بالدّيْنِ القَديْم.

ب - (**اللاأرثوذوكس**) والتي انقسمت بدَورِها إلى فرقَتيْن:

- **الفرْقَة الإصلاحيَّة**: وهم لا يأخُذونَ بكثيرٍ من التَّقاليدِ القَديْمَة، فهم يقرؤون التَّوْراةَ باللُّغاتِ المُترجمةِ، ويأكلونَ لحمَ الخنْزيْرِ، ولا يعطِّلونَ يَوْم السَّبْت بَلْ الأحد، ومن هَذِهِ الفِرقَة عددٌ كَبيْرٌ في أمْريكا وألْمانيا.

- **الفِرَقَة المُحافِظة**: وهي لا تأكلُ لحمَ الخِنْزيْر، ولا تَعْمَلُ يَوْم السَّبْتِ، وإنْ كانت تُحاولُ أنْ تَبْدو مندَمِجَةً بالشّعْبِ الذي تعيشُ معه.

سابعاً - الحَرَكَةُ الصُّهْيونيَّة:

وأهَمُ حادثةٍ في تاريخ اليَهودِ المُعاصِر هي قيامُ الحركةِ الصُّهْيونيَّةِ، أي إعادَة تَكْويْن الوطنِ اليَهوديّ.

والصُّهْيونيَّة ليْسَتْ حَرَكَة دينيَّة بَلْ هيَ حَرَكَةٌ قوميَّةٌ[1]، وبالتَّالي فهيَ لا تأْخُذُ بالأُصولِ العَقائديَّة للدِّيانَةِ اليَهوديَّة، كفكرةِ العَهْدِ بيْنَ الله واليَهودِ، وفكرةِ الشَّعْب المُخْتار ووجوب تحمُّلِ المصائبِ والسَّمْع والطَّاعَةِ للشَّرْع.

ولا ريبَ أنَّ اليَهودَ المتمسِّكينَ بشرْعِهم يُقاومونَ فكْرَةَ الصُّهْيونيَّةِ كلَّ المقاومةِ، ويرَوْنَ أنَّ قيامَ الكيانِ الإسْرائيْلي على أرْضِ فِلسطينَ هوَ سُبَّةٌ في جبينِ اليَهود، لكنَّ هَؤلاءِ قلَّةٌ قليلةٌ، وأمَّا الغالبيَّةُ العُظمى من اليَهودِ فيميلونَ إلى الكيانِ الإسْرائيْلي وإنْ لم يَكونوا صَهاينةً كلهم.

وفكرةُ قيامِ دولةٍ لليهودِ تقومُ على أساسٍ مُتناقضٍ كلَّ التَّناقُضِ مِنْ وجهةِ النَّظَر اليَهوديَّة المحَضْة، ولننقل هنا كلمةً لأحَدِ أساتذَةِ الجامعةِ العَربيَّةِ بالقُدْسِ وَهوَ (**فيريلروسكي**)، إذ يَقولُ ما ترجمته: (إنَّ السرَّ الغامضَ لإسْرائيْل يظْهَرُ الآنَ كامِلا، فإسْرائيْلُ اسمُ الدَّوْلَةِ والأقليَّة الدّيْنيَّةِ، إنَّ إسْرائيْلَ في العالم (وبعيدة) منه في الوَقْتِ نفسه إنَّ إسْرائيْلَ قوميَّةٌ ودَوليَّةٌ مَعاً، ويظْهَرُ سرُّ تناقضِ اليَهوديَّةِ في كَوْنِها عالميَّة وخاصَّة (بشَعْبٍ مُعيَّنٍ) يظْهَرُ الآن بِشَكْلٍ جَديْدٍ، فهناك دولةٌ يهوديَّةٌ يَجِبُ أنْ تَحْوي المُسْلِميْنَ والمَسيْحيينَ وغيرِهم كمواطنينَ إسرائيليينَ، ثم هُنالكَ (في بلادِ العالمِ) أقليَّةٌ دينيَّةٌ مِنْ إسرائيليينَ تضُمُّ مواطِنينَ مُخْلِصينَ لـ(فَرَنْسا، وبريطانيا العُظمى، والولاياتِ المتَّحدَة).

حقّاً إنَّ إسْرائيْلَ دولةٌ قائمَةٌ على أُصولٍ مُتناقِضةٍ، ولا يُمْكِنُ أنْ تَقومُ أوْ تستمِرَّ في الحَياةِ، وأساتِذَتُها يَعْتَرفونَ بتناقُضِ وضْعِها ولا يُخْفونَهُ.

---

(١) وهي تنسب إلى (**صُهْيون**) وهي قطعة من مدينة القُدْسِ حُدِّدت في العَهْدِ القَديْم على أنَّها (**مدينة داوُد**).

الفَصْلُ الثَّاني

الدِّيانةُ النَّصرانيَّة

- أولاً - نشأةُ النَّصرانيَّة وكيفيَّة تشكُّل عقيدتها.
- ثانياً - النَّصْرانيَّةُ في القُرونِ الوُسْطى وظهورُ البابويَّة.

مدخل

النَّصْرانيَّةُ ديْنٌ تطوَّرَ مَعَ الزَّمنِ تَطوراً كَبيْراً في عقائدِه وأفْكارِه وعباداتِه وطقوسِه، وَهوَ ديْنُ المَسيْحِ علَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، ولَكِنَّهُ لم يقتَصِر على التَّعاليمِ التي أتى بها السَّيِّدُ المَسيْحُ علَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ بَلْ تَعدَّاها إلى غيرِها، فكوَّنَ من ذَلِكَ مَجموعةً كَبيْرةً من العقائدِ والطُّقوسِ، وسنَرى أنَّ السَّببَ في هَذا التَّطوُّرِ والمساعدَ عَلَيْهِ والمُوصلَ لَهُ بالدَّرجةِ الأُوْلى هوَ فِكْرَةُ الكَنيسَةِ، ومع الكَنيسةِ فِكْرَةُ روحِ القُدُسِ.

وإذا أرَدْنا في بَحْثنا عَنْ النَّصْرانيَّةِ أنْ نكونَ واضحينَ في عرْضِ المَذاهِبِ وواضحينَ في عرْضِ التّاريْخِ، فعلينا أنْ نتَّخِذَ منَ العرْضِ التّاريْخيِّ أساساً ونُدمِجَ فيه عرْضَ المَذاهِبِ، ذَلِكَ أنَّ المَذاهِبَ (ليْسَتْ واحدة، ولم توجَدْ في عَصْرٍ واحدٍ، ولم تَسْتَقِ من معينٍ واحدٍ) بَلْ كانَ هناك تطورٌ يتأثَّرُ كلُّ مَذْهَبٍ منها فيأخُذُ شَكْلا دونَ شَكْلِ المَذْهَبِ الآخرَ منها، وذلكَ تبَعاً للتَّطورِ، وعليه فسيَكونُ عرضنا للنَّصْرانيَّةِ على أساسِ تاريخها، على أنْ ندمجَ في التّاريْخِ العقائدَ والمَذاهِبَ العامَّةَ التي ظهرَتْ في كُلِّ مرحلةٍ تاريخيةٍ.

أولاً - نشأةُ النَّصرانيَّةِ وكيفيَّةُ تشكُّلِ عَقيدَتِها

ولد المَسيْحُ علَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ في (بيت لحم) عامَ أَرْبَعَة قَبْلَ الميلادِ، وهَذا هوَ التّاريْخُ الذي اتَّفقَ عَلَيْهِ المؤرخونَ بالرَّغمِ من التّاريْخِ الميلادي المعروف.

والمَسيْحُ كلمةٌ مِنَ اللهِ وروحٌ مِنْهُ.

أمّا شخصيَّةُ المسيحِ فشخصيَّةٌ جذّابةٌ ساحِرةٌ ذاتٌ مغناطيسيَّةٍ - على حَدّ تَعبيرِنا اليَوْم - هائلةٌ فائقةٌ تؤثِّرُ في مُستَمعيهِ تأثيراً قويّاً، فتنفذُ إلى أعماقِ قلوبهم.

وكانَ يتكَلّمُ كَما يتكَلّمُ الشُّعَراءُ، لكن دونَ اتِّخاذِ الوزنِ والقافيةِ، يَستَعْمِلُ

الاستِعارات والتَّشابيْهِ، ويُطْلِق الخَيالَ لنَفْسِهِ، فيمثِّلُ الأَشْياءَ للنّاسِ بطَرِيْقةٍ فصيحةٍ بيِّنَةٍ، والصور الاستعاريَّة المبثوثَة خِلالَ الأَناجيْلِ والمنقولة عنه صورٌ فنيَّةٌ رائعةٌ، كانَ يؤثرُ في النَّاسِ بها إلى جانبِ أثرِ شخصِه وقوَّتِه.

وكانَ يُبرئُ الأَكْمَهَ والأبرصَ، ويَشفي المرضى من أمْراضِهم، وكانَ يحي الموتى بإذنِ الله تَعالى، وليسَ غريباً بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يَجْتَمِعَ حَوْلَهُ عددٌ كَبيْرٌ مِنَ النَّاسِ، وأَنْ يتَّخِذوهُ إماماً.

شرَعَ المسيحُ ينشرُ دينَهُ، ولهُ مِنَ العُمُرِ ما يُقاربُ الثَّلاثينَ عاماً أَوْ يفوقَ، يُبَشِّرُ في الطُّرقاتِ فيتَكَّلمُ مَعَ النَّاسِ ويُجيْب عَنْ أسئلَتِهم، وشرَعَ يَدخُلُ الكَنيسَ فيعترضُ المصلِّينَ فيه ويُحَدِّثُهم ويستمِعُ إليْهِم ويستمِعونَ إلَيْهِ؛ يتَكَّلمُ إليْهِم بتلك الصُّورِ الاستعاريَّة التي تنبِّهُهم إلى ما في نُفوسِهِم وإلى واجبِهم، وتحمَّل ثِقَلَهُم واصطَبرَ عَلَيْهِم ووعظَهم بالَّتي هيَ أَحْسَنُ.

ثُمَّ تَرَكَ الخَليلَ وانتَقَلَ إلى القُدْسِ فدَخَلَها على حمارٍ والحواريونَ أَصْحابُه - وهم اثنا عشر - يُحيْطون بِهِ، فاجتمعَ النَّاسُ عَلَيْهِ زُرافاتٍ ووحدانا، وكانوا قد سَمِعوا بمعجزاتِه، والتفُّوا حَوْلَهُ يستَمِعونَ إليهِ، فماذا كانَ يَقولُ لَهُمْ، وَما هيَ رسالته؟

تعاليم السيد المسيح:

يُمْكِنُ أَنْ نُلخِّصَ رسائلَهُ بمسائل ثلاث:

المسألة الأُوْلى - أَنَّهُ كانَ يؤمنُ بالتَّوْراةِ، وأتى مصدِّقاً لِما بيْنَ يديهِ مِنَ التَّوْراةِ، فَهوَ إذن لا يرمي إلى تأسيسِ ديْنٍ ينقضُ الذي قبلَه بَلْ يصدِّقه ويتمِّمه، على أَنَّهُ لم يَكُنْ يأخذُ من الكِتابِ المُقَدَّسِ القَديْمِ بِما ظنَّه النَّاسُ وأخَذُوا به مِمّا يشيرُ إلى ضيقٍ في الفِكْرِ وعَدَمِ تعمُّقٍ في الفَهْمِ، فَقَدْ كانَ ينفُرُ مِنَ الإيْمانِ بِما

يخالِفُ الفِكْرَةَ الدّيْنيَّةَ الأصْليَّة، فكانَ إذا ذُكِرَ السَّبْتُ قال: (إنَّ السَّبْتَ خُلِقَ للنّاسِ وَلَمْ يُخلَقِ النّاسُ للسَّبْتِ)، وكانَ اليَهودُ متمسِّكينَ بالسَّبْتِ وبحرمانيَّةِ العَمَلِ فيه تمسُّكاً أعمى، حتَّى لقد امتَنَعوا يَوْماً عن محاربةِ (انطونيوس الرّابع) وتَركوهُ يدخلُ مَدينتَهم يَوْمَ السَّبْتِ لئلا يمسّوا السِّلاحَ في ذَلِكَ اليَوْمِ، فكانَ المَسيْحُ عليْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ يأخُذُ بالكِتابِ المُقدَّسِ ولَكِنَّهُ يعلِّمُ النّاسَ التَّبصُّرَ بِما فيهِ، ويمنعهم عَنْ التَّوغُّلِ فيما يُخالِفُه.

المسألة الثّانية - أنّهُ كانَ يَقولُ: إنَّ اللهَ أبٌ للنّاسِ جَميْعِهم، يحبُّهم كلَّهم بمقدارٍ مَتَساوٍ، وهَذا الرَّأي هوَ أساسٌ من أُسسِ الدّيْنِ الذي أتى به، أساسٌ يختلفُ كلَّ الاختلافِ عمّا كانَ يراهُ اليَهودُ قبلَهُ، فاليَهودُ يَعْتَقِدونَ أنَّهُمْ شَعْبُ اللهِ المُخْتار، وأنَّ اللهَ إلاههم بصفَةٍ خاصَّةٍ قَبْلَ أنْ يَكونَ إلَهَ غيرِهم، أمّا المَسيْحُ فبيَّنَ لَهُمْ أنَّ اللهَ إلَهُ النّاسِ جَميْعاً، وأنَّهُ ليسَ إلهاً لليهودِ وَحْدَهم، وأنَّ دينَهُ دينٌ عامٌّ للبَشَرِ لا لفئةٍ خاصَّةٍ من البَشَرِ[1]، وبيَّنَ المَسيْحُ لأتْباعِهِ أنَّهُ لا تمييز بيْنَ النّاسِ، فلا درجات ولا طبقات، كلُّهم مُتَساوونَ عِنْدَ اللهِ، واللهُ يقصِدُ خَيْرَهم جَميْعاً، ولا يفضِّلُ أحَداً مِنْهُم على أحَدٍ، إلا بمقدارِ خدمتِهم للنّاسِ، والقيامِ بِما فيه خَيْرُ البَشَرِ، والسَّعي في سبيلهم، وليسَ من عائلة مقربة في ديْنِ المَسيْحِ وليسَ من أخوة ذوي نسب مقربين، فلا نسبَ ولا قرابة.

كانَ المَسيْحُ عليْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ يبغي أنْ يصهرَ العالَمَ في بوتقَةٍ واحدةٍ، وأنْ يعطيهم ديناً واحداً، وأنْ يجْعَلَ حبَّهم للدّيْنِ وعملهم في خدمةِ الإنْسانيَّةِ مقياساً لمحبَّةِ اللهِ لَهُمْ.

---

(١) سيظهر فيما يأتي أنَّ الذي جعل المسيحية ديناً عالمياً لا خاصّاً ببني إسرائيل إنّما هو الأب (بولص الطرسوسي).

المسألة الثَّالثة - تبشيرُه بمجيءِ مَلَكوتِ اللهِ، وفَهِمَ اليَهودُ منْ هَـذِهِ الـدَّعْوَة أنَّ هناك مُلْكاً وعَرْشاً، أمّا هـوَ فَقَـدْ كـانَ يقصِـدُ بمَلَكـوتِ اللهِ السَّـلامَ والصَّفاءَ التَّام، ورفـعَ الاختـلافِ بيْـنَ النَّـاسِ. ذَلِكَ مَلَكـوتُ اللهِ وذَلِكَ السَّـلامُ بَيْنَهُم، وأنْ يحبَّ بَعْضُهُم بعضاً، وأنْ يتَوَلَّى الصَّفاءُ قلوبَهم. والسَّعيُ لـمَلَكوتِ السَّماواتِ إنَّما هـوَ السَّعيُّ لِهَذا الصَّفاء والسَّلام والوئام والحبِّ، والتَّقرُّب من مَلَكوتِ السَّماءِ إنَّما هـوَ فِعْلُ الخَيْـراتِ والحضُّ عليهـا، بَـلْ سُئِلَ المَـسْيْحُ يَوْمـاً عَـنْ دَفْـعِ الضَّـريبةِ لقيصَـرَ، فقالَ: أعْطوني ديناراً، فأعْطَوهُ ديناراً، فنَظرَ فيـه فـرأى صـورَةَ قيصـر، فقـال: ردُّوا مالَ قيصـر لقيصـر، فَهـوَ يَـرى أنْ يـدفعَ كُـلُّ إنْسـانٍ حـقَّ غـيرِه، وَهـوَ لا يَـرى بيْـنَ النَّاسِ اختلافاً.

هَذا مُختَصرُ ما يُقالُ عَنْ تعـاليمِ المَـسيْحِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، والأناجيْـلُ الأَرْبَعَـةُ تُعْطيْنـا فكـرةً واسـعَةً عَـنْ ذَلِكَ لا تَتَجـاوَزُ في مُجْمَلِهـا هَـذِهِ التَّعـاليم، ولا تتعدَّاها إلى سِواها، مِمّا وجدَ بَعْدَ ذَلِكَ واندمَجَ في العَقيْدَةِ المَسيْحيَّةِ.

موقفُ اليَهودِ منْ رِسالةِ المَسيحِ:

تلك إذنْ كانت تعاليمُ المَسيْحِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، على أنَّ المَسيْحَ خـالفَ اتِّجاهاً واضحاً كانَ في عصرِه. ذَلِكَ هوَ اتِّجاهُ اليَهـودِ أنْفُسِـهِم، فَقَـدْ كـانَ اليَهـودُ في حالةِ ضَنَكٍ شديدٍ، قَبْلَ ظُهورِه قد تلقَوا المصائبَ منْ نَفيٍ وقتلٍ وتشـريدٍ وتعـذيبٍ، وكانَ الشَّعْبُ اليَهوديّ قد تشتَّت في أنْحاءِ العـالمِ، واعتَقَـدَ اليَهـودُ أنَّهُ سيأْتي منقذ لَهُـمْ، وأنَّ هَـذا المنقِـذ سيُعيدُ لَهُـمْ دولـتَهم ومُلكَهـم، وسـيجعلُ القُـدْسَ عاصـمةَ العالمِ، وسيُعطي الشَّعْبَ اليَهوديَّ المَكانَةَ الأُوْلى بيْنَ شُعوبِ العالمِ، وكـانَ هنالـك اتِّجاهانِ واضِحانِ:

أحَـدهما اتِّجـاهُ الفريسـيين: وَهُـمْ فرقـةٌ مـن الفِـرَقِ المتمسِّـكةِ بكيـانِ الدِّيانَـةِ

اليَهوديَّةِ تمسُّكاً شديداً أعمى، وَهُمْ الذينَ تَركوا (انطيوس الرّابع) يدخلُ القُدْسَ، لأنَّ عَلَيْهِم أنْ لا يُحاربوا يَوْمَ السَّبْتِ، وكانَ لا يفهمونَ من التَّوْراةِ إلا ظاهرها، يتحذْلَقونَ في فهمِها الظّاهِرِ.

والاتِّجاهُ الثَّاني اتِّجاهُ الصَّدوقيِّينَ: وهؤلاءِ فرقَةٌ مُتَساهلةٌ، لم تَكُنْ تنظرُ إلى أنَّ اليَهودَ أُمَّةٌ قائمةٌ بِذاتِها، وأنَّ الدِّيْنَ لها وَحْدَها، بَلْ اختَلَطوا باليونانِ ونَشَروا ديْنَهُم بَيْنَهُم، وتقبَّلوا مِنْهُم لغتَهُم، وتَرْجَموا الكِتابَ المُقَدَّسَ إليها.

هَذان الاتِّجاهانِ كانَ يخالفُهُما اتِّجاهٌ عامٌّ، هوَ - كَما قُلْنا - الاعتِقادُ بأنَّ مُنْقِذاً سيُنقِذُ اليَهودَ مِمّا وقعوا فيه، وَكانَت الثَّوراتُ والقَلاقِلُ لا تَزالُ تَتْرى، فاليَهودُ المتحمِّسونَ يَقومونَ بالعِصْيانِ على روما.

كانَ الجوُّ مُثْقَلا إذاً، وكانَ انتظارُ المَسيْحِ قويّاً في النُّفوسِ، حَتّى إذا ظَهَرَ المَسيْحُ التفَّ النّاسُ حولَه.

على أنَّ اليَهودَ لم يَجِدوا في أقْوالِ المَسيْحِ ما يوافِقُ رأْيَهُم السَّابِق، فَهوَ لم يَكُنْ يَدعوا إلى مملكَةِ إسْرائيْلَ، وَلَمْ يَكُنْ يَقولُ إنَّ إسْرائيْلَ هُمْ شَعْبُ الله المُخْتار، بَلْ تنبَّأَ بخرابِ الهَيْكَل، وسوَّى بيْنَ النَّاسِ وَلَمْ يجعلِ للكَهنوتِ اليَهودِ يَداً على غيرِهم، وَلَمْ يرفعْ من قيمَةِ اليَهودِ خاصَّةً، فكانَ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ أنْ خابَ أملُهم فيهِ، ثُمَّ إنَّه حاربَ الفِكْرَةَ اليهوديَّةَ الضَّيقةَ في الطُّقوسِ والعاداتِ، كَما رأيْنا، وحاربَ التَّقيدَ والحذلَقَةَ التي تمسَّك بها الفريسيونَ، فوَجَدوهُ خَطراً شَديداً عليهم، ووَجَدَ المتنفِّذونَ فيه خَطراً أيْضاً، فسَعَوا جَميْعاً إلى إهْلاكِهِ، ووَشى به (يَهوذا) أحَدُ أتْباعِه فأُلْقِيَ القَبضُ عَلَيْهِ وحاكَمَهُ الكَهَنوتُ اليَهوديّ، فحكَموا عَلَيْهِ بالصَّلْب، وصدَّقَ هَذا الحكمَ مَندوبُ روْما المُسمَّى (بيلات).

وتقولُ المَصادِرُ التّاريْخيَّةُ، أنَّ المَسيْحَ صُلِبَ بيْنَ لِصَّيْنَ صُلِباً، وأنَّ أتْباعَه وتلاميذَه وحواريه خافوا فلمْ يَحْضَروا الصَّلْبَ، ولَمَّا كانَ في اليَوْمِ الثّاني، أتَتْ

بَعْضُ النِّسْوَةِ فلَمْ يَجِدْنَ الجُثَّةَ ثُمَّ رأتْ (مريمُ المَجدليَّةُ) المَسيْحَ علَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ بكاملِ هيئتِه، ورآهُ غيرُها أيْضاً، فاعتَقَدوا أنَّهُ أُحييَ ثانيةً وبُعِثَ.

أمّا عَقيدَتُنا التي نأْخُذُ بها وهو ما نصَّ عليهِ القُرْآنُ الكريمُ والسُّنَّةُ النبويَّةُ، وكذا ما جاءَ في إنْجيلِ (بَرْنابا) - الذي سنتكلَّم عنه - فهي أنَّهُ لم يُصْلَبْ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ.

الإنْجيلُ والأَناجيْلُ:

تَردَّدَ في آياتٍ متعدِّدَةٍ في القُرْآنِ الكَريْمِ ذِكْرُ (الإِنْجيلِ) الذي أُنْزِلَ على عيسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، ونرجعُ إلى الكُتُبِ التي عدَّها النَّصارى كُتُبَهم المُقَدَّسَة، فلا نجد بَيْنَها كتاباً مُنْزلا يُدعى بـ(الإِنْجيلِ) إنَّما الذي نجدُه فيْها (أناجيلُ أرْبَعَة) كَتَبَها أَرْبَعَةٌ من تلاميذِ السَّيدِ المسيحِ، وفي كُلٍّ منها ترجمةٌ لحياةِ المَسيْحِ علَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ وأقوالُه، فأينَ الإنْجيلُ المُنَزَّل؟؟.

إنَّ المَجامِعَ الكنسيَّة وأصحابَ السُّلْطاتِ فيْها اتَّفقوا على عددٍ منَ الكُتُبِ عدُّوها صادِقَةً تُعبِّرُ عَنْ ديْنِهِم وعَقيْدَتِهِم، وتترجِمُ للمسيحِ، فأقرُّوها، وعدُّوا ما سِواها مُزيَّفاً، والذي أقرُّوهُ يتمثَّلُ بما يلي:

- **الأَناجيْل الأَرْبَعَة**: (**متَّى**، و**مُرْقُص**، و**لوقا**، و**يوحَنّا**).
- **رسائل أَعْمالِ الرُّسُلِ**: وهي رَسائل لبَعْضِ تلامِذَةِ المَسيْحِ ممَّنْ دَعوهُم بالرُّسُلِ.
- **الرسائل التَّعليميَّة**: وهي رسائلُ أُخْرى غير السَّابقةِ.

وهناك أناجيلُ أُخرى تتضمَّنُ تراجِمَ لحياةِ المَسيْحِ عدُّوها مُزيَّفةً غيرَ صحيحةٍ كـ(إنجيلِ بَرْنابا)، وهنالك رسائل رفَضوها أيْضاً.

على أنَّهُمْ يدَّعونَ أنَّهُ ليسَ من إنْجيلٍ أُنْزِلَ على نبيِّهم، وكلُّ ما يعترِفونَ به

أنَّ أقوالَه وأعْمالَهُ قد سجَّلَها أصْحابُهُ بَعْدَ وفاتِه بِإلهامٍ صحيحٍ، فهي صحيحةٌ، هَذا ما يدَّعون غيرَ أنَّ هنالِكَ إشاراتٌ في الأناجيْلِ التي يَعترِفونَ بها تدلُّ على أنَّ المَسيْحَ كانَ يتَكَلَّمُ عَنْ إنجيلٍ، ويُسمَّى في التَّرجمَةِ اليونانيَّةِ (بشارة) وهي كلمَةٌ تُترْجِمُ كلمةً في اليونانيَّةِ هيَ (إنْجيل).

ويأخذُ مؤرِّخو الأدْيانِ بوجودِ هَذا الإنْجيلِ ويسمُّونَه بالوثيقة (كـ) ويستنبطونَ وجودَه مِمّا يظْهَرُ من اتِّفاقٍ بَيِّنٍ في بَعْضِ أقوالِ المَسيْحِ وأعمالِه كَما تَظْهَرُ في الأناجيْلِ الثَّلاثَةِ خاصَّةً (متى، ومُرْقُص، ولوقا) وهَذِهِ الأناجيْلُ كلُّها ترجِعُ إلى مصدَرٍ واحدٍ.

أمّا الأناجيْلُ الأرْبَعَةُ فيَقتَضي الكلامُ عنها بنصٍّ الشَّرحِ. فَقَدْ شَرَعَ المَسيْحُ علَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ بوضْعِ ترجمة حَياتِهِ وأقوالِه وأفْعالَه في كُتُبٍ، وهَذِهِ الكُتُبُ وضِعتْ بَعْدَ رفعِهِ بمدَّةٍ من الزَّمنِ، وظَهَرَ أوَّلُ الأمرِ ثلاثَةُ أناجيلَ منها، كَتَبَها (مَتَّى، ومُرْقُص، ولوقا) وهي أناجيلُ تستَقي من مَعينٍ واحدٍ، ويَقولُ رجالُ الكَهَنوتِ المَسيْحي أنَّها كُتبَتْ بِإلْهامٍ مِنَ اللهِ، ولذلك فهيَ صَحيحَةٌ، وهي تضَعُ أُصولَ الدِّيْنِ المَسيْحيِّ، وتبيِّنُ رَغباتِ المَسيْحِ علَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ مَعَ ترجمةٍ مفصلة لحَياتِهِ.

على أنَّ الشيخَ رَحْمَةَ اللهِ الهِنْديَّ درسَ في كتابِه (إظْهارِ الحَقِّ) هَذِهِ الأناجيْلَ واستخرجَ منها أكثَرَ منْ مئةِ مكانٍ يظْهَرُ فيْها الاختلافُ بَيْنَها، ولو أنَّهُ اختلافٌ ليسَ في العَقيْدَةِ بَلْ في التَّفاصيلِ، وهَذِهِ الاختلافاتُ تدلُّ على أنَّها ليْسَتْ بنتَ الوَحي والإلْهامِ، وأيّاً كانَ فهَذِهِ الأناجيْلُ الثَّلاثَةُ لا تتكلَّمُ عَنْ أُلوهيَّةِ المَسيْحِ، ولا تدلُّ عليها بشيءٍ.

ثُمَّ ظَهرَ بعدَ الأناجيلِ الثَّلاثَةِ المتقدِّمَةِ بزَمَنٍ إنْجيلٌ رابِعٌ يتحدَّثُ عَنْ تلكَ الأُلوهيَّةِ، ويأتي بالعَقيْدَةِ التي يعتَقِدُها المَسيْحيونَ اليَوْم، وَهوَ (**إنْجيلُ يوحَنّا**).

يَقولُ الباحثونَ: إنَّهُ كانتْ بَعْدَ عامٍ (٦٠ م) طوائفُ تُنْكِرُ أُلوهيَّةَ المَسيْحِ، فطُلِبَ من (يوحَنّا) أنْ يُبيِّنَ ما أهملَهُ (متَّى، ومُرقُص، ولوقا) من تلك الأُلوهيَّة فكتبَ إنجيلَه، وعدَّه النَّصارى رابعَ الأناجيْلِ الصَّحيْحَة.

وأتى بأشْياءَ عَنْ الأُلوهيَّةِ لم تُذكَرْ عِنْدَ غيرِه، مَعَ أنَّها أصْلُ الدّيْنِ عِنْدَ النَّصارى، وعلى ذَلِكَ فإنَّ كُتُبَ المَسيْحيينَ المُعتَرف بها قَبْلَ عام (٦٠ م) لم تكنْ تَحوي شيْئاً عَنْ دَعوى الأُلوهيَّةِ، وإنْ كانَ بَعْضَ النَّصارى يَعْتَقِدونَ آنذاك تلكَ الأُلوهيَّةِ دونَ نصٍّ يُثْبِتُها.

إنْجيل بُرْنابا:

وهنا يَقتَضي الأَمْرُ بنا أنْ نوردَ ما يُعْرَف عَنْ (إنْجيل بَرنابا)، فهَذا الإِنْجيلُ الذي اكتُشِفَ عام (١٧٠٩ م) بنسختِه الإيطاليَّةِ، يُشابِه الأناجيْلَ الأُخْرى من حيثُ أنَّهُ ترجمةٌ لحياةِ المَسيْحِ علَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ولأقوالِه وأفْعالِه جاءَ فيه ما يلي: (قالَ يسوعُ: إنّي أشْهَدُ أمامَ السَّماءِ، وأُشْهِدُ كلَّ ساكنٍ عَلى الأرْضِ أنّي بريءٌ مِنْ كُلِّ ما قالَه النَّاسُ عنِّي مِنْ أنّي أعْظَمُ مِنْ بَشَرٍ، لأنّي بَشَرٌ مَولودٌ مِن امرأةٍ وعُرْضَةٌ لِحُكْمِ الله، أعيشُ كسائرِ البَشَرِ عُرْضَةٌ للشَّقاء العامِّ).

هَذا القولُ ينسجمُ مع يعتقده المُسْلِمونَ منْ بشريَّةِ السَّيدِ المسيحِ.

أمَّا عُلَماءُ النَّصارى فيَرَوْنَ أنَّ هَذا الإنْجيلَ من وَضْعِ نَصْرانيٍّ أسْلَمَ فوضَعَ إنْجيلا نسبَهُ إلى بَرْنابا وجعلَه يؤيِّد عَقيْدَة المُسْلِميْن.

أمّا أنْ يَكونَ هنالك إنْجيْل لبَرْنابا، فَهوَ أمْرٌ لا يُمْكِنُ نفيُه، فإنَّ ذَلِكَ الإنْجيلَ كانَ معروفاً منْذُ القَديْمِ وقد عدَّه كَهَنوتُ النَّصارى إنْجيْلا مَنْحولا وأدْخَلوهُ في عِدادِ الكُتُبِ المنْحولَةِ.

وأمّا أنْ يَكونَ بَرْنابا - وَهوَ من الذينَ يُبجِّلُ النَّصارى مَكانتَهم ويسمُّونَهم

رُسُلا كانَ لَهُ رأيٌ مُخالِفُ لأهلِ عصرِه في قَضيَّةِ الانْحِراف عَنِ العَقيْدَةِ الأُوْلى المَسيْحيَّةِ التي هيَ عَقيْدَةُ التَّوْحيْدِ كَما كانَ يَقولُ بها اليَهودُ فذلِكَ أَمْرٌ يَقولُ به مؤرخو الأَدْيانِ، بَلْ إنَّ مِنَ الوثائقِ التي اكتُشِفَتْ في جِوارِ البَحْرِ المَيْتِ (وهيَ وثائق قديمة من القرنِ الأَوَّلِ الميلادي) أنَّ بَيْنَها رِسالَةً تَحْمِلُ اسمَه، وهي تَستَنْكِرُ ذَلِكَ الانْحِراف الذي حصلَ في الأَوْساطِ المَسيْحيَّةِ.

فإِنْجيْلُ بَرْنابا ومَوْقِفُ بَرْنابا من غيرِه مِنَ المنْحَرفِينَ بيِّنٌ لا مَجالَ لرفضِهِ.

والذي يَبْقَى أنْ نسخةَ الإِنْجيلِ التي اكتُشِفَتْ عام (١٧٠٩ م) وآلَتْ إلى البَلاطِ الملكيِّ بـ(فيينّا) هيَ النُّسخَةُ الصَّحيْحَةُ لـ(إنْجيْلِ بَرْنابا).

وفي هَذا خِلافٌ ومناقشةٌ ليسَ محلُّها هنا، وقد تمَّ عرضُها في مُقَدِّمةِ نسخَةِ (إنْجيْلِ بَرْنابا) التي تُرجِمَتْ إلى العَربيَّةِ، وفي كتابِ (مُحاضَرات في النَّصْرانيَّة) للأُسْتاذِ مُحَمَّدِ أبو زَهرة، وأَهَمُّ ما في هَذِهِ المناقشةِ:

= أنَّهُ ليسَ في صياغةِ الإنْجيلِ هَذا وعرْضِهِ ما لا يأتي مُتَّفِقاً مَعَ ما يَجِبُ أن تَكوْنَ عَلَيْهِ الأَناجيْلُ.

= ثُمَّ إنَّهُ لو كانَ مِنْ وَضْعِ مَسيحيٍّ أَسْلَمَ لكانَ انتشَرَ بيْنَ المُسْلِميْنِ، ونَدَّدوا بِما فيهِ، وَهوَ ليسَ معروفاً بَيْنَهُم، وَهوَ إنَّما اكتُشِفَ في خَزائنِ النَّصارى لا في خزائنِ المُسْلِميْنَ.

ومِنَ البَديهيِّ أنْ ترفضَ الكَنيسَةُ المَسيْحيَّةُ هَذا الإنْجيلَ، فَهوَ لا يُخالِفُ رأيَها في قضيَّةِ الثّالوثِ فحَسْب، بَلْ في قضيَّةِ الصَّلْب أيْضاً.

وَهوَ مؤيِّدٌ تأييداً تامّاً لِما يَقولُ بِهِ المُسلِمونَ بناءً على آياتِ القُرآنِ الكَريْمِ مِنْ أنَّ المَسيحَ لم يُصلَبْ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ - أي لطالبيهِ - فَهوَ يَذْكُرُ أنَّهُ يَوْمَ جاءَ طالِبوهُ كانَ مَعَ أَصْحابِهِ، ثُمَّ دَخَلَ هوَ وَيَهوذا الإسْخَريوطيُّ غرفَةً مُجاوِرَةً، خَرَجَ منها يَهوذا وهيئتُه تُشابِه هيئةَ المَسيحِ، فصارَ أَصْحابُه يَدْعونَه باسمِ المَسيْحِ، وَهوَ

يَقولُ لَهُمْ: (لَسْتُ المَسيْحَ، أنا يَهوذا)! ويسأَلُ هوَ عَنْ المَسيْحِ أيْنَ ذَهبَ؟! ثُمَّ أتى طالبوا المَسيْحِ فَقبَضوا عليه.

وهَذِهِ الروايةُ عَنْ حادثةِ نِهايَةِ دَعْوى الصَّلْبِ هيَ روايةُ مؤرِّخي الأَدْيانِ عَنْ بَرْنابا، ويقولون: إنَّها كانَتْ معروفَة عنه، ويَقولُ بها. وهي العَقيْدَةُ الإِسْلاميَّةُ نَفْسُها في هذِهِ المسألةِ.

تَكْوِيْنُ العَقيْدَةِ المَسيْحيَّةِ

بناءً على ما تمَّ عرضُهُ نَطْرَحُ السُّؤالَ التالي: **ما هيَ العَقيْدَةُ المَسيْحيَّةُ التي يأْخُذُ بها أكثَرُ المَسيْحيينَ وجلُّ طَوائفِهم؟**

وفي الجواب نقولُ: إنَّ العَقيْدَةَ المسيحيَّةَ أخَذَتْ شَكْلَها النِّهائيَ في القرنِ الرّابع الميلاديِّ، وفيه عُرِفتْ واستقرَّت على ما هيَ عَلَيْهِ.

وخُلاصَتُها:

أنَّ الإِنْسانَ (آدمَ الأوَّل) عَصى ربَّهُ في الجَنَّةِ، فأَخْطأَ خَطيئتَه الكُبْرى، فأخْرَجَهُ اللهُ من جنَّتِه الأَرْضيَّةِ، ثُمَّ أرادَ أنْ يُنْقِذَهُ فأرْسَلَ ابنَه (يَسوع = آدم الثاني) مُنْقِذاً لَهُ يَفْتَدي خَطيئَتَهُ بدمِه، وما صلْبُهُ وسفْكُ دمِهِ إلا فِديةً لخَطيئةِ الإِنْسانِ، والخَطيئةُ تَبْقى معَ الإِنسانِ فيجِبُ عليهِ أنْ يُشارِكَ بدمِ المَسيْحِ لكي يُنْقِذَ نفسهُ، ومِنْ هُنا كانَ ما يُسمَّى (القُرْبان المقَدَّس)، فإذا أكَلَ الإِنْسانُ من القُرْبانِ اشتَرَكَ بدمِ المَسيْحِ، وافتَدى خطيئتهُ الكُبْرى، وأسَّسَ المَسيْحُ كنيستهُ قبلَ أنْ يُصلَبَ.

والكَنيسَةُ هيَ: جَماعةُ المؤمنينَ، يَجمَعُهم إيمانٌ واحِدٌ بسرِّ القُرْبانِ المقَدَّسِ، وإيمانٌ بالمَسيْحِ وبأنَّهُ مُنقذٌ لَهُمْ منْ أخطائهم، وإيمانٌ بحريَّةِ الإِنْسانِ في أفْعالِهِ، وبأنَّه يُنْقِذُ نفسهُ بتِلكَ الأَفْعالِ، وبأنَّه يتمتَّع بشَفاعَةِ القدِّيسينَ، وبأنَّه يظْهَرُ في آخِرِ الزَّمانِ حاكِمٌ عامٌّ يُخلِّصَ الإِنْسانَ والبَشَريَّةَ ويَهديهم سَواءَ السَّبيلِ.

هَذا هوَ ملخَّصُ النَّظَريَّةِ المَسيْحيَّةِ التي يَظْهَرُ فيها نقاطٌ جديدةٌ تُضافُ لما تَقدَّم، وهي: (قَضيَّةُ الفِداءِ، وسرُّ القُرْبانِ المقَدَّسِ، وشَفاعةُ القدِّيسين، والمُشارَكَة بخفايا القُرْبانِ المقَدَّسِ).

هَذِهِ القضايا يَقولُ المَسيْحيونَ: إنَّها ديْنُ المَسيْحِ علَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، وداخلةٌ في رسالتِهِ، فَهوَ قدْ تَرَكَ روْحَ القُدُسِ، فَما اتَّفَقَ عَلَيْهِ الآباءُ والمُرْسَلونَ والكَنيسَةُ يدخُلُ في صميمِ الفِكْرَةِ المَسيْحيَّةِ بإرْشادٍ وتَوجيهٍ منْ روحِ القُدُسِ.

على أنَّ العُلَماءَ المُحْدَثينَ يُفسِّرونَ التَّطورَ الذي حدَثَ في الدّيانَةِ المَسيْحيَّةِ تَفسيْراً عِلْميّاً، مِنْهُم (**شارل غينيبر**) وكانَ أُسْتاذاً في (جامِعَةِ السُّوربون) ومن كُتُبِهِ كتابٌ أسْماهُ (النَّصْرانيَّةُ القَديْمَةُ) فسَّرَ فيه تطوَّرَ النَّصْرانيَّةِ ولا سيما أثَرَ الرَّسولِ (بولص) في هَذا التَّطورِ، ونحنُ سنلخِّص هنا كتابهَ هَذا لتطَّلِعَ على وجهةِ النَّظَرِ العِلْميّةِ في الأمْرِ.

يَقولُ غينيبر: إنَّ أتْباعَ المَسيْحِ علَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ رأوْه بَعْدَ محاكمَتِهِ، وبَعْدَ تنفيذِ حكمِ الصَّلْبِ فيه، اشتدَّتْ عَقيْدَتَهُم بهِ، ورأوا أنَّ اللهَ مؤيِّدٌ لَهُ، ولهُ عِنْدَهُ منزلة كَبيْرة، وتَمسَّكوا بالتَّبشيرِ بدينِهِ أكثرَ منِ ذي قَبْل، وتأصَّلتْ في نُفوسِهِم فِكْرَةُ عَودَةِ المَسيْحِ، وأنَّهُ هوَ المَسيْحُ المَذكورُ في التَّوْراةِ.

هَذا وكانَ هنالكَ فئتانِ قد اتَّبعتا الدِّيْنَ الجَديْدَ:

= أوْلاهُما (فئةُ الآباءِ) الذين عاشَروا المَسيْحَ علَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ وتتلْمَذوا عليه.

= والثَّانيةُ (الدياسبورة) وَهُمْ يهودٌ تَركوا مملَكَةَ إسْرائيْلَ وهاجَروا في جهاتِ سوريَّةَ وغيرِها، فأقاموا بيْنَ السُّكانَ (أي الجانتيل) واختَلَطوا بهم، واستقبَلَهم عوامُّ النَّاسِ بالكُرْهِ والحقدِ، لكنَّ المتَعلِّمينَ مِنَ النَّاسِ عَطَفوا عَلَيْهم وأخَذوا يَتَجادَلونَ معَهُم، ويتفهَّمونَ مَذْهَبَهُم وآرائهُمْ، ويُفسِّرونَ لَهُمْ آرائهُمْ هم.

وهكَذا دَخَلَ في فِكْرَة الدياسبورة الشيءُ الكَثيْرُ منَ العَقائدِ المحليَّةِ، فكانتْ لَهُمْ إذن فِكْرَةٌ لا تُشابِهِ فِكْرَةَ اليَهودِ المقيمينَ في إسْرائيْلَ، بل تميلُ إلى النَّاحيةِ اليونانيَّةِ الشَّرْقيَّةِ، وبذلكَ كانوا يَخْتَلِفونَ عَنِ الآباءِ الأوَّلينَ.

وفي وَسطِ الدياسبورة نَشأَ (الأبُ بولس) وكانَ اسمه قَبْلَ ذَلِكَ (شاؤل) وطبيعيٌّ أنْ يَكونَ متشرِّباً بروْحِ الدياسبورة وبعَقيْدَتِها، وطبيعيٌّ أنْ يفهَمَ فِكْرَةَ المحيطِ الذي عاشَ فيه، وفِكْرَةَ الجانتيل (وَهُمْ غيرُ اليَهودِ منْ أهْلِ البِلادِ الأصْليينَ).

نَشأَ (الأب بولس) في طَرطوس، وكانَ في أوَّلِ أمْرِه عدوّاً للنَّصرانيَّةِ عَنيفاً. على أنَّهُ اطَّلعَ على الدِّيْنِ الجَديْدِ من أبْناءِ قومِهِ الذينَ زاروا القُدْسَ بَعْدَ عهدِ المَسيْحِ علَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ واتَّصلوا بالآباءِ المَسيْحيينَ الأول.

ويَقولُ غينيبر: إنَّ الدّيانَةَ التي اطَّلعَ عليها (الأب بولس) لا بُدَّ أنَّها تخْتَلِفُ عَنْ الدّيانَةِ التي كانَ يأخُذُ بها الآباءُ الأول، فلا بُدَّ أن تَكونَ مُشْربة بروْحِ الدياسبورة.

وقدْ وَجدَ الدياسبورة في محيطهم الذي يَعيشونَ فيهِ أنَّ ديانَةَ (الجانتيل) - وهي الدّيانَةُ (الهيلينيَّة الشَّرقيَّة)[1] - تؤمِنُ بآلِهَةٍ يموتون ويحيون في العالم نفسِهِ.

وكانَ الجانتيل يُقيْمونَ بمناسبَةِ مَوتِ هَذِهِ الآلِهَةِ وبعْثِها احتفالاتٍ يقرِّبونَ فيْها القَرابيْنَ، ويبذلونَ دِماءَ الحَيوانات، ويأكلونَ منها، فيشْتَركونَ مَعَ الآلِهَةِ المنْقذينَ، ويشتَركونَ في الخُلودِ معهم، وكانَ في طرطوس إلَهٌ من هَذِهِ الآلِهَةِ إلَهٌ يموتُ ويَحْيا واسمه (صندان)، وكانَ الدياسبورة يعرِفونَ ذَلِكَ، ولا بُدَّ أنَّ (الأب بولس) كانَ مُطَّلِعاً على هَذِهِ الدّيانةِ، فَقَدْ كانَ عالماً عارفاً، وعلمُه واسعٌ كَبيْرٌ

---

(١) أي الممتزجة بعد الاسكندر المقدوني من الثقافةِ اليونانيَّةِ (الهيلينية) والأديان الشرقيَّة، مما أنتج الثقافة الهيلينيستية، أو ديانة الجانتيل (الهيلينية الشرقية)..

أدْهشَ المَسيْحيينَ من اليَهودِ الأصْليين.

وبَعْدُ فليسَ عَجيْباً، أنْ يتشرَّبُ (بولس) والدياسبورة بفِكْرَةِ تلكَ الآلِهَةِ التي تَموتُ وتَحْيا وتُقَدَّمُ القَرابيْنُ لأجْلِها، ويأكُلُ النَّاسُ من قَرابينِها ويَشارِكونها فيْها.

ويَقولُ غينيبر: إنَّ الدياسبورة كانتْ أميلَ إلى أنْ تَعْتَقِدَ وجودَ السَّيِّدِ المنْقِذ أكثرَ مِنْ أنْ تَعْتَقِدَ وجودَ السَّيِّدِ المَسيْحِ، ذَلِكَ الإنْسانُ ابنُ الرَّجُلِ الذي كانَ يُبَشِّرُ به النَّبيّ السَّيِّدُ المَسيْحُ (دانيال) فالسَّيِّدُ المنْقِذُ كانت صورتُهُ في تلكَ الآلِهَةِ اليونانيَّةِ المنْقِذَة.

اطَّلَعَ (الأب بولس) على الدّيانَةِ التي جلَبَتْها فئةُ الدياسبورة التي كانت في القُدْسِ، وفيما كانَ يسيرُ في الطَّريْقِ تصوَّرَ المَسيْحَ، واعتَقَدَ أنَّهُ رآهُ، فعادُ يُبَشِّرُ بالمَسيْحيَّةِ وبالرِّسالةِ التي اعتقَدَها قائلا إنَّهُ أخَذَها مِنَ المَسيْحِ نفسِه وبوحيٍ منه، وكانَ يعتقدُ ذَلِكَ اعتِقاداً جازماً هوَ اعتِقادُ المؤمنِ.

ويفسِّرُ غينيبر كيفَ آلَ (الأب بولس) إلى ما آلَ إلَيْهِ من رأيٍ في الدّيْنِ، فَهوَ حقّاً ذهبَ إلى بَيْتِ المقْدِسِ بحضٍّ من الأبِ بَرْنابا لَكنَّه لم يبقَ فيه، بَلْ سارَ يطوفُ العالمَ، ووَجَدَ خِلالَ رحلاتِهِ أنَّ النَّاسَ يفهمونَ فِكْرَةَ السَّيِّدِ المُنْقِذِ ويَسْتَسيغونَها أكثرَ منَ الفِكْرَةِ اليَهوديَّةِ نفسِها عَنْ المَسيْحِ.

ولعلَّه وَجَدَ أيْضاً أنَّ اليَهودَ أنْفُسَهُم مَعَ مُخالَفَتِهم لَهُ بالرَّأْي يَسيْرونَ معَه إنْ رَفَعَ منْ شأنَّ المَسيْحِ علَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ إلى مَنْزِلَةِ المُنْقِذِ، دَخَلَ الرَّأْي في أعْماقِ قلبِهِ فاعتقَدَ أنَّهُ الحَقُّ، وأنَّهُ ديْنُ المَسيْحِ نفسِهِ، ولَمَّا آل إلى هَذِهِ النَّتيْجَةِ أخَذَ يُبَشِّرُ بما انتَهى إلَيْهِ فيقولُ: (إنَّ المَسيْحَ مُنْقِذٌ للنّاسِ منْ خَطيئَتِهم يفْتَديهم بنفسِهِ ودَمِهِ عَنْ طَريْقِ الصَّلْب).

ونشرَ مَذْهَبَهُ بيْنَ الجانتيل، فوَجَدَهُ هَؤلاءِ قريباً من نُفوسِهم، يفهَمونَه، إذْ

يُشابِه عَقيْدَتَهُم في الآلِهَةِ التي تَموتُ وتَحيا، والتي يَشارِكونها في القُرْبانِ المقَدَّسِ، لكنَّ المَسيْحيينَ مِنَ اليَهودِ الأصْليينَ لمْ يستَقْبِلوا هَذا الرَّأيَ استِقْبالا سَيئاً إذ هوَ يرفعُ مِنْ مَكانَةِ المَسيْحِ علَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ويجعلُهُ فِداءً عَظيماً للإنْسانيَّةِ.

أَحْدثَ (الأب بولس) شَيْئاً جَديْداً، وَهوَ أَنَّهُ جَعَلَ المَسيْحيَّةَ ديْناً عامّاً عالَميّاً لا خاصّاً باليَهودِ كَما كانوا يَظُنّونَ.

هَكَذا يُفسِّرُ غينيبر ما انتهى إِلَيْهِ أَمْرُ العَقيْدَةِ المَسيْحيَّةِ عَلى يَدِ الأب بولس بشَأْنِ ابنِ اللهِ والقُرْبانِ المقَدَّسِ.

ويُفسِّرُ لنا ولز هَذِهِ الفِكْرَةَ في كتابِه (معالم تاريخ الإِنْسانيَّة)[١] فيقولُ: إنَّ ذهنَ بولس اللامع جَعَلَ لحياةِ المَسيْحِ معنًى صوفيّاً، وكانَ المَسيْحُ قد دعا النَّاسَ إِلى عملٍ هائلٍ إِلى نُكرانٍ تامٍّ لشخصِهم، إِلى بعثٍ جَديْدٍ في عالمِ الحُبِّ، وكانَ معتَنِقو المَذْهَبِ يتَّبِعونَ سيدَهم بخطًى متثاقِلَةٍ، ولا بُدَّ أَنَّهُمْ كانوا يَميلونَ بالطَّبعِ إِلى أَنْ يَبْتَعِدوا عَنْ هَذا المَذْهَبِ السَّهْلِ وهَذِهِ العَقيْدَةِ الواضحةِ، متَّخِذينَ ذكائهُم دَليلا وأَنْ يَبْحَثوا عَنْ ملجأٍ لَهُمْ في تلكَ النَّظَريّاتِ والحَفَلاتِ المعقَّدةِ...

أَوَلَيْسَ إِسْباغُ الجسمِ بالدَّمِ أَيْسَرُ مِنْ تَطْهيرِها مِنْ كُلِّ شرٍّ ومن كُلِّ تَحاسُدٍ؟

أَوَلَيْسَ من السَّهْلِ أَكْلُ الخُبْزِ وشربُ الخَمْرِ ثُمَّ الزَّعمُ بأَنَّ ما أُكِلَ هوَ شَخْصُ الإِلَهِ؟

أَوَلَيْسَ تقديمُ الشُّموعِ أيسَر من تَقْديمِ خالِصِ النَّفْسِ والقلبِ؟

أَوَلَيْسَ سَهْلا حَلْقُ الرَّأْسِ في حين أنَّ الدِّماغَ يحيكُ بالسرِّ أَلْفاً مِنْ صَغيرِ المؤامراتِ؟

---

(١) (ص ٥٤٥، من الطبعة الإنكليزية لعام ١٩٤٠ م).

يقولُ ولز[1] في بيانِ خلوِّ الأناجيْلِ منَ النُّقاطِ النِّهائيَّةِ التي آلَتْ إِلَيْها العَقيْدَةُ المَسيْحيَّةُ: (وهنالك أمْرٌ ثابتٌ، وَهوَ أنَّنا لا نجدُ في الأناجيْلِ شيئاً تَقريباً يُثْبِتُ ما تؤكِّدُه النُّصوصُ اللاهوتيَّةُ مِمّا يُشكِّلُ في مَجْموعهِ ديْنِ المَسيْحيَّةِ.

فلا يوجدُ في أيِّ موضعٍ منها بصورَةٍ صريحَةٍ ما يُثْبِتُ بوضوحِ المَذاهِبَ التي يعتبِرُها كُلُّ المُبشِّرينَ من شتَّى الفِرَقِ ضروريَّة للسَّلامِ، والقارئ يُمْكِنُ أنْ يتأكَّدَ من ذَلِكَ بنفسهِ.

ومن العسيرِ أنْ نجِدَ كلمةً خَرَجَتْ من فمِ المَسيْحِ يُمْكِنُ بها أنْ تدلَّ على أنَّهُ كانَ يعتَبِرُ نفسَهُ مسيحَ اليَهودِ، أوْ أنَّهُ كانَ يعتَقِدُ بأنَّهُ يُشارِكُ في الأُلوهيَّةِ.

والمَسيْحُ يُفسِّرُ أيْضاً مَذْهَبَ الفِداءِ، ولا يُبيِّنُ لأتْباعِهِ ضَرورْةَ القُرْبانِ والتَّقْديْسِ (أي الطُّقوسَ التي يقومُ بها الكَهَنوتُ) ولقدْ مزَّقَ المَسيْحيَّةُ الجدلَ حولَ الثَّالوثِ، مَعَ أنَّهُ ليسَ هناكَ أيُّ دليلٍ على أنَّ رُسُلَ المَسيْحِ سَمِعوا شيئاً عَنْ الثَّالوثِ، أوْ على الأقَلِّ سَمِعوا شيئاً عَنْ ذَلِكَ مِنْ سيِّدِهِم نفسِه...

وكذلِكَ لا يَقولُ عيسى كلمةً واحدةً عَنْ عِبادَةِ والدَتِه مَريَمَ...)

وبَعْدَ أن أسَّسَ (الأب بولس) مَذْهَبَهُ - على الشَّكلِ الذي رويناه نَقْلا عَنْ غينبير - كانَ لا بُدَّ مِنْ أنْ يَحْدُثَ انشِقاقٌ الكَنيسةِ المَسيْحيَّةِ عَنْ مَجْموعَةِ اليَهودِ.

حقّاً إنَّ المَسيْحَ عليْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ يَقولُ إنَّهُ أتى مصدِّقاً للتَّوراةِ على أنَّهُ تمَّ الآنُ تَرتيْبٌ جَديْدٌ في العَقيْدَةِ يخْتلِفُ عَنِ الدّيانَةِ اليَهوديَّةِ، وحصلَ بُعْدٌ عنها وعن شَرْحِها، وتكوَّنتِ الدّيانَةُ المَسيْحيَّةُ مستَقِلَّةً متمتِّعَةً بحرِّيتِها مَعَ كَنيْسةٍ ليْسَتْ على اتِّفاقٍ مَعَ اليَهوديَّةِ.

وسارَتِ المَسيْحيَّةُ في طَريْقِها في التَّطورِ، وإذْ بها تُكوِّنُ فِكْرَتَها عَنْ الثَّالوثِ

---

(١) (ص ٥٣٠)

المقَدَّسِ، والثَّالوثُ المقَدَّسُ هو: (اللهُ، المَسيْحُ، روحُ القُدُسِ) كيف تشكَّلَتْ هَذِهِ الفِكْرَة وَما هيَ اسمها.

لا ريبَ أنَّ المَسيْحيينَ يَعْتَقِدونَ وجودَ اللهِ خالقُ كُلَّ شَيْءٍ، لَكِنَّهُم رأوْا مُعْجِزاتِ المَسيْحِ علَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ واعتَقَدوا أَنَّهُ صُلِبَ ثُمَّ ظَهَرَ ثانيةً، فتكوَّنَتْ في نُفوسِهم فِكْرَةٌ راسِخَةٌ؛ عَنْ مَكانتِهِ، وعن قدرَتِهِ، وعن قوَّتِه، فَصاروا يَبْحَثونَ في طبيعتِه: منْ هوَ؟ ما هيَ خصائصُهُ؟ بَحَثوا في ذَلِكَ بَحْثاً واسِعاً فتكوَّنَتْ عِنْدَهُم قَبْلَ القرنِ الرّابع آراء مُختَلِفَة في هَذا الصَّددِ، نَذْكُرُ منها ثلاثةً:

١) رأْيُ (الأب بولس) الذي يَرى أنَّ المَسيْحَ شَخْصٌ سَماويٌّ نَزلَ إلى الأَرْضِ وأَنَّهُ روحُ اللهِ وصورَتُه.

٢) رأيٌ آخر يقولُ أصْحابُه: إِنَّ المَسيْحَ هوَ كلِمَةُ اللهِ (لوغوس)، فَهوَ إِلَهٌ لأنَّ الكلمةَ فيضٌ مِنَ اللهِ

٣) وهنالكَ رأْيٌ ثالِثٌ يَقولُ: إِنَّ عيسى ليسَ رَجُلا إلا في مَظْهَرِهِ وظاهِرِهِ.

وهكَذا نَرى أنَّ هَذِهِ الآراء الثَّلاثَة تُعْطي للمسيح صفةً أكبرَ من الصِّفَةِ البَشَرِيَّةِ، وتصلُهُ باللهِ.

وظَهَرَ أمامَ المَسيْحيينَ قَبْلَ القرنِ الرّابع مشكلَةٌ عويصةٌ فَلْسَفيَّةٌ بشأْنِ عَقيْدَةِ الثَّالوثِ، فكيفَ يَكونُ وضْعُ ذَلِكَ الثَّالوثِ المقَدَّسِ؟

لا ريبَ أنَّ المَسيْحيَّةَ التي خَرَجَتْ منَ اليَهوديَّةِ يَجِبُ أنْ تَكوْنَ ديانَةً توحيديَّةً توحِّدُ الإِلَهَ، لكنَّ الثَّالوثَ المقَدَّسَ يُعارِضُ فِكْرَةَ التَّوْحيْدِ، فكيفَ تُحلُّ المُشْكلَةُ إذا استُبْقيَ التَّوْحيْدُ وَجبَ إِهْمالُ الثَّالوثِ، وأَمّا إذا احتُفِظَ بالثَّالوثِ فَقَدْ وَقَعَ التَّناقُضُ بيْنَ التَّوْحيْد وبينَه.

وَبَعْدَ الأَخْذِ والرَّدِّ رأى المَسيْحيونَ - على ما يَقولُ غينيبر - أنْ يفَضِّلوا التَّناقُضَ على إِهْمالِ الثَّالوثِ، فَقالوا بـ(إلهٍ واحدٍ في ثَلاثةٍ).

هَذِهِ النَّتِيْجَةُ التي انتَهوا إِليها وتبنّوها لقيَتْ مخالفةً شديدةً جداً عِنْدَ طبقةِ أَبْناءِ اليَهودِ المُتنَصِّرينَ في عهدِ المَسيْحيَّةِ، لكنَّ المَسيْحيَّةَ بقوَّةِ كنيستِها لم تأبه لهَذِهِ المقاومةِ بَلْ عدَّتها زَنْدَقَةً وطردَتْ جماعتَها منها.

ومَهْما يَكُنْ منْ أَمْرٍ فالمَسيْحُ هوَ صاحبُ الدّيْنِ ومؤسِّسُه، وهوَ الذي يَضَعُ قواعِدَه، وإِليه ينْتَسبُ، وعلى ذَلِكَ فَما أَمَرَ به كان حقّاً ووجبَ اتِّباعُه.

والإِنْجيلُ يحدِّثُ عَنْ المَسيْحِ بوجودِ (روح القُدُسِ)، ويَصِفُه بأنَّهُ معز وروحُ الحَقيْقةِ يقودُ النَّاسَ في طَريْق السَّلامِ، ويهديهم الصِّراطَ المُسْتَقيم، وَهوَ حاضِرٌ معهم حضورَ اللهِ الأزلي الدّائم، ومتى اجتمعَ عددٌ مِنَ المَسيْحيينَ وصفَتْ نيّاتُهم كانَ روْحُ القُدُس معهُم، وبالاستنادِ إِلى هَذا الوعدِ مِنَ المَسيْحِ اعتُبرَ روحُ القُدُسِ مَبْدأً إِلهيّاً دائماً حاضراً، يعملُ للمسيحيَّةِ - أي للكَنيْسةِ المَسيْحيَّةِ - يعملُ لأَجْلِها وفيها.

وتتَّفِقُ كُلُّ مبادئ المَسيْحيَّةِ تقْريباً على وجودِ روْحِ القُدُسِ شاهِداً أزَليّاً بيْنَ المَسيْحيينَ، وإِذا كانَ الأَمْرُ كذلِكَ فإِذا حَضَرَ بَيْنَهُم وأَوْحى إِلى بَعْضِهِم وجبَ أَنْ يُعتَبرَ إِيحاؤُه مِنَ الدّيْنِ نفسهِ، وأَنْ يدخُلَ ما يوصيهِ في العَقيْدَةِ، وعلى ذَلِكَ فكلُّ الاعترافاتِ المَسيْحيَّةِ التي وردَتْ عَنْ جماعةٍ ثبتَ أَنَّهُمْ من القِدّيسينَ ومِنَ المُتَّصلينَ بروْحِ القُدُسِ تكونُ صحيحةً ثابتةً، وتَدخُلُ في مجموعةِ العَقائِدِ.

ولعَلَّ هَذا الرَّأْي يفسِّرُ لنا السُّلْطِةَ الواسعةَ التي حصَلَت عليها الكَنيسةُ ولا سيَّما الكَنيسة الكاثوليكيَّة.

ويَقولُ غينيبر: إِنَّهُ ليسَ في الإِنْجيلِ إِشارة إِلى الكَنيسةِ كمنظَّمةٍ تامَّةٍ تقومُ بشؤونِ المَسيْحيينَ، بَلْ لفظُ (الكَنيسةِ) يعني في الإِنْجيلِ (**مجموعةَ المَسيحيِّينَ**) وكتلتهم العامَّة وَصِلَتهم الرّوحِانيَّة بعضهم بِبَعْضٍ.

نعم نَجِدُ في الإِنْجيلِ اعتباراً خاصّاً لبُطرس الرَّسول، فَفي إِنْجيْل مَتّى - ما

مَعْناه -: أنَّ المَسيْحَ قال: (إِنَّ في يَدِ بُطرس مفاتيحَ السَّماءِ، فَما أَسَّسَهُ بطرس أسَّسهُ المَسيْحُ، وَما أَسقَطَهُ أَسْقَطَهُ)، على أنَّ المَسيْحيينَ يَخْتَلِفونَ في تفْسيْرِ هَذا القولِ.

ومَهْما يَكُنْ مِنْ أمرٍ فَقَدْ وَضَعَ الآباءُ الأوَّلونَ أُسُسَ الكَنيسةِ دونَ أنْ يَشْعُروا أنَّهُمْ يؤسِّسونَ شيئاً جَديْداً بدافعٍ من الحاجَةِ إلى وجودِ كَنيْسةٍ تضمُّ شملَهم وتوحِّدُ الرَّأي فيما بينهم، بالإضافةِ إلى توجيهِ الدَّعْوَةِ.

هذا وقد أخَذوا شَكْلَ الكَنيسةِ وكيانها من شَكْلِ كَنيْسةِ الدياسبورة، ومِنَ المؤسَّساتِ الوَثنيَّةِ اليونانيَّةِ. ثُمَّ أصْبَحَتِ الكَنيسةُ جزءاً من أجزاءِ العَقيْدَةِ، ولها سُلطانُها المعروف، ذَلِكَ السُّلْطان الذي قُلْنا إنَّهُ يُسْتَمَدُّ من روحِ القُدُسِ، ومما ذَكَرَه المَسيْحُ عَنْ بطرس.

وعلى رأسِ الكَنيسةِ في كُلِّ مدينةٍ (مطرانٌ) كانتْ مهمَّتُه في أوَّل الأمرِ مُراقبة أُمورِ الكَنيسةِ، ثمَّ ما لبثَ أنْ أَصبحَ رَئيساً لها، ثُمَّ أصْبَحَ رئيسَ الجماعةِ المَسيْحيَّةِ فيْها فلا يُبَتُّ أمْرٌ بِدونِه، وهوَ الذي يسألُ عَنْ كُلِّ شيءٍ، وامتدَّ الترتيبُ قَبْلَ القرنِ الرّابعِ الميلاديِّ فشمَلَ نَوْعاً مِنَ التَّسلسُلِ والتَّدرُّجِ في الكَنيسةِ وفي النِّظامِ الكَهَنوتي، ويأخذُ الكَهَنوتُ سُلطانَهم من الآباءِ الرُّسُلِ.

وكانَ المَسيْحيونَ ينتَخِبونَ المُطرانَ انتخاباً، ثُمَّ أصْبَحَ المُطرانُ يستبعِدُ شيئاً فشيئاً سُلطَةَ رَعاياه مِنْ غيرِ الكَهَنوتِ، يستبعِدُ تلكَ السُّلْطِة لا سيَّما فيما يتعلَّقُ بالاستيْحاءِ مِنْ روحِ القُدُس. وهَكذا أصْبَحَ التَّنظيمُ الكَنائسيّ يَكادُ يَكونُ تامّاً وقريباً مِمّا نعهدُه في عَصْرِنا الحاضِر، وأصْبَحَ لكرسيِّ بطرس في روْما مَكانَة خاصَّةً استِناداً إلى ما قالَه المَسيْحُ في إنْجيْل مَتَّى.

هكذا يُفسِّرُ لنا غينيبر تَكوُّنَ الكَنيسةِ والمَكانَة التي وَصَلَتْ إليها.

وبذلك تمَّت في القرنِ الثَّالثِ والرّابعِ الصّورَةُ التي تكادُ تَكوْنُ نهائيةً في

شَكْلِها العام عَنْ النَّصْرانيَّة كَما تَعْتَقِدُها الطوائفُ التي تعدُّ نفسَها أرثوذكسيَّةً (يعني صاحِبَةَ الحقّ).

وهكذا يظْهَرُ لنا كيفَ تأسَّست العَقيْدَةُ المَسيْحيَّةُ على الشَّكلِ العام، وتَظْهَرُ لنا المَبادِئ التي اعتمَدَتْ عليها، ويجبُ أنْ نُقرِّرَ أنَّ هَذِهِ المَبادِئ يعتَقِدُ المَسيْحيونَ أنَّهُمْ أخَذوها عَنْ صاحبِ شَرْعِهم وصاحبِ ديْنِهم وهوَ المَسيْحُ علَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، وأنَّهُمْ لم يَخْرُجُوا عَنْ الأُسُسِ التي وَضَعَها، فَهوَ:

= قد تَرَكَ بَيْنَهُم روحَ القُدُسِ يهديهم، وروحُ القُدُسِ قد يَهدي الأب بولس إلى طَريْقةِ الفِداءِ والإنْقاذِ (القَرابيْنَ).

= وروحُ القُدُس هوَ الذي تستَمِد منه الكَنيسةُ التي أُسِّسَتْ.

= وروح القُدُس هوَ الذي يوحي للقدِّيسينَ آراء جَديْدَةً تَهدي المَسيْحيينَ سواءَ السَّبيلِ كَما أراه المَسيْحُ نفسُه.

ويَقولُ لنا غينيبر: إنَّ الآباءَ المَسيْحيينَ الأوَّلينَ أسَّسوا العَقيْدَةَ والكَنيسةَ، ولَمْ يَكونوا يَشْعُرونَ أنَّهُمْ يؤسِّسونَ شيْئاً جَديْداً يَخْرُجُ عمَّا وصفَه المَسيْحُ في تعاليمِه الأُوْلى، ثُمَّ تكوَّنتْ بَعْدَ ذَلِكَ أوْ أثناء ذَلِكَ الطُّقوسُ، وظَهَرَتِ الأناشيدُ والموسيقى مَعَ القُرْبانِ المقَدَّسِ تُتْلى فيه، واتَّخذتِ المَسيْحيَّةُ سبُلَها في العِبادَةِ والتَّهجُّدِ.

النِّزاع مَعَ الدَّوْلَةِ الرّومانيَّة:

انتشَرَتِ المَسيْحيَّةُ - كَما قلنا - خارجَ فلسطينَ، وتوسَّعتْ حتَّى بلغَتْ جَميْعَ الأقْطارِ التي كانَ يحكُمُها الرُّومانُ واهتمَّت بصفَةٍ خاصَّةٍ بروْما حيثُ أُسَّسَ بطرس كرسيَّهُ، واحتكَّتْ بالدَّوْلَةِ الرّومانيَّةِ، فماذا كانَ مَوْقِفُ هَذِهِ الدَّوْلَة منها؟

لم يَكُنْ باستطاعةِ هَذِهِ الدَّوْلَة أوَّلَ الأمْر أنْ تَرْضى عَنْ أُولِئكَ الذينَ لا يَشاركونَ في الحَياةِ العامَّةِ، لأنَّهُمْ متزهِّدونَ، ولا يؤيِّدون فِكْرَة الجنديَّةِ والحرب، لأنَّهُمْ مُسالِمونَ، ولا يَحترِمونَ الدّيانَةَ الرَّسميَّةَ لأنَّها تعبُدُ الأصْنامَ مِنْ دوْنِ الله،

أولئكَ الذينَ يُكوِّنونَ جَماعاتٍ سريَّةٍ تتَّخِذُ مِنَ القَراراتِ ما لا يُعْرَفُ.

لم يَقْبَلِ الرُّومانُ هَذا الاتِّجاه، وَلَمْ يَسْتَطيعوا أنْ يفْهَموهُ، ورأوْا فيهِ خطراً على دولتِهم، فتَتبعوا أصْحابَهُ بالاضطهادِ والتَّعذيبِ والتَّنْكيلِ، لكنَّ المَسيْحيينَ تحمَّلوا كلَّ ذَلِكَ تحمُّلا شَديداً وصبَروا عَلَيْهِ صَبْراً جَميلا يَدلُّ على مقدارِ تمسُّكِهم بعَقيْدَتِهِم، وكثُرَ بَيْنَهُم الضَّحايا ولا سيَّما في آسيا الصُّغْرى في عهدِ (تراجان) وفي عهد (مارك أوريل) على أنَّ كُلَّ هَذا الاضطهاد مَعَ كثرةِ عدد الضَّحايا الذينَ كانوا يُعْرَضونَ على الوحوشِ تأكُلُهم أمامَ النَّاسِ، كل هَذا لم يفُتَّ في عَضُدِ المَسيْحيينَ، وَلَمْ يُجْدِ الرُّومانَ نفْعاً، وامتدَّ الزَّمَنُ وإذا بحُماةِ المَسيْحيَّةِ يكثرونَ، ويعتنِقُ النَّصْرانيَّة بَعْضُ المتنفِّذينَ، حَتَّى إذا أتى (قسطنطين) وشَعَرَ بحاجَةٍ إلى الإيْمانِ باللهِ قَبْلَ أنْ يَسيرَ في حَرْبٍ ضَروسٍ من حُروبِهِ عام (٢٩٣ م) وَضَعَ منشوراً عُرِفَ بـ (مَنْشورِ ميْلان) عَدَّ فيهِ إلَهَ المَسيْحيَّةِ بمصافِّ الآلِهَةِ الأُخْرى، فحلَّ إذن إلَهُهُمْ مَعَ غيرِهِ، وسُمِحَ لَهُمْ بمُمارَسَةِ ديْنِهِم.

على أنَّ المَسيْحيينَ ما زالوا يَلْقَونَ المُمانَعَةَ مِنْ قِبَلِ الأرْستُقْراطيينَ الذينَ يعتمدونَ آلِهَةَ الرُّومانِ، ويأْخُذونَ سُلطانَهم منها، والذينَ هم متمسِّكونَ بعباداتِهم القَديْمَة للأصنامِ. وتساهَلَ المَسيْحيونَ مَعَ هَؤلاءِ وأمثالِهم فأدْخَلوا في عَقيْدَةِ النَّصْرانيَّةِ شَيْئاً يعوِّضهم عَنْ عِبادَةِ الأصْنامِ، ألا وَهوَ (تَقْديسُ القدِّيسيين) ثُمَّ قَويَتِ الدِّيانَةُ المَسيْحيَّةُ وانتَشرَتْ، وإذا بها تُصْبِحُ الدِّيانَةَ العامَّةَ للإمْبَراطوريَّةِ الرُّومانيَّةِ.

* مقارنة بيْنَ النَّصْرانيَّة والبَرهميَّةِ:

يَقولُ الشَّيْخُ مُحَمَّد أبو زهرة: والقولُ الجُمْليُّ أنَّ الهُنودَ يَعْتَقِدونَ في

كَرِشنة[1] ما يعتقدُه المَسيْحيونَ في المَسيْحِ، وقد عقدَ صاحِبُ كتابِ (العَقائدُ الوثنيَّةُ في الدّيانَةِ النَّصْرانيَّة) موازنـةً بيْـنَ أقـوالِ الهنـودِ في كَرِشْنَة، وأقْـوالِ المَـسيْحيينَ في المَسيْحِ، فتقارُبَ الاعتِقادان حتَّى أوْشَكا أنْ يتَطابَقا، وإذا كانتِ البَرْهَميَّةُ أسبَقُ من النَّصْرانيَّةِ المُحرَّفَةِ، فَقَدْ عُلِمَ إذنْ المشتقُ والمشتقُ مِنْهُ، والأصْل وَما تفرَّع عنه[2].

ونَنْقُلْ لكَ بعْضاً من هذه الموازنَةِ على سبيلِ المثالِ، وغيره يُقاسُ عليه

أقوال الهنود الوثنيين في كَرِشْنَة ابن الله	أقوال النصارى المسيحيين في يسوع المسيح ابن الله
كَرِشْنَة: (هـو المخلـص والفـادي والمعـزي والراعي الصالح والوسيط وابـن الله والأقنـوم الثاني من الثالوث المقدس، وهوَ الآب والابن وروح القدس).	يسوع المسيح: (هو المخلص والفادي والمعزي والراعي الصالح والوسيط وابن الله والأقنوم الثاني من الثالوث المقدس، وهوَ الآب والابن وروح القدس).
١- قد مجد الملائكة ديفاكي والدة كَرِشْنَة ابن الله، وقالوا يحق للكون أن يفاخر بابن هذه الطاهرة. = كتاب تاريخ الهند المجلد الثاني ص ٣٢٩.	١- دخل الملاك على مريم العذراء والدة يسوع المسيح وقال لها سلام لك أيها المنعم عليها، الرب معك. = إنجيل لوقا الإصحاح ٣، ص ٢٨ – ٢٩، وإنجيل مريم الإصحاح ٧.
٢- عرف الناس ولادة كَرِشْنَة من نجمه الذي ظهر في السماء. = كتاب تاريخ الهند المجلد ٢، ٣١٧، ٣٦٧.	٢- لما ولد يسوع المسيح ظهر نجمه في المشرق وبواسطة ظهور نجمه عرف الناس محل ولادته. = إنجيل متى الإصحاح الثاني العدد ٣
٣- لما ولد كَرِشْنَة سبحت الأرض وأنارها القمر بنوره وترنمت الأرواح وهامت ملائكة السماء فرحاً وطرباً ورتل السحاب بأنغام مطربة. = كتاب فشنوبورانا ص ٥٠٢.	٣- لما ولد يسوع المسيح رتل الملائكة فرحاً وسروراً وظهر من السحاب أنغام مطربة. = إنجيل لوقا الإصحاح الثاني العدد ٣١.
٤- كان كَرِشْنَة من سلالة ملوكانية ولكنه ولد في غار بحال الذل والفقر. = كتاب دوان ص ٢٩٧.	٤- كان يسوع المسيح من سلالة ملوكانية ويدعونه (ملك اليهود) ولكنه ولد في حالة الذل والفقر بغار. = دوان ص ٢٧٩.

---

(١) كَرِشنة أحدُ آلِهَةِ الدِّيانَةِ البَرهميَّة، وسيأتي الكلامُ عنه عندَ الحديثِ عن الهندوسيَّةِ.

(٢) مقارنات الأدْيان ص٢٩- ٤٢.

٥- لما ولد كَرِشْنَة أضئ الغار بنور عظيم وصار وجه أمه ديفاكي يرسل أشعة نور ومجد. = دوان ص ٢٩٧.	٥- لما ولد يسوع المسيح أضئ الغار بنور عظيم أعيا بلمعانه عيني القابلة وعيني خطيب أمه يوسف النجار. = إنجيل ولادة يسوع المسيح الإصحاح ١٢ والعدد ١٣.
٦- ومن بعد ما وضعته صارت تبكي وتندب سوء عاقبة رسالته فكلمها وعزاها. = تاريخ الهند ٢/٣١١.	٦- وقال يسوع المسيح لأمه وَهوَ طفل: يا مريم أنا يسوع ابن الله وجئت كما أخبرك جبرائيل الذي أرسله ابي إليك وقد أتيت لأخلص العالم. = إنجيل الطفولية الإصحاح ١ ع ٢و٣.
٧- وعرفت البقرة أن كَرِشْنَة إله وسجدت له. = دوان ص ٢٧٩.	٧- وعرف الرعاة يسوع وسجدوا له. = إنجيل لوقا الإصحاح الثاني عدد ٨ — ١٠.
٨- وآمن الناس بكَرِشْنَة واعترفوا بلاهوته وقدموا له هدايا من صندل وطيب. = الديانات الشرقية ٥٠٠، والديانات القديمة ٢/ ٣٥٢.	٨- وآمن الناس بيسوع وقالوا بلاهوته وأعطوه هدايا من طيب ومر. = إنجيل متى الإصحاح الثاني العدد ٢.
٩- وسمع نبي الهنود (نارد) بمولد الطفل الإلهي كَرِشْنَة فذهب وزاره في (توكول) وفحص النجوم فتبين له من فحصها أنه مولود إلهي يعبد. = تاريخ الهند م٢، ٣١٧.	٩- ولما ولد يسوع في بيت لحم اليهودية في أيام هيرودس الملك إذ المجوس من المشرق قد جاؤوا إلى أورشليم قائلين: أين هوَ المولود ملك اليهود. = إنجيل متى الإصحاح الثاني عدد١، ٢.
١٠- لما ولد كَرِشْنَة كان (نانندا) خطيب أمه ديفاكي غائباً عن البيت حيث أتى إلى المدينة كي يدفع ما عليه من الخراج للملك. = كتاب فشنو بورانا الفصل ٢ من الكتاب٥.	١٠- ولما ولد يسوع كان خطيب أمه غائباً عن البيت وأتى كي يدفع ما عليه من الخراج للملك. = إنجيل لوقا الإصحاح الثاني من عدد١- ١٧.
١١- ولد كَرِشْنَة بحال الذل والفقر مع أنه من عائلة ملوكانية. = التنقيبات الآسيوية ١/٢٥٩، وتاريخ الهند ٢/١٣٠.	١١- ولد يسوع المسيح بحلة الذل والفقر مع أنه من سلالة ملوكانية. = انظر تعداد نسبه في إنجيل متى وإنجيل لوقا.
١٢- وسمع ناندا خطيب أمه ديفاكي والدة كَرِشْنَة نداء من السماء يقول له: قم وخذ الصبي وأمه فهربهما إلى كاكول واقطع نهر جمنة لأن الملك طالب إهلاكه. = كتاب فشنو بورانا الفصل الثالث	١٢- وأنذر يوسف النجار خطيب مريم والدة يسوع بحلم كي يأخذ الصبي وأمه ويفر بهما إلى مصر لأن الملك طالب إهلاكه. = إنجيل متى الإصحاح الثاني عدد ١٣.

١٣- وسمع حاكم البلاد بولادة كَرِشْنَة الطفل الإلهي وطلب قتل الولد. وكي يتوصل إلى أمنيته أمر بقتل كافة الأولاد الذكور الذين ولدوا في الليلة التي ولد فيها كَرِشْنَة. = دوان ص ٢٨٠.	١٣- وسمع حاكم البلاد بولادة الطفل يسوع الإلهي وطلب قتله وكي يتوصل إلى أمنيته أمر بقتل كافة الأولاد إلى أمنيته أمر بقتل كافة الأولاد الذين ولدوا في الليلة التي ولد فيها يسوع المسيح. = إنجيل متى الإصحاح الثاني.
١٤- واسم المدينة التي ولد فيها كَرِشْنَة (مطرا) وفيها عمل الآيات العجيبة ولم تزل محل التعظيم والاحترام عند الهنود العابدين للأوثان القائلين عن كَرِشْنَة إنه ابن الله وإنه الله إلى يومنا هذا. = تاريخ الهند ٢/ ١٧، والتنقيبات الآسيوية ٧٥٩/١.	١٤- واسم المدينة التي هاجر إليها يسوع المسيح في مصر لما ترك اليهودية المطرية، ويقال إنه عمل فيها آيات وقوات عديدة. = المقدمة على إنجيل الطفولية تأليف هيجين.
١٥- كانت ولادة القديس راما قبل ظهور كَرِشْنَة في الناسوت بزمن قليل وقد سعى فانسا ملك البلاد في إهلاك القديس راما وإهلاك كرشنه أيضاً. = تاريخ الهند م٢، ٣١٦.	١٥- وكانت ولادة يوحنا المعمدان قبل ولادة يسوع المسيح بزمن قليل وقد سعى الملك هيرودس في إهلاك الطفل يسوع المسيح وكان يوحنا مبشراً بولادة يسوع المسيح. = إنجيل تاريخ ولادة يسوع المسيح الإصحاح السادس.
١٦- وربى كَرِشْنَة بين الرعاة ولما جيء به إلى مطرا كان في احتياج عظيم إلى التعليم فأتى له بمعلم خبير وفي وقت قليل فاق على أستاذه في العلوم وأعياه في المسائل العلمية السنسكريتية الدقيقية. = دوان ص ٢٨٠ وتاريخ الهند ٣٢١/٢.	١٦- وأرسل يسوع المسيح إلى عند المعلم زاخوس كي يعلمه فكتب له أحرف ألف، باء وقال ليسوع قل- ألف- فقال الرب يسوع أخبرني أولا عن معنى حرف الألف ومن بعده أقول حرف الباء فتهدد المعلم يسوع بالضرب فقام يسوع وفسر معنى الألف والباء وأخبره عن الحروف المستقيمة والحروف المنحنية والحروف المثناة والتي لها نقط وحركات والتي ليس لها نقط ولماذا وضعت في هذا الترتيب أي بعض الحروف قبل غيرها وطفق يخبر عن أشياء لم يسمع بها المعلم من قبل ولم يقرأها في كتاب. = إنجيل الطفولية الإصحاح العشرين عدد١إلى ٨.
١٧- وفي أحد الأيام كان كَرِشْنَة سائراً مع قطيع من البقر فاختراوه ملكاً عليهم وذهبت كل بقرة إلى المكان الذي عينه لها هذا الملك. = تاريخ الهند المجلد الثاني ص ٣١٢.	١٧- وفي شهر أزار جمع يسوع الأولاد ورتبهم كأنه ملك عليهم وإذا مر بهم أحد كانوا يأخذونه غصباً ويأمرونه بالسجود للملك. = إنجيل الطفولية الإصحاح ١٨ ع ١- ٣.

١٨- كَرِشْنة صلب ومات على الصليب.	١٨ – يسوع صلب ومات على الصليب.
١٩- وسرق بعض أصحاب كَرِشْنَة مع عجولهم وأخفاهم السارقون في غار فخلق كَرِشْنة أصحاباً وعجولا مثلهم في الشكل والهيئة. = تاريخ الهند المجلد الثاني ص ١٥ وكتاب خرافات الآريين المجلد الثاني ص ١٣٦.	١٩- وأخفى الأولاد الذين يلعبون مع يسوع أنفسهم في فرن فبدلوا إلى هيئة جداء فناداهم يسوع تعالوا إلى هنا ياأيها الأولاد لنلعب فأعيدت تلك الجداء إلى هيئتهم الأولى صبياناً. = إنجيل الطفولية الإصحاح ١٨.
٢٠- وأول الآيات والعجائب التي عملها شفاء الأبرص. = إنجيل متى الإصحاح الثامن العدد الثاني.	٢٠- وأول الآيات والعجائب التي عملها يسوع المسيح هي شفاء الأبرص. = تاريخ الهند المجلد الثاني ص٣١٩.
٢١- وأوتي كَرِشْنة بإمرأة فقيرة مقعدة ومعها إناء فيه طيب وزيت وصندل وزعفران وغير ذلك من أنواع الطيب فدهنت منه جبين كَرِشْنة بعلامة مخصوصة وسكبت الباقي على رأسه. = تاريخ الهند المجلد الثاني.	٢١- وفيما كان يسوع في بيت عتيا في سمعان الأبرص تقدمت إليه امرأة معها قارورة طيب كثيرة الثمن فسكبته على رأسه وَهوَ متكئ. = متى الإصحاح ٢٦ عدد ٦- ٧.
٢٢- وفي أحد الأيام لسعت الحية بعض أصحاب كَرِشْنَة الذين يلعب معهم فماتوا فأشفق عليهم لموتهم الباكر ونظر إليهم بعين ألوهية فقاموا سريعاً من الموت وعادوا أحياء. = تاريخ الهند المجلد الثاني ص ٣٤٣.	٢٢- وبينما كان يسوع يلعب لسعت الحية أحد الصبيان الذين كان يلعب معهم فلمس يسوع ذاك الصبي بيده فعاد إلى حال صحته. = إنجيل الطفولية الإصحاح ١٨.
٢٣- لما مات كَرِشْنة حدثت مصائب وعلامات شر عظيم وأحاط بالقمر هالة سوداء وأظلمت الشمس في وسط النهار وأظلمت الشمس من الساعة السادسة إلى الساعة التاسعة وفتحت القبور وقام كثيرون من القديسين وخرجوا من قبورهم. = كتاب ترقى التصورات الدينية ١/١٧.	٢٣- لما مات يسوع حدثت مصائب جمة متنوعة وانشق حجاب الهيكل من فوق إلى تحت، وأمطرت السماء ناراً ورماداً وتأججت أشعة نار حامية. وصار الشياطين يفسدون في الأرض وشاهد الناس ألوفاً من الأرواح في جو السماء يتراوحون صباحاً ومساء وكان ظهورها في كل مكان. = إنجيل متى الإصحاح الثاني والعشرين وإنجيل لوقا.
٢٤- وثقب جنب كَرِشْنة بحربة. = دوان ص ٢٨٣.	٢٤- وثقب جنب يسوع بحربة. = دوان ص ٢٨٢.

كرشنة	يسوع
٢٥- وقال كَرِشْنة للصياد الذي رماه بالنبلة وَهوَ مصلوب اذهب أيها الصياد محفوفاً برحمتي إلى السماء مسكن الآلهة. = فشنو برانا ص ٢٨٢.	٢٥- وقال يسوع لأحد اللصين اللذين صلبا معه الحق أقول لك إنك اليوم تكون معي في الفردوس. = إنجيل لوقا الإصحاح ٢٣ عدد ٣ - ٤.
٢٦- ومات كَرِشْنة ثم قام من بين الأموات. = دوان ص ٢٨٢.	٢٦- ومات يسوع ثم قام من بين الأموات. = إنجيل متى الإصحاح ٢٨.
٢٧- ونزل كَرِشْنة إلى الجحيم. = دوان ص ٢٨٢.	٢٧- ونزل يسوع إلى الجحيم. = دوان ص ٢٨٢. وكتاب الإيمان المسيحي.
٢٨- وصعد كَرِشْنة بجسده إلى السماء وكثيرون شاهدوه صاعداً. = دوان ص ٢٨٢.	٢٨- وصعد يسوع إلى السماء وكثيرون شاهدوه صاعداً. = إنجيل متى الإصحاح الرابع والعشرين
٢٩- ولسوف يأتي كَرِشْنة في اليوم الأخير ويكون ظهوره كفارس مدجج بالسلاح وراكب على جواد أشهب وعند مجيئه تظلم الشمس والقمر وتزلزل الأرض وتهتز وتتساقط النجوم من السماء. = دوان ص ٢٨٢.	٢٩- ولسوف يأتي يسوع في اليوم الأخير كفارس مدجج بالسلاح وراكب على جواد أشهب وعند مجيئه تظلم الشمس والقمر وتزلزل الأرض وتهتز وتتساقط النجوم من السماء. = إنجيل متى الإصحاح ٢٤.
٣٠- وَهوَ أي كَرِشْنة يدين الأموات في اليوم الأخير. = دوان ص ٢٨٣.	٣٠- ويدين يسوع الأموات في اليوم الأخير. = متى الإصحاح ٢٤ ع ١- ٣ ورسالة الرومانيين.
٣١- ويقولون عن كَرِشْنة: الخالق لكل شيء ولولاه لما كان شيء مما كان فَهوَ الصانع الأبدي. = دوان ص ٢٨٢.	٣١- ويقولون عن يسوع المسيح: إنه الخالق لكل شيء ولولاه لما كان شيء مما كان فَهوَ الصانع الأبدي. = إنجيل يوحنا الإصحاح ١ من ع ٣، ١ ورسالة كورنسوس الأولى افسس الإصحاح ٣ ع ٩.
٣٢- كَرِشْنة الألف والباء وهوَ الأول والوسط وآخر كل شيء. = دوان ص ٢٨٢.	٣٢- يسوع الألف والباء وهوَ الأول والوسط وآخر كل شيء. = سفر الرؤية الإصحاح الأول العدد ٩.
٣٣- كان كَرِشْنة يحب تلميذه أرجونا أكثر من بقية التلاميذ. = كتاب بها كافات كيتا.	٣٣- كان يسوع يحب تلميذه يوحنا أكثر من بقية التلاميذ. = إنجيل يوحنا الإصحاح ١٣العدد ٢٣.
٣٤- لما كان كَرِشْنة على الأرض حارب الأرواح الشريرة غير مبال بالأخطار التي	٣٤- لما كان يسوع على الأرض كان يحارب الأرواح الشريرة غير مبال الأخطار التي كانت تكتنفه وكان ينشر تعاليمه بعمل

كانت تكتنفه ونشر تعاليمه بعمل العجائب والآيات كإحياء الميت وشفاء الأبرص والأصم والأعمى وإعادة المخلوع كما كان أولا، ونصرة الضعيف على القوي، والمظلوم على ظالمه وكانوا إذ ذاك يعبدونه، ويزدحمون عليه ويعدونه إلهاً.	العجائب والآيات، كإحياء الميت وشفاء الأبرص والأصم والأخرس والأعمى والمريض، وينصر الضعيف على القوي والمظلوم على ظالمه وكان الناس يزدحمون عليه ويعدونه إلهاً. = انظر الإنجيل والرسائل ترى كثيراً من هذا الذي ذكرناه.
٣٥- وفي حضور أرجونا بدلت هيئة كَرِشْنَة وأضاء وجهه كالشمس ومجد العلى اجتمع إله فأحنى أرجونا رأسه تذللا ومهابة وتكتف تواضعاً وقال باحترام: الآن رأيت حقيقتك كما أنت وإني أرجو رحمتك يا رب الأرباب فعد واظهر في ناسوتك ثانية أنت المحيط بالملكوت. = دين الهنود لمورس وليمس ص ٢١٥.	٣٥- وبعد ستة أيام أخذ يسوع بطرس ويعقوب ويوحنا أخاه وصعد بهم إلى جبل الآلهة عال منفردين وتغيرت هيئته قدامهم وأضاء وجهه كالشمس وصارت ثيابه بيضاء كالثلج وفيما هوَ يتكلم إذا سحابة نيرة ظللتهم وصوت من السحابة قائل هذا هوَ ابن الحبيب الذي سررت له اسمعوا ولما سمع التلاميذ سقطوا على وجههم وخافوا جداً. = إنجيل متى الإصحاح ١٧من عدد ١ إلى ٩.
٣٦- وكان كَرِشْنَة خير الناس خلقاً وخلقاً وعلماً بإخلاص ونصح وهوَ الطاهر العفيف مثال الإنسانية وقد تنازل رحمة ووداعة وغسل أرجل البرهميين وهوَ الكاهن العظيم براهما وَهوَ العزيز القادر ظهر لنا بالناسوت. = المرجع السابق ص ١٤٤.	٣٦- كان يسوع خير الناس خلقا وخلقاً وعلماً بإخلاص وهوَ الطاهر العفيف مكمل الإنسانية ومثالها وقد تنازل رحمة ووداعة وغسل أرجل التلاميذ وهوَ الكاهن العظيم القادر ظهر لنا بالناسوت. = إنجيل يوحنا الإصحاح ١٣.
٣٧- كَرِشْنَة هوَ براهما العظيم القدوس وظهوره بالناسوت سر من أسرار العجيبة الإلهية. = فشنوبورانا ص ٤٩٢ شرح حاشية ع٣.	٣٧- يسوع وه يهوه العظيم القدوس وظهوره في الناسوت سر أسراره العظيمة الإلهية. - رسالة ثيموثاوس الأولى الإصحاح الثالث.
٣٨- كَرِشْنَة الأقنوم الثاني من الثالث المقدس عند الهنود الوثنيين القائلين بألوهيته. = كتاب مورس وليمس المدعو العقائد.	٣٨- يسوع الأقنوم الثاني من الثالوث المقدس عن النصارى. = انظر كافة كتبهم الدينية وكذلك الأناجيل والرسائل.
٣٩- وأمر كَرِشْنَة كل من يطلب الإيمان	٣٩- وأمر يسوع كل من يطلب الإيمان بإخلاص أن يفعل

بإخلاص أن يترك أملاكه وكافة ما يشتهيه ويحبه من مجد هذا العالم ويذهب إلى مكان خال من الناس ويجعل تصوره في الله فقط. = ديانة الهنود الوثنية ص ٢١١.	كما يأتي وأما أنت فمتى صليت فادخل إلى مخدعك وأغلق بابك وصل إلى أبيك الذي في الخفاء فأبوك الذي يرى في الخفاء يجازيك علانية. = إنجيل متى الإصحاح ٦ عدد ٦.
٤٠- وقال كَرِشْنة لتلميذه الحبيب أرجونا مهما عملت ومهما أعطيت الفقير ومهما أكلت ومهما قربت من قربان ومهما فعلت من الأفعال المقدسة فليكن جميعه بإخلاص لي أنا الحكيم والعليم ليس لي ابتداء وأنا الحاكم المسيطر والحافظ. = ديانة الهنود لمورس وليمس ص ٢١١.	٤٠- فإذا كنتم تأكلون أَوْ تشربون أَوْ تفعلون شيئاً فافعلوا كل شيء لمجد الله. = رسالة كورنسوس الأولى الإصحاح ١٠ ع ١-٣.
٤١- قال كَرِشْنة أنا علة وجود الكائنات فيَّ كانت وفيَّ تحل وعليّ جميع ما في الكون يتكل وفيَّ يتعلق كاللؤلؤ المنظوم في خيط. = ديانة الهنود لمورس وليمس ص ٢١٢.	٤١- من يسوع وفي يسوع وليسوع كل شيء وكل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء به كان. = إنجيل يوحنا الإصحاح الأول من عدد ٣١
٤٢- وقال كَرِشْنة أنا النور الكائن في الشمس والقمر وأنا النور الكائن في اللهب وأنا نور كل ما يضيء ونور الأنوار ليس في ظلمة. = ديانة الهنود لمورس وليمس ص ٢١٣.	٤٢- ثم كلمهم يسوع قائلا أنا هوَ نور العالم من يتبعني فلا يمشي في الظلمة. = إنجيل يوحنا الإصحاح ٨ العدد ١٢.
٤٣- قال كَرِشْنة أنا الحافظ للعالم وربه وملجؤه وطريقه. = دوان ص ٢٨٣.	٤٣- قال له يسوع أنا هوَ الطريق الحق والحياة ليس أحد يأتي الأب إلا بي. = إنجيل يوحنا الإصحاح الرابع عشر عدد ٦.
٤٤- وقال كَرِشْنة، أنا صلاح الصالح وأنا الابتداء والوسط الأخير والأبدي وخالق كل شيء وأنا فناؤه ومهلكه. = ديانة الهنود لمورس وليمس ص ٢١٣.	٤٤- وقال يسوع، أنا هوَ الأول والآخر ولي مفاتيح الهاوية والموت. = رؤيا يوحنا الإصحاح الأول ع ١٨ – ١٧.
٤٥- وقال كَرِشْنة لتلميذه الحبيب: لا تحزن يا أرجونا من كثرة ذنوبك أنا أخلصك منها فقط تثق بي وتتوكل عليَّ، واعبدني واسجد لي، ولا تتصور أحداً سواي، لأنك هكذا	٤٥- وقال يسوع للمفلوج: ثق يا بني مغفورة لك خطاياك، يا بني أعطني قلبك والمدينة لا تحتاج إلى شمس ولا إلى قمر ليضيئا فيها الحروف سراجها. = متى الإصحاح ٩ ع ٢، سفر الأمثال الإصحاح ٣٢ ع ٢٦،

تأتي إلى المسكن العظيم الذي لا حاجة فيه لضوء الشمس والقمر اللّذين نورهما منّي. = ديانة الهنود لمورس وليمس ص ٢١٣.	سفر الرؤيا الإصحاح ١٢ ع ٢٣.

مقارنة بيْنَ النَّصْرانيَّة والبوذيَّة:

يَقولُ الشَّيْخُ مُحَمَّد أبو زهرة: ومن الغريب أن الأَوْهامَ التي جعلها بوذيو التبت أوصافاً لبوذا تتوافق مَعَ ما ينحله المَسيْحيون شخصية المَسيْحِ بَعْدَ تغيير النَّصْرانيَّة، وها هيَ ذي بَعْضُ المقابلات بَيْنَهُما لتعرف وجه التطابق، (منقولة من كتاب العقائد الوثنية في الدّيانَةِ النَّصْرانيَّة)[1]

أقوال الهنود الوثنيين في بوذا ابن الله	أقوال النصارى في المسيح ابن الله
١- كان تجسد بوذا بواسطة حلول روح القدس على العذراء مايا.	١- كان تجسد يسوع المسيح بواسطة حلول الروح القدس على العذراء مريم.
٢- لما نزل بوذا من مقعد الأرواح ودخل في جسد العذراء مايا صار رحمها كالبلور الشفاف النقي وظهر بوذا فيه كزهرة جميلة.	٢- لما نزل يسوع عن مقعده السماوي ودخل في جسد مريم العذراء صار رحمها كالبلور كزهرة جميلة. الشفاف النقي وظهر فيه يسوع
٣- وقد دل على ولادة بوذا نجم ظهر في أفق السماء ويدعونه (نجم بوذا)	٣- وقد دل على ولادة يسوع نجم ظهر في المشرق، وقال داون: من الواجبات أن يدعى (نجم المسيح)
٤- لما ولد بوذا فرحت جنود السماء ورتلت الملائكة أناشيد المجد للمولود المبارك قائلين: ولد اليوم بوذا على الأرض كي يعطي الناس المسرات والسلام ويرسل النور إلى المحلات المظلمة وتهب بصراً للعمى.	٤- لما ولد يسوع فرحت ملائكة السماء والأرض ورتلوا الأناشيد حمداً للواحد المبارك قائلين: المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام وبالناس المسرة.
٥- وعرف الحكماء بوذا وأدركوه أسرار لاهوته ولم يمض يوم على ولادته حتى حياه الناس ودعوه إلهاً. = دوان ص ٢٩٠.	٥- وقد زار الحكماء يسوع وأدركوا أسرار لاهوته ولم يمض يوم على ولادته حتى دعوه إله الآلهة. = إنجيل متى الإصحاح الثاني من عدد ١ إلى ١١.
٦- وأهدوا بوذا وَهوَ طفل هدايا من مجوهرات وغيرها	٦- وأهدوا يسوع وَهوَ طفل هدايا من ذهب

---

(١) مقارنات الأدْيان ص٥٤ - ٦٨.

من الأشياء الثمينة. = دوان ص ٢٩٠.	وطيب. = إنجيل متى من الإصحاح ٢ عدد ١١.
٧- لما كان بوذا طفلا قال لأمه مايا إنه أعظم الناس جميعاً. = كتاب هردى العقائد البوذية (١٤٥-١٤٦).	٧- لما كان يسوع طفلا قال لأمه مريم (أنا ابن الله). = إنجيل الطفولية الإصحاح ١عدد ٣.
٨- كان بوذا ولداً مخيفاً وقد سعى الملك بميساراً وراء قتله لما أخبره أن هذا الغلام سينزع الملك من يده إن بقي حياً. = كتاب تاريخ البوذية تأليف نيل ص ١٠٤- ١٠٣.	٨- كان يسوع ولداً مخيفاً سعى الملك هيرودوس وراء قتله كيلا ينزع الملك من يده. = إنجيل متى الإصحاح الثاني العدد الأول.
٩- لما أرسل بوذا إلى المدرسة أدهش الأساتذة مع أنه لم يدرس من قبل وفاق الجميع في الكتابة والرياضيات والعلوم العقلية والهندسية والتنجيم والكهانة والعراقة. = هردى (العقائد البوذية) وتاريخ الديانة البوذية لنيل.	٩- لما أرسل يسوع إلى المدرسة أدهش أستاذه ذاخيوس وقال لأبيه يوسف (لقد أتيتني بولد لأعلمه مع أنه أعلم من كل معلم). = إنجيل الطفولية الإصحاح ٢٠ عدد وإنجيل لوقا.
١٠- لما صار عمر بوذا اثنتي عشرة سنة دخل الهياكل وصار يسأل أهل العلم مسائل عويصة ثم يوضحها لهم حتى فاق كافة مناظريه. = بنصن (الملاك المسيح) ص ٣٧.	١٠- لما صار عمر يسوع اثنتي عشرة سنة جاءوا به إلى أورشليم وصار يسأل الأحبار والعلماء مسائل مهمة ثم يوضحها لهم وأدهش الجميع. = إنجيل الطفولية الإصحاح ٢١ عدد ٢١.
١١- ودخل بوذا مرة أحد الهياكل فقامت الأصنام من أماكنها وتمددت عند رجليه سجوداً له. = بنصن (الملاك المسيح) ٦٧ إلى ٦٩.	١١- وكان يسوع ماراً قرب حاملي الأعلام فأحنت الأعلام رؤوسها سجوداً له. = إنجيل نيكوديموس الإصحاح الأول العدد ٢٠.
١٢- ويصلون نسب غوتاما بوذا من أبيه (صدودانا) في أناس كلهم من سلالة ملوكانية إلى ماها سماطا وَهوَ على زعمهم أول ملك صار في الدنيا. والحوادث والأنساب المذكورة في كتاب (بيوراز) البرهمي. وجد في أنسابه غير أنه لا يمكن تحقيق الحوادث ونسيتها مع غيرها وسبب ذلك هو أن مؤرخي البوذيةاخترعوا فيها أسماء تمكنهم من إعلان نسب حكيمهم فوق اعتبارهم إياه إلها. = دوان ص ٢٩.	١٢- ويعدون سلالة يسوع من أبيه يوسف في أشخاص مختلفين وكلهم من سلالة ملوكانية إلى آدم أبي البشر وكثير من الأسماء والحوادث المذكورة في سلالته مذكورة في التوراة كتاب اليهود.

١٣- لما عزم بوذا على السياحة قصد التعبد والتنسك وظهر عليه (مارا) أي الشيطان كي يجربه. = دوان ص ٢٩٢.	١٣- لما شرع يسوع في التبشير ظهر له الشيطان كي يجربه. = إنجيل متى الإصحاح ٤ عدد ١- ٨.
١٤- وقال مارا (الشيطان) لبوذا لا تصرف حياتك في الأعمال الدينية لأنك بمدة سبعة هذه أيام تصير ملك الدنيا. = دوان ص ٢٩٢.	١٤- وقال (اي إبليس) له (أي يسوع) أعطيك (أي الدنيا) جميعها إن خررت لي وسجدت لي. = إنجيل متى الإصحاح ٤ من ١٠- ١١.
١٥- فلم يعبأ بوذا بكلام الشيطان بل قال له: اذهب عني. = دوان ص ٢٩٢.	١٥- فأجابه المسيح وقال: اذهب يا شيطان. = إنجيل لوقا الإصحاح ٤ عدد ٨.
١٦- ولما ترك مارا (أي الشيطان) تجربة بوذا أمطرت السماء زهراً وطيباً ملأ الهواء طيب عرفه. = دوان ص ٢٩٢.	١٦- ثم تركه إبليس وإذا ملائكة قد جاءت فصارت تخدمه. = إنجيل متى الإصحاح ٤ عدد ١١.
١٧- وصام بوذا وقتاً طويلا. = دوان ص ٢٩٢.	١٧- وصام يسوع وقتاً طويلا. = إنجيل متى الإصحاح ٤، عدد: ٢.
١٨- وقد عمد بوذا المخلص حين عمادته بالماء وكان روح الله حاضراً وَهوَ لم يكن الإله العظيم فقط بل وروح القدس الذي فيه صار تجسد غوتاما لما حل على العذراء مايا. = كتاب الملاك المسيح ص ٤٥ تأليف بنصن.	١٨- ويوحنا عمد يسوع بنهر الأردن وكانت روح الله حاضرة وَهوَ لم يكن الإله العظيم فقط بل والروح القدس الذي فيه تجسده عندما حل بالعذراء مريم فَهوَ الآب والابن وروح القدس. = إنجيل متى الإصحاح ٧ عدد ٢، ١.
١٩- ولما كان بوذا على الأرض في أواخر أيامه بدلت هيئته وَهوَ إذ ذاك على جبل (بنداقا) أي الأصفر المبيض في (سيلان) ونزل عليه بغتة نوراً أحاط برأسه على شكل إكليل ويقولون إن جسده أضاء منه نور عظيم وصار كتمثال من ذهب براق مضيء كالشمس أوْ القمر وحينئذ تحول إلى ثلاثة أقسام مضيئة وحينما رأى الحاضرون هذا التحول في هيئته قالوا ما هذا بشراً إن هوَ إلا إله عظيم. = كتاب الملاك المسيح ص ٤٥.	١٩- لما كان يسوع على الأرض بدلت هيئته وبعد ستة أيام أخذ يسوع بطرس ويعقوب ويوحنا أخاه وصعد بهم إلى جبل عال منفردين وتغيرت هيئته قدامهم وأضاء وجهه كالشمس وصارت ثيابه بيضاء كالنور.

٢٠- وعمل بوذا عجاب وآيات مدهشة لخير الناس وكافة القصص المختصة فيه حاوية لذكرى أعظم العجائب بما يمكن تصوره. = دوان ص ٢٩٣.	٢٠- وعمل يسوع عجائب وآيات مدهشة لخير الناس وكافة القصص المختصة فيه حاوية لذكرى أعظم العجائب بما يمكن تصوره. = إنجيل متى الإصحاح ٨، ع ٢٨- ٣٤، وغيره.
٢١- وفي صلاتهم لبوذا يتأمل المؤمنون به دخول الفردوس. = دوان ص ٢٩٣.	٢١- وفي صلاتهم ليسوع يتأمل المؤمنون بألوهيته دخول الفردوس. = دوان ص ٢٩٣.
٢٢- لما مات بوذا ودفن انحلت الأكفاء وفتح التابوت بقوة غير طبيعية (أي بقوة إلهية). = كتاب بنصن الملاك المسيح: ٤٩.	٢٢- لما مات يسوع ودفن انحلت الأكفان وفتح القبر بقوة إلهية. = إنجيل متى الإصحاح: ٢٨، ويوحنا: ٢٠.
٢٣- وصعد بوذا إلى السماء بجسده لما أكمل عمله على الأرض. = دوان ص ٢٩٣.	٢٣- وصعد يسوع بجسده إلى السماء من بعد صلبه لما أكمل عمله على الأرض. = أعمال الرسل الإصحاح ١ عدد ١- ١٢.
٢٤- ولسوف يأتي بوذا مرة ثانية إلى الأرض ويعيد السلام والبركة فيها. = دوان ص ٢٩٣.	٢٤- ولسوف يأتي يسوع مرة ثانية إلى الأرض ويعيد السلام والبركة فيها. = أعمال الرسل الإصحاح الأول.
٢٥- وسيدين بوذا الأموات. = دوان ص ٢٩٣.	٢٥- وسيدين يسوع الأموات. = إنجيل متى الإصحاح ٦، عدد: ٢٢.
٢٦- بوذا الألف والياء ليس له انتهاء وَهوَ الكائن العظيم؛ والواحد الأزلي. = دوان ص ٢٩٣.	٢٦- يسوع الألف والباء ليس له انتهاء وهوَ الكائن العظيم، والواحد الأبدي. = إنجيل يوحنا الإصحاح ١، عدد: ١.
٢٧ – قال بوذا فلتكن الذنوب التي ارتكبت في هذه الدنيا عليه، ليخلص العالم من الخطيئة. = كتاب مولر تاريخ الآداب السنسكريتية ص ٨٠.	٢٧- يسوع هوَ مخلص العالم وكافة الذنوب التي ارتكبت في العالم تقع عليه عن الذين اقترفوها ويخلص العالم. = دوان ص ٢٩٣ وكذلك التعليم المسيحي.
٢٨- قال بوذا: أخفوا الأعمال الحسنة التي تفعلونها، واعترفوا بذنوبكم علانية. = مولر كتابه المدعو العلوم الدينية ص ٢٨.	٢٨- قال يسوع: أخفوا الأعمال الحسنة التي تفعلونها، واعترفوا بذنوبكم علانية. = إنجيل متى صحا ٦، ع ١، ورسالة يعقوب.
٢٩- ويصفون بوذا أنه ذات من نور غير طبيعية والشرير	٢٩- ويصفون يسوع أنه ذات من نور طبيعية

مارا (ويدعونه أيضاً الحية) ذات مظلمة غير طبيعية. = بنصن الملاك المسيح: ٣٩، ودوان: ٢٩٤.	شمس بر وعدوه الشيطان الحية القديمة. = إنجيل يوحنا الإصحاح ٤ العدد١، وإنجيل لوقا.
٣٠ – وفي أحد الأيام التقى أناندا تلميذ بوذا وَهوَ سائر في البلاد بالمرأة (مناجى) وهي من سبط الكندلاس المرذولين قرب بئر ماء، فطلب منها قليلا من الماء فأخبرته عن سبطها وأنه لا يجوز له أن يقترب منه، لأنها من سبط محتقر، فقال لها يا أختي غني لم أسألك عن سبطك وعن عائلتك، إنما سألتك شربة ماء فصارت من ذاك الحين تلميذة بوذية. = كتاب مولر المدعو العلوم الدينية ص ١٤٠.	٣٠- وفي أحد الأيام قعد يسوع قرب بئر ماء بعد ما سار مسافة، حتى كان ينهكه التعب وبينما هوَ قرب البئر عند مدينة السامرة أتت امرأة سامرية لتملأ جرتها من البئر، فقال لها يسوع اسقيني شربة ماء فقالت له المرأة السامرية: أنت يهودي وكيف تطلب مني شربة ماء فإن اليهود لا يستحلون معاملة السامريين. = إنجيل يوحنا الإصحاح ٤، عدد ١:١١.
٣١- قال بوذا إنه لم يأت لينقض الناموس كلا بل أتى ليكمله وقد سره عد نفسه حلقة سلسلة المعلمين الحكماء. = كتاب بنصن الملاك المسيح ص ٤٧-٤٨.	٣١- قال يسوع لا تظنوا أني جئت لأنقض في الناموس أوْ الأنبياء ما جئت لأنقض بل لأكمل. = إنجيل متى الإصحاح، ٥عدد: ١٧.
٣٢- وبحسب تعليم بوذا يجب أن تكون كافة أعمالنا مع أهلنا وجيراننا بالمحبة والحسنى.	٣٢- وقال يسوع أحبوا أعداءكم، باركوا لاعِنِيْكُم، أحسِنوا إلى مُبْغضيكُم. = إنجيل متى الإصحاح ٥، عدد ٤٤.
٣٣- وفي أوائل أيام بوذا التي علم وبشر فيها ذهب إلى مدينة بينارس وعلم فيها فتبعه كوندينا ثم تبعه أربعة رجال آخرين وصاروا جميعهم تلامذة له، ومن ذلك الحين صار أينما علم وكرز يتبعه رجال ونساء كثيرون يصيرون من أتباعه وتلاميذه.	٣٣- وفي أوائل أيام يسوع التي علم وبشر فيها ذهب إلى مدينة كفر ناحوم وعلم فيها فتبعه من ذاك الحين أربعة رجال صيادين وصاروا تلاميذ له، ومن هذا الحين صار أينما كرز و يتبعه رجال ونساء كثيرون يؤمنون به. = إنجيل متى الإصحاح ٤ عدد ١٣-٢٥.
٣٤- وقال بوذا للذين صاروا تلامذة ليتركوا الدنيا وغناهم وينذروا عيشة الفقر والفاقة. = هاردى في كتابه المدعو الرهبانية في الشرق ص ٥، ٦٢.	٣٤- وقال يسوع للذين صاروا تلامذة له ليتركوا غناهم وينذروا عيشة الفقر والفاقة. = إنجيل متى صحا ٨ عدد ٢٠، ١٩، و صحا ١٦ ع ٢٦ – ٣٥.
٣٥- وجاء في كتاب البوذية القانونية المقدسة أن الجموع طلبوا من بوذا علامة (أي آية) ليؤمنوا به.	٣٥- وجاء في كتب النصارى المقدسة أن الجموع طلبوا من يسوع آية كي يؤمنوا به.

= كتاب علم الأديان ص ٣٧ تأليف مولر.	= إنجيل متى الإصحاح ١٢، عدد: ١٢.
٣٦- لما اقترب انتهاء أيام بوذا على الأرض وعلم الحوادث المقبلة التي ستقع قال لتلميذه: أناندا ما يأتي يا أناندا متى أنا ذهبت لا تظن أنه لم يعد لبوذا وجود كلا، فالكلام الذي قلته والفرائض التي افترضتها تكون خلفاً عني وهي لك كذاتي أنا. - كتاب الموناشيزم الشرقية ص ٢٣٠ تأليف هاردى.	٣٦- لما اقترب انتهاء أيام يسوع على الأرض أخبر عن الحوادث التي ستقع من بعده وقال لتلاميذه: اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم. وعلموهم أن يحفظوا هم جميع ما أوصيتكم به وها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر. - إنجيل متى صحا ٢٤ وإنجيل مرقس صحا ٨ ع٣١.
٣٧- وجاء في التعاليم البوذية أن إنفاق الإنسان لماله من أعظم الصعوبات ومن ينفق غناه هوَ أشبه بمن يهب روحه؛ لأن النفس تبخلبالمال وتتمسك به، وبوذا قد وهب ونذر حياته شفقة وحنواً لخير الناس، فلماذا نتمسك بفناء الدنيا الزهيد، ولما تخلص بوذا من حب المشتهيات الدنيوية وملذاتها قنال المعرفة الإلهية وصار الرأس فليعمل الرجل الحكيم الهاجر للمذات الدنيا الخير مع كل أحد حتى تقديم نفسه فداء عن الغير، عندها يصل إلى المعرفة الحقيقية. = مولر في كتاب علوم الدين ص ٢٤٤.	٣٧- وإذا واحد تقدم وقال له أيها المعلم الصالح أي صلاح أعمل ليكون الحياة الأبدية. قال له يسوع: إن أردت أن تكون كاملا فاذهب اعط وبع أملاكك والفقراء فيكون لك كنز في السماء وتعال اتبعني لا تكتنزوا لكم كنوزاً على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ وحيث ينقب السارقون ويسرقون بل اكنزوا لكم كنوزاً في السماء حيث لا يفسد سوس ولا صدأ وحيث لا ينقب سارقون ولا يسرقون. = إنجيل متى صحا ٦ ع ١٩- ٢٠.
٣٨- وكان قصد بوذا تشييد مملكة دينية أي مملكة سماوية. = بيل تاريخ البوذية ص ١٠.	٣٨- ومن ذلك الزمان ابتدأ يسوع يكرز يقول توبوا لأنه اقترب ملكوت السموات. = إنجيل متى الإصحاح ٤ ع ٧.
٣٩- وقال بوذا الآن أحببت إدارة دولاب الشريعة العظيم، ومن أجل هذا فإني ذاهب إلى مدينة بينارس لأهب نوراً للتأهين في الظلام وأفتح باب الحياة للإنسانية. = بيل تاريخ البوذية ص ١١٤.	٣٩- من بعد تجربة الشيطان ليسوع ابتدأ يسوع بتأسيس مملكة دينية، ومن أجل هذا الغرض ذهب إلى مدينة كفر ناحوم ومن ذلك الزمان ابتدأ يسوع يكرز ويقول توبوا لأنه قد اقترب ملكوت الله الشعب الجالس في ظلمة أبصر نوراً عظيماً، والجالسون في كورة الموت وظلاله أشرق عليهم نور. = إنجيل متى صحا ٤ ع ١٧-٢١.

٤٠- وقال بوذا للتلميذ الحبيب أناندا إن كلامي لا ريب فيه فلا يزول قطعياً ولو وقعت السماوات على الأرض وابتلع العالم وجفت البحار واندك جبل سومر وصار قطعاً. = بيل تاريخ البوذية ص ١١.	٤٠- الناموس أعطى لموسى أماً النعمة والحق فبيسوع المسيح صار الحق أقول لكم السماء والأرض تزول ولكن كلامي لا يزو. = إنجيل يوحنا الإصحاح الأول وإنجيل لوقا.
٤١- قال بوذا: لا يوجد شيء أعظم فعلا في الإنسان من الاشتهاء والهواء الشهواني ولحسن الحظ والسعادة لا يوحد سوى اشتهاء شهواني واحد ولو كان يوحد اشتهاء آخر لما كان على وجه الأرض رجل يتبع الحق فاحترسوا من تحقيق بصركم في النساء وإن كنتم مجتمعين معهن فاجعلوا اجتماعكم كأنكم غير حاضرين معهن وإذا كلمتوهن فاحترسوا على قلوبكم. = كتاب تقديم الأفكار الدينية ١/ ٢٢٨.	٤١- قال يسوع: قد سمعتم أنَّه قيل للقدماء لا تزن، وأما أنا فأقول لكم إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها قلبه. = إنجيل متى صحا ٥ ع ٢٧- ٢٨.
٤٢- وقال بوذا الرجل العاقل الحكيم لا يتزوج قط ويرى الحياة الزوحية كأتون نار متأججة ومن لم يقدر على العيشة الرهبانية يجب عليه الابتعاد عن الزنا. = ريس دانس في كتابه المدعو البوذية ص ١٠٣	٤٢- فحسن للرجل أن لا يمس امرأة ولكن إن لم يضبطوا أنفسهم فليتزوجوا لأن التزويج أصلح من التحرق. = رسالة كورنثوس الأولى الإصحاح ٧ عدد ١.
٤٣- ومن جملة التعاليم البوذية قولهم إذا أصاب الإنسان حزن وآلام وبؤس وقنوط فإن ذلك يدل على أنه ارتكب آثاماً، وهذه الآلام جزاء عليها، وإذا لم يكن ارتكب شيئاً من الآثام في هذا الدور الحاضر من حياته فلا بد أن يكون قد ارتكبه في أحد الأدوار السابقة من ظهوره (أي في أحد أدوار تقمصه). = ريس دانس في كتابه البوذية ص ١٠٤.	٤٣- وفيما هوَ مجتاز رأى إنساناً أعمى منذ ولادته فسأله تلاميذه قائلين: يا معلم من أخطأ ... هذا أم أبواه حتى ولد أعمى. = إنجيل يوحنا الإصحاح التاسع عدد ١ — ٢.
٤٤- كان بوذا يعلم أفكار الناس عندما يدير تصوراته نحوهم ويقدر على معرفة أفكار المخلوقات كلها. = هردى في كتابه خرافات البوذيين ص ١٨	٤٤- كان يسوع يعلم أفكار الناس عندما يدير تصوراته نحوهم وأنه قادر على معرفة أفكار المخلوقات كلها. = إنجيل يوحنا صحا ٤ كلامه مع السامرية.
٤٥- وجاء في كتاب الصومواديفا حكاية منسوبة لأحد	٤٥- قال يسوع: فإن كانت عينك اليمين تعثرك

القديسين البوذيين أنه قلع عينه ورماها لأنها شككته - كتاب مولر المسمى العلوم الدينية ص ٥٤٢.	فاقلعها والقها عنك. - إنجيل متى صحا ٥ ع ٢٩.
٤٦- لما عزم بوذا على التنسك كان راكباً جواداً يدعى كنتاكو ففرشت الملائكة طريقه بالزهر - هردى في كتابه خرافات البوذيين ص١٣.	٤٦- لما كان يسوع داخلا أورشليم راكباً على حمار فرشت له الجموع الطريق بأغصان النخيل. - إنجيل متى صحا ٢١، ع ١-٩.

ثانياً - النَّصْرانيَّةُ في القرونِ الوُسْطى، وظُهورُ البابويَّةِ

لاحظْنا فيما تقدّم كيف تشكَّلَتْ العَقيْدَةُ النَّصْرانيَّةُ بصيغَتِها العامَّة التي تَكادُ تَكونُ نهائيَّةً، وسنتابعُ فيما يلي ما طَرأ من أحْداثٍ على النَّصْرانيَّةِ خِلالَ القُرونِ الوُسْطى، وهيَ المدَّةُ ما بيْنَ القرنِ الرّابع وعهدِ النَّهضةِ في القرنِ الخامسَ عشرَ.

الآريوسية:

لم تمرَّ تلكَ العَقيْدَةُ التي استقرَّت عليها الكَنيسةُ المَسيْحيَّةُ دونَ مقاومةٍ وممانعةٍ ومُعارَضةٍ، فَقَدْ كانَ المَسيْحيونَ في (الحَبَشَةِ، ومِصْرَ، وسوريَّة) يُخالِفونَ مَبادِئَ تلك الكَنيسةِ، ويُناقِشونَها في كَثيْرٍ منَ الرَّأي، ثُمَّ ظَهَرَتْ حَرَكَةٌ قويَّةٌ في القرنِ الرّابع، وفيها المعارضَةُ القويَّةُ، ألا وهي حَرَكَةُ كاهِنٍ اسمُه (آريوس).

رأينا أنَّ المَسيْحيينَ **اتَّفَقوا** على الثّالوثِ المقَدَّسِ، وأنَّ المَسيْحَ ابنُ الله، وأنَّهُ منقِذٌ ذو صفةٍ إلَهيَّةٍ، **فأتى آريوس** فقالَ: إذا كانَ المَسيْحُ ابنُ اللهِ فيَنْبَغي أنْ يَكونَ دونَ اللهِ، وأقلَّ منه، وفوقَ البَشَرِ، وهَذا القولُ مُخالِفٌ كلَّ المخالفَةِ لِرأي الكَنيسةِ التي تقولُ (إنَّ المَسيْحَ إلَهٌ حقيقيٌّ، ورجلٌ حقيقيٌّ)، فبدأتِ المُشاحنةُ واتَّسعَ الجَدَلُ، وكانَ في هَذا الرَّأي خَطَرٌ على ما استقَرَّ عَلَيْهِ المَسيْحيونَ، لأنَّهُ يُخفِّفُ من قيمَةِ المَسيْحِ كإلهٍ، ومن قيمتِهِ كمُنْقِذٍ إذ يَضَعُه في مصافٍّ دونَ مصافِّ الآلِهَةِ.

وآلَ الأمْرُ إلى أنْ جَمَعَ (قسطنطينُ) مَجْمَعاً في (نيس) فنظَرَ هَذا المَجْمَعُ في

وضْعِ عَقيْدَةٍ نهائيَّةٍ للنَّصرانيَّةِ، وانتهى به الرَّأْيُ إِلى أَنْ أَقَرَّ أنَّ صِفَةَ المَسيْحِ الإِلـهيَّة أزليَّة مَعَ اللهِ سبحانهُ وتَعالى، واعتبَرَ (آريوس) خارِجاً عَنْ النَّصْرانيَّةِ.

على أنَّ المبدأ الذي بشَّرَ به (آريوس) استمرَّ واعتَنَقَتْهُ القبائلُ الجرمانيَّةُ، وامتدَّ حَتَّى أواخِرَ القرنِ السَّادِسِ الميلادي.

الرَّهْبانيَّةُ

تُشكَّلَتِ الرَّهْبانيَّةُ في المَسيْحيَّةِ على مَراحل ثَلاثٍ تطوريَّةٍ:

المرحلة الأُوْلى: كانتْ في أَوائلِ القُرونِ الوُسْطى، وذَلِكَ أَنَّهُ بَعْدَ أنِ انتَشَرَتِ المَسيْحيَّةُ وقَويَ نُفوذُها، وتوسَّعَ سُلْطانُها، وانتَقَلَ إِلَيْها عددٌ مِنَ النَّاسِ لا يفْهَمونَ معنى تضحية من ضحَّى من جماعَةِ المَسيْحيينَ الأول، كانَ عددٌ من مُعْتَنِقي الدّيْنِ الجُدد قدْ دَخَلوا جَلْباً للمنفعةِ، أَوْ حرصاً على الظُّهورِ، أَوْ سِوى ذَلِكَ مِنَ الأُمورِ الدُّنيَويَّةِ، ووجد من بَقيَ على طَريْقةِ المَسيْحيينَ الأول في خدمَةِ الدّيْنِ والدِّفاعِ عنه والتَّضْحيةِ لأَجْلِهِ أنَّ العالَمَ قدْ غَرِقَ في هَذا التَّيار النَّفْعي، فامتَعَضوا، وآثَروا الانْسِحابَ منَ الحَياةِ المَدَنيَّةِ إِلى حياةِ الغاباتِ والصَّحارى، ومنهم عددٌ كَبيْرٌ مِنَ المِصريينَ، وانْقَطعوا لأَنْفُسِهِم مُعتَزلينَ العالَمَ الخارجيَّ، وكانَ لكُلِّ واحدٍ مِنْهُم شجَرتُه أَوْ صومعَتُه، يُقيْمُ فيْها وَحْدَه، فلا يُعاشِرُ النَّاسَ، ولا يتَّصِلُ بهم، بَلْ يعيشُ عيشَةَ المُنْعزِلِ البَعيدِ عَنْ كُلِّ شيءٍ.

المرحلَةُ الثَّانيةُ: وَجَدَ القديسُ باكوميوس (ت: ٣٤٦ م) أنَّ الانعزالَ هَذا قد أَبْعَدَ الرُّهْبانَ عَنْ الحَياةِ الحَقيْقيَّةِ، وجَعَلَ فيهم بَعْضَ الوحشةِ، فحضَّ على اجتماعِهِم من حينٍ إِلى آخرَ للعِبادَةِ بعضِهم مَعَ بَعْضٍ، وسارَ مبدَأُه في أوائلِ القرنِ الرّابعِ، وتَبِعَهُ عددٌ كَبيْرٌ مِنَ المصريينَ، فكانتِ الصَّلواتُ والتَّعبُّداتُ تُقامُ مُجْتَمعةً، ثُمَّ يعودُ كُلُّ فَرْدٍ إِلى نفسهِ في صَوْمَعَتِهِ يَنْقَطِعُ فيْها للعِبادَةِ.

المرحلَةُ الثَّالثةُ: وتَلَتْ ذَلِكَ المرحلَةُ الثَّالثةُ، وإذ بالقدِّيسِ (باسيل) يَرى أنَّ حياةَ الرَّهْبَنَةِ على الصِّفَةِ المُتقدِّمَةِ ليْسَتْ أمْراً عمليّاً، وأنَّ هناكَ حالا أفْضَل، وَهوَ أنْ ينقَطِعَ الرُّهْبانُ عَنْ النَّاسِ والعالَمِ الخارجيِّ، على أنْ يَعيشوا مُجْتَمعينَ فيما سُمِّيَ بـ(الأدْيرَة) وسادَ رأيُه، فأُسِّسَتِ الأدْيرَةُ، واجتَمَعَ فيْها الرُّهْبانُ، وعاشوا يؤدُّونَ صَلَواتِهم وتَعبُّداتِهم.

البابَويَّةُ:

تقدَّم أنَّ كُرسيَّ الرَّسولِ (بطرس) في روْما كانَ لَهُ شأنٌ يُرادُ منهُ أنْ يَكونَ أوْسَع منْ شأنِ غيرِه.

على أنَّ هَذا الكُرسيَّ لم يَكُنْ لَهُ في الواقِعِ سُلْطةٌ أعلى من غيرِه منَ الكَنائسِ الأُخْرى، بَلْ كانَ من حيث السُّلْطِة بمُسْتَوى يُقارِبُ سُلْطَةَ غَيْرِهِ، فلم يَكُنْ رَئيسَ الكَنائسِ جَمْعاءَ، وإنْ كانَ يَسْتَغْني بَعْضَ الأحْيانِ باعتبارِه كُرسيّاً مُمْتازاً.

ثُمَّ حَصَلَتْ أسْبابٌ دَعَتْ إلى توسُّعِ سُلْطَةِ ذَلِكَ الكرسيِّ وتشكُّلِ البابويَّة:

= أوَّلُ هَذِهِ الأسْباب أنَّ (القدِّيسَ أوغستان) وَهوَ منْ إفريقيا الشَّماليَّةِ وَضَعَ كتاباً سمَّاهُ (مدينة الله) دَعا فيه إلى إعطاءَ الدِّيْنِ سلطَةَ الحُكْم. وذَكَرَ أنَّ الأمرَ سيؤولُ إلى أنْ تَسودَ سلطةُ الدّيْنِ على النَّاسِ وسيَنْقَضي ذَلِكَ الزَّمنُ الذي يتسلَّطُ فيه المُلوكُ. وقد مهَّدَ هَذا الكتاب الطَّريْقَ إلى إيجادِ سُلْطَةٍ كنائسيَّةٍ قويَّةٍ.

= ثمَّ أتى (شارِلْمان) فاستَوْلى على بقعَةٍ واسعَةٍ منْ بقاعِ المَسيْحيَّةِ، وخدمَ ذَلِكَ الدّيْنَ خدمةً كُبْرى، وأنشأ المدارِسَ وعِلْمَ الكَهَنوتِ، وَكانَتْ سلطَةُ المُلوكِ في إيطاليا قد تقلَّصتْ، فأعطى روْما رَئيساً لها هوَ البابا، وأسَّسَ الإمبَراطوريَّةَ المُقَدَّسَةَ، فقَويَتْ سلطَةُ ذَلِكَ الكرسيِّ.

= ثمَّ إنَّ وَضْعيَّةَ التَّسلْسُلِ في الكَهَنوتِ مِنَ الأَصْغَرِ إلى الأَكْبَرِ فالأكبَر كانت تُثيرُ في الأذْهانِ فِكْرَةَ إيجادِ سلطَةٍ عُلْيا تَنْتَهي إِلَيْها السُّلطاتُ الأُخْرى، ووُجِدَ بيْنَ المتعبِّدينَ منْ حاولَ أَنْ يخدمَ الكَنيسةَ بوضْعِ رسائلَ ملفقَّة تَظْهَرُ بها قيمةُ البابويَّةِ ومكانتُها والحاجَة إلى سُلْطانِها، وخدَمتْ هَذِهِ الرسائلُ البابويَّةَ ورفعَتْ مِنْ شأْنِها.

= ولَمَّا جاءتِ الحرْبُ الصَّليبيَّةُ عَمِلَ البابواتُ على تَرؤوسِها وتقويتِها فأَعْطَوا بذلكَ لأَنْفُسِهُم مَكانَةً جَدِيْدَةً، وَكانَتْ مَكانتُهم قد توسَّعتْ بَعْدَ أنِ استقلَّتِ الكَنيسةُ الشَّرقيَّةُ عَنْ الكَنيسةِ الغربيَّةِ - كَما سنَرى - واعتمدَت كَنيْسةُ روْما على نصٍّ من الإِنْجيلِ، وقُرئَ هَذا النَّصُّ في مَجْمَعٍ مِنَ المَجامِعِ الدّيْنيَّةِ، ومعنى هَذا النَّص - كَما أَوْرَدْنا سابقاً - أنَّ المَسيْحَ قال لبطرس: (أنتَ بطرس الذي تلمَعُ أوَّليَّةُ كرسيِّك عَلى كُلِّ الأَرْضِ، ويُشكِّلُ كُرسيُّك رأْسَ كلِّ كَنيْسةٍ)

لِهَذِهِ الأَسْباب والعوامل استقامَتْ سلطةُ البابا وتوسَّعَتْ واشتدتْ حَتَّى آلَتْ يَوْماً مِنَ الأَيَّامِ إلى العَقيْدَةِ بأَنَّهُ مَعْصومٌ، وأنَّ القرارات التي يَضَعُها نهائيَّةٌ لَها صفةٌ ديْنيَّةٌ تامَّةٌ.

الأَرْثوذكسيَّةُ:

كانَ بيْنَ الشَّرْقِ والغربِ نَوْعٌ من الاختلافِ في الطَّبيعَةِ وفي فهم الطُّقوسِ الدّيْنيَّةِ وفي لون الحكم: تأسَّست في الشَّرقِ دولةُ روْما الشَّرقيَّة (دولة بيزنطة) وفي الغرب انقَضى عهدُ سُلطانِ المُلوكِ في إيطاليا وقويتْ سلطَةُ البابا كَما مرَّ.

ويتميَّزُ الشَّرقيّونَ اليونانيّونَ الذينَ تكوَّنتْ مِنْهُم دولةُ روْما الشَّرقيَّة بميلِهم إلى الجدلِ والمناقشةِ والتَّفْكيرِ في المسائلِ، دونَ الأخذِ بالسُّلْطِة العُليا التي تفرضُ المسائلَ فرضاً، أمّا الرُّومان فهم مُعْتادونَ على سلطةِ ملوكِهم وعلى تقبُّلِ حكمِهِم.

وهَكذا نشأ بيْنَ الطَّرفينِ نَوْعٌ من النِّزاعِ في طبيعةِ المَسيْحيَّةِ نفسِها من حيث

ظَواهرها الخارجيَّة وأتى يَوْمٌ أَضافَت الكَنيسةُ بروْما إلى المُعتَقدات أنَّ روحَ القُدُسِ ينجُمُ من الابنِ كَما ينجُمُ عَنْ الأبِ، فلمْ تقبَلْ الكَنيسةُ الشَّرْقيَّةُ هَذا المَذْهَبَ الجَديْد.

وفي عام (١٠٥٤ م) أعلنَتِ الكَنيسَةُ الشَّرْقيَّةُ في القَسْطَنطينيَّةِ انفِصالَها عَنْ الكَنيْسةِ الغَرْبيَّةِ، وأنَّها لن تَتبَعَها في أحكامِها، ورضيَتِ بذلكَ الكَنيسَةُ الغَرْبيَّةُ وازدادَ سُلْطانها في المناطِقِ التي كانتْ تابعةً لها.

وكانَ قسمٌ مِنَ المَسيْحيينِ في الشَّرْقِ في (سورية، ومصر، وإيران، والحبشة) قد استَقلّوا عَنْ الكَنيسَةِ الغَرْبيَّةِ قَبْلَ ذَلِكَ وَلَمْ يقبلوا بأحْكامِها، ومنهم من سُمّوا بـ(**النُّسطوريينَ**) فاجتمع جَميْعُهم تَحْتَ لواءِ الكَنيْسةِ الشَّرقيَّةِ في مَذْهَبٍ عامٍّ سُمي بـ(**الأرثوذكسيَّةِ**) أي الطَريْق المُسْتَقيم طَريْق الآباء الأوَّلين.

ونظرتِ الكَنيسَةُ الشَّرْقيَّة في طَريْقةِ تَوْحيْدِ المَبادِئ والمَذاهِبِ ووضْعِ الخططِ الواحدةِ المُلائمةِ، فرأَتْ أَنْ توكلَ ذَلِكَ إلى المَجامِعِ، وشُكِّلَتْ هَذِهِ المَجامِعُ من بَطاركَةٍ أَرْبَعَة، هم بطاركةُ (القسطنطينية، وأنطاكية، والإسكندرية، والقدس) هَذِهِ المَجامِعُ تقرِّرُ في اجتماعِها الأُصولَ التي تتبعُ وتقومُ بِما يقومُ به البابا في الكَنيْسةِ الغَرْبيَّة منْفَرِداً.

* **فروقٌ بين الكَنيستَيْنِ:**

يُلاحظُ الباحثُ أنَّ ثمَّتَ فروق واضِحة بين الكَنيْسةِ الشَّرْقيَّة (الأرثوذكسيَّة) وبين الكَنيْسةِ الغَرْبيَّة (الكاثوليكيَّة)، منها:

= أنَّ الكَنيْسةَ الشَّرْقيَّةَ سمحَت للكَهَنُوتِ بالزَّواجِ خِلافاً للكَنيْسةِ الغَرْبيَّةِ على أنْ يتمَّ الزَّواجُ قَبْلَ الانتسابِ إلى الكَهَنوتِ، فلا يَكونُ من زفافٍ بَعْدَ ذَلِكَ الانتساب.

= واستبعدَت الكَنيسَةُ الشَّرْقيَّةُ شَفاعَةَ القدِّيسيْن.

= وردَّتْ فِكْرَة بيع الغِفْرانِ.

أمّا من حيث الطُّقوس والعبادات:

= فَقَدْ عاشَتْ ولازالتْ تعيشُ في أُبَّهةٍ عظيمةٍ من الاحتفالاتِ والصَّلواتِ، في كنائسَ زاهيةٍ، تُكْثِرُ في احتِفالاتِها مِنَ الأناشيدِ المرتَّلةِ دونَ أنْ تُرْفِقَ تلك الأناشيد بالموسيقى.

= وهي تحظرُ التَّماثيلَ، لَكِنَّها تأْخُذُ بالزَّخْرفَةِ وبَعْضِ الصّورِ.

هذا وقد توسَّعت رقعةُ الكَنيْسةِ الشَّرْقيَّةِ فضمَّتْ إِلَيْها (بلغاريا، وروسيا، والبلاد السُّلافيَّة عامَّةً)، ولَمَّا حكمَتِ الشُّيوعيَّةُ البلادَ السُّلافيةَ انتسبَ قسمٌ كَبيْرٌ منها إِلى اتِّجاهٍ مَذْهَبيٍّ يُخالِفُ الاتِّجاهَ الكَنائسيّ.

السكولاستيك (الفلسفةُ المدرسيَّةُ في القُرونِ الوسطى):

صادفتِ العقائدُ المَسيْحيَّةُ في القُرونِ الوُسْطى عِنْدَ بَعْضِ الفَلاسِفَةِ والمُفَكِّرِيْنَ مقاومةً وتَعَرَّضَتْ منها للنَّقدِ، فدافعَ أَصْحابُ الكَنائسِ أمامَ هَؤلاءِ الزَّنادِقة كَما أَسمَوْهم. على أنَّ الفِكْرَة الفَلْسَفيَّة ما لبثتْ أنْ تقدَّمَتْ ولاسيَّما بَعْدَ أن عُرِفَ أَرسْطو من طَرِيْق الأندلسِ، ولَمْ تقفْ الكَنيسةُ مكتوفةَ الأيدي بَلْ حاربَت مَذْهَبَ أَرسْطو ومن يَقولُ به ومن يقرأه، ثُمَّ رأى بَعْضُ المَسيْحيينَ الذين اطَّلعوا على آثارِ المُسْلِميْنَ كالغزالي وابنِ رُشْدٍ سبيلا إِلى التَّوفيقِ بيْنَ الدّيْنِ وبين العَقْلِ.

وكانَ أَفْلاطون يقولُ: إِنَّ اللهَ سبحانه وتَعالى يجمعُ في ذاتهِ بيْنَ العِلْم والدّيْنِ، فيجبُ إِذنْ أَنْ يَكونَ العِلْمُ متَّفِقاً مَعَ الدّيْنِ.

وهَكَذا قامَ في المَسيْحيَّةِ (القديسُ توْما الأكويني) فوضعَ كُتُباً ورسائلَ عديدة في التَّوفيقِ بيْنَ الدّيْنِ والعَقْلِ، حذا فيْها حذْوَ العُلَماءِ المُسْلِميْنَ، ووضَعَ غيرُه رسائلَ وكُتباً في البرهانِ على وجودِ اللهِ، ووضِعَتْ كُتُبٌ سمِّيَتْ (لاسوم) أي

(المجموع) فيها مجموع الدّيْنِ والعَقيْدَة مَعَ العِلْم العام، والغايةُ منها التَّوفيقُ بيْنَ العِلْمِ ومجموعِ الدّيْنِ، وتتَّجِهُ هَذِهِ الكُتُب اتِّجاهاتٍ عديدةٍ بحسبِ وجهةِ النَّظَرِ التي وضِعَتْ فيْها، ولَكِنَّها تؤولُ جَميْعُها إلى أنَّهُ لا خلافَ بيْنَ الدّيْنِ والعَقْلِ، وإلى أنَّهُ إذا ظَهَرَ خِلافٌ بَيْنَهُما وجبَ أنْ يرجِعَ إلى الدّيْنِ لأنَّهُ وحيٌ صحيحٌ، لا كالعلمِ الذي مَعارِفُه تَكوْنُ غيرَ ثابتةٍ ولا أكيدةٍ.

ثالثاً - المَسيْحيَّةُ في العُصورِ الأَخيرَةِ والحَرَكَةُ الإِصْلاحيَّةُ

الفساد الكنسي مهَّد للإصلاح:

كانَ القرنُ الخامسَ عشرَ يتمخضُ عَنْ حَرَكَةٍ جَديْدَةٍ فكانَ كُلُّ شَيْءٍ يَدلُّ عليها، فَقَدْ كانت حالةُ الكَنيْسةِ المَسيْحيَّةِ تستدعي الإِصْلاحَ، فبوادِرُ الفَسادِ ظَهَرَتْ فيْها والانتقاد كانَ شَديداً حولها، وكانَ يظْهَرُ بابوات فيُقابِلهم بابوات آخرون يدَّعونَ الصِّفَةَ نفسَها، فيُنْكِرُ كُلٌّ واحدٍ مِنْهُم الآخرَ، وتحصلُ مهازلَ ومآسي، هَذا والكَنيسَةُ قد اتَّسعتْ اتِّساعاً هائلا، فأصْبَحَتْ ذات ثروةٍ طائلةٍ، وكانت ثروتُها وممتلكاتُها موضِعَ نقدٍ لها.

واتَّجهَ النَّقدُ أيْضاً إلى الكَهنوتِ الذينَ صاروا يتزوَّجونَ مَعَ أنَّ قواعِدَ الكَنيْسةِ تُحرِّمُ عَلَيْهِم ذلكَ.

واتُّهِمَ الكَهَنوتُ بالجهلِ، وكانَ مِنْهُم جهَّالٌ في واقعِ الأمْرِ، لأنَّ الدُّخولَ في الكَهَنوتِ كانَ وراثيّاً أكثر الأحيان، والتَّعيُّنُ في المراكزِ الكَهَنوتيَّةِ كانَ يتمُّ منْ قِبَلِ السُّلْطةِ الزَّمنيَّةِ، وتوافِقُ عَلَيْهِ السُّلْطةُ الرّوْحيَّة، فخَرَجَ الكَهَنوتُ عَنْ صفتِهم الأساسيَّةِ واهتَمُّوا بالعالمِ الأرْضي وبالمالِ وبالمعيشةِ.

وكانت قد ظَهَرَتْ حَرَكَةٌ سمِّيتْ بـ(الإِنْسانيَّة = هيومانيزم) وانتقدَ أصحابُ هَذِهِ الحَرَكَةِ الكُهّانَ في أَخْلاقِهِم وسيرَتِهم. وقبَّحَ المتزهِّدونَ اهتمامَ الكَهَنوتِ بالعالَمِ الأَرْضيِّ وثاروا عَلَيْهِم لذلكَ.

* حركةُ (مارتن لوثر) الإِصْلاحيَّة:

في هَذِهِ الظُّروف نَشأ (**مارتن لوثر**) في ألمانيا وكانَ أبوهُ قد حصلَ على ثروةٍ فأرادَ أَنْ يُدْخِلَ ابنَه في ميدانِ العَمَلِ والثَّراءِ. ولَكِن هَذا كانَ بعيداً في طبْعِهِ عَنْ الميلِ إِلى الحَياةِ الدُّنْيا، وكانَ يَوْماً تَحْتَ شجرةٍ فأتتْ صاعِقَةٌ أحرَقتِ الشَّجَرَةَ، فدَعا اللهَ ونذرَ نفسَهُ بأَنْ يَكونَ راهباً، وحقَّقَ نذرَهُ فانتَسبَ إِلى رهبَنةِ (**القدِّيس أوغستان**) وقرأَ التَّوْراةَ ووَجَدَ فيْها:

= أنَّ الإِنْسانَ لا يَسْتَطيعُ أَنْ يفعلَ شيئاً مهماً من نفسِه، وأنَّ الذي ينقذه هوَ اللهُ لا أعمالُه، فمنْ كانَ ساقطاً في نَظَرِ الخالِق فلا شيءَ يُنقِذُه.

= والإيْمانُ هوَ المُنْقِذُ الأصْلي لا الأفْعالُ، وليسَ لشَفاعَةِ القدِّيسيْنَ أثرٌ في هَذا الإنقاذِ.

= والرَّهْبَنَة لا قيمةَ لها.

ونظرَ **لوثر** في أمْرِ الغُفرانِ وشرائِهِ وبيْعِهِ مِنْ قِبَلِ الكَهَنوتِ فاستنكرتْ ذَلِكَ نفسُه، وكتبَ رِسالَةً فيْها خَمْسَةٌ وأربعونَ مَوْضوعاً عَنْ (الغُفْرانِ وبيعِه وأسئلةٍ حولَ ذلكَ).

وأحدثَتْ هَذِهِ الرِّسالة حينَ تُرجمَتْ إِلى الألمانيَّةِ أثراً عنيفاً في نُفوسِ النَّاسِ، فتصدَّى لَهُ بالمناظرَةِ عالمٌ اسمهُ (ايكي) وتبيَّنَ للوثر من نَتيْجَةِ المناظرةِ أنَّهُ لم يَتَعَمَّقْ في دراسَةِ تاريخ المَسيْحيَّةِ، فانقطَع إِلى ذلك، فتبلورَتْ فكرتُه ووضعَ مَذْهَبَهُ وإِذا هوَ يَرى أنَّ العُلومَ الدّيْنيَّةَ ليْسَتْ في قراراتِ الكَنيْسةِ إِنَّما هيَ في الكِتابِ المُقَدَّسِ،

وحكمَ الكرسيُّ البابويُّ عَلَيْهِ وطُرِدَ مِنَ المَسيْحيَّةِ، فناصرَه الألمانُ من بَني قومِهِ، وعدُّوه بطلا وطنيّاً، ورأوا أنَّ الغُرباءَ عنهم أصحاب الكرسيِّ البابويِّ يستغلُّونَهم ويأخُذونَ أموالَهم، وهكذا بَدأ مَذْهَبُهُ ينتشرُ.

* حركة (جون كالفن):

ثم حصَلَتْ حَرَكَةٌ إصْلاحيَّةٌ أُخْرى هنا وهناك نَجتَزِئُ منها ذِكرى حَرَكَةِ (جون كالفِن) الذي قال بالجبْرِ، وأنَّ الإنْسانَ مسيَّرٌ لا مخيَّر، وأنَّ أفْعالَه مكتوبة لا يُمْكِنُه أنْ يغيِّرها، وأنَّ القُرْبانَ المقَدَّسَ ليسَ إلا رمزاً للمسيحِ وليسَ من دمهِ ولحمهِ.

ورأتِ الكَنيسَةُ تلك الإصلاحات وأدركتْ سوْءَ الوضعِ الذي تدنَّت هيَ فيه، فوجدتْ ضَرورَةَ الإصْلاحِ، فعقدَتْ بيْنَ عام (١٥٤٥ - ١٥٦٣م) **مجمع ترانت** ووضَعَ هَذا المجمعُ قواعدَ تنظيميَّةً يتقيَّدُ بها الكَهَنوتُ وأُصولا لتَعْليْمِهِم ورفعِ جهالتهم، وحكمَ المَجْمَعُ على الحَرَكَة الإصْلاحيَّةِ المنشقَّةِ.

* البروتستانت = المحتجّون:

تشكَّلَ من الحَرَكَةِ الإصْلاحيَّةِ التي قامَ بها لوثر وكالفن وغيرُهما مَذْهَبٌ جَديْدٌ هو المَذْهَبُ (البروتستانتي) وخلاصة هَذا المَذْهَب:

= أنَّ المَسيْحي مسؤولٌ أمامَ اللهِ وَحْدَه لا أمام الكَنيْسةِ. هَذا هوَ جَوْهَرُ المَذْهَب وأَساسُه وكُلُّ شَيْءٍ يتفرَّع عَنْ هَذِهِ النُّقطة.

= ويَقولُ البروتستانت بالحريَّةِ في الأُمورِ الدِّيْنيَّةِ والدُّنيَويَّةِ أكثَرَ من الكاثوليك الذين استمرُّوا مَعَ الكَنيْسةِ الأُوْلى.

= ويَقولُ البروتستانت بالتَّسامحِ الدِّيْنيّ.

= ويقولونَ بفِكْرَة الحكمِ الشَّخصيِّ لا الحكمِ الكنسيِّ.

= وَهُمْ يُبعِدونَ الكَنِيْسةَ عَنْ التَّدخلِ في الأُمورِ الزَّمَنيَّةِ.

= ويذهبونَ إِلى شيءٍ من الحرِّيةِ في الطُّقوسِ والعباداتِ والنَّظرةِ اللاهوتيَّةِ والكَهَنوتيَّةِ.

انتَشرَت البروتستانتيَّةُ في شمالِ غربي أُوربا ما عدا جنوب أَلمانيا وإِيرلندا، ثُمَّ انتَشرَت البروتستانتيَّةُ في الولايات المتَّحدة الأمريكية.

* الموَحِّدون - يونيتاريانز (Unitarians) :

مرَّ مَعَنا فِكْرَة **الأَريوسية**، ورأينا أَنَّها تجعلُ المَسيْحَ علَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ في مُستَوى دونَ مُستَوى اللهِ، وظَهَرَتْ مَذاهِبُ أُخْرى فيْها ميلٌ إِلى وحدةِ اللهِ، وإلى جعلهِ فَوْقَ مُستَوى كُلِّ شَيْءٍ، ثُمَّ إِنَّ الإِصْلاحَ البروتستانتيَّ - بعودَتِه إِلى الإِنْجيلِ والكِتابِ المُقَدَّسِ وجَعْلِه ذَلِكَ الكتاب فَوْقَ كلِّ القراراتِ الكَنائسيَّةِ مَعَ ترجمتِه إِلى اللُّغاتِ الوطنيَّةِ بحيثُ أَصبَحَ مقروءاً في كُلِّ مكانٍ - عادَ بالأَنْظارِ إِلى حالةِ المَسيْحيَّةِ قَبْلَ تأسيسِ الكَنِيْسةِ.

هَذا الوضعُ سهَّلَ السبيلَ في القرنِ السابعَ عشرَ إِلى ظُهورِ فِكْرَةٍ جَديْدَةٍ قويَّةٍ ذاتِ نَزْعَةٍ إِصْلاحيَّةٍ بعيدةٍ، وهي **(فِكْرَة الموحِّدينَ = اليونيتاريون)**، وظَهَرَتْ هَذِهِ الفِكْرَةُ في بولَنْدا مَعَ **سوسان** وفي ترانسيلفانيا مَعَ **فرانسيس دافيد** وظَهَرَتْ في انكلترا أَيْضاً وفي جهاتٍ أُخْرى.

ويَقولُ هَذا المَذْهَب إِنَّ المَسيْحيَّةَ قَبْلَ ظُهورِ الثَّالوثِ كانتْ موحَّدةً فليسَ في الكِتابِ المُقَدَّسِ إِشارةٌ أَوْ دَليلٌ إِلى الثَّالوثِ وأَنَّ اللهَ واحِدٌ في ثلاثةٍ، فيجبُ إِذن الرُّجوعُ إِلى الفِكْرَةِ الأُوْلى للمَسيْحيَّةِ، واعتِقادِ أَنَّ اللهَ واحدٌ، ويجبُ الرُّجوعَ إِلى تعاليمِ المَسيْحيَّةِ الأُوْلى، إِلى تلك التعاليم التي وضَعها المَسيْحُ ويُمْكِنُ تلخيصها بشيئين :

١ - محبَّة الله. ٢ - محبَّة البَشَرِ.

ويَقولُ الموَحِّدونَ: إنَّ المَذْهَبَ الأَصْليَّ للمَسيْحيَّةِ هوَ أبويَّةُ اللهِ للنّاسِ، وعطفُه عَلَيْهِم وقصده لخيرهم، والمَذْهَب الأَصْلي للمَسيْحيَّة أَيْضاً هوَ أنَّ البَشَرَ أخوة، وأنَّ الخَيْرَ يَجبُ أنْ يُسْعى إِلَيْهِ وأنْ ينتصرَ، وأنَّ المَلَكوتَ الصَّحيْحَ هوَ مَلَكوتُ اللهِ، وهنالِكَ اليَوْمِ الآخِرُ وفيه الحَياةُ الخالدَةُ للنّاسِ.

هَذِهِ هيَ عَقيْدَةُ الموحِّدينَ، على أنَّهُمْ لم يحدِّدوا هَذِهِ العَقيْدَةَ بشَكْلٍ نهائيٍّ بألْفاظٍ وكلماتٍ مِنْهُم، فهم يَعْتَقِدونَ أنَّهُ يَجبُ عَلَيْهِم أنْ لا يُضيِّقوا بألْفاظٍ وأفْكارٍ مَحدودَةٍ، بل يقتضي تركُ ذَلِكَ للعَقْلِ والضَّميْرِ، فالعَقْلُ والضَّميْرُ دَليلانِ للحقيقةِ الدّيْنيَّةِ، وأكثَرُ ما يَقولونَه ويَشْهدونَه هوَ قولهم: (**باسمِ حبِّ الحَقيْقَةِ وبروحِ المَسيح نتَّحدُ لخدمةِ الإنْسانيَّةِ ولعِبادةِ اللهِ**) وَهُمْ يعلِّقونَ الأهميَّةَ الكُبْرى على التَّسامُحِ الدّيْنيِّ، فهم إذن يَرجعونَ إِلى مَبادئ المَسيْحيَّةِ الأُوْلى ويتَّخذونَها أصولا، ويقِفونَ عندَها.

* تَوْحيْد الكَنائسِ:

رأينا أنَّ الكَنائسَ المَسيْحيَّةَ كَثيْرَة مُتعَدِّدَة على أنَّها تَجتَمِعُ في ثَلاثٍ كُبْرى:

(الكَنيسَةُ الأرثوذكسيَّة، والكَنيسَةُ الكاثوليكيَّة، والكَنيسَةُ البروتِسْتانيَّة.

وهنالك كنائس أُخْرى أقلُّ أهميَّةً منْ هَذِهِ وأقلُّ انتِشاراً، وقد حاولَ الأمريكيونَ أنْ يقيموا اتِّحاداً بيْنَ الكَنائسِ، فدَعَوا إِلى مجلسٍ دوليٍّ للكنائسِ، اجتمع عام (١٩٤٨ م) إِلا أنَّ الكَنيْسَةَ الكاثوليكيَّة لم تشتَرِكْ في هَذا المجلسِ وخالفتْهُ، فهي تَرى أنَّهُ لا وحدةَ للمسيحيينَ إِلا بالعودَةِ للكَنيْسةِ الكاثوليكيَّةِ، أي إِلى كرسيِّ البابا، واجتمعَ المجلسُ ونظرَ نظرةً واسعةً في الأمورِ، ومِمّا أقرَّه أنَّهُ وافقَ على قبولِ الموحِّدين فيه وصهرَهُم في المَسيْحيَّةِ، وكانوا قَبْلَ ذَلِكَ يعدُّون زنادِقةً خارجينَ عَنْ النَّصْرانيَّةِ.

الباب الثَّالث

الفرق الإِسلاميَّة

الفصل الأول

نشأة علمِ الكلام والمذاهب التَّوحيديَّة في الإِسلامِ

الفصل الثاني

دراسةُ أَهمِّ الفرقِ الإِسلاميَّة

الفصل الأول

نشأة علم الكلام والمذاهب التوحيدية في الإسلام

وعلاقة ذلك بالتيارات الفكرية القديمة

أولاً - موقع هذه الفرق من الإسلام

ينبغي ألا يغيب عن بال القارئ أن الفرقَ التي سأتحدث عنها منسوبة إلى الإسلام، داخلةٌ في الملّة، ولذا تسمى الفرق الإسلامية، وقد أثبتُّ هذه النسبة لهم كما ترى في العنوان.

وهذا يعني أنه لا يجوز إخراج أي منها عن حظيرة الإسلام، ولم أجد في الثقاة من أئمة المسلمين من حكم على أي من هذه الفرق بالكفر، وإن كانوا إنما يتحدثون عنها ويعرفون بها، لبيان انحرافاتها عن الجادة، والابتداعات التي عرفت بها، والتحذير من الوقوع في ضلالاتها.

ومستند الأئمة في ذلك ما صح عن رسول الله ﷺ، من أنَّ من لقيَ الله لا يُشركُ به شيئاً دخل الجنَّة. وردت بذلك أحاديث صحيحة كثيرةٌ بلغت مبلغ التَّواتر المعنوي.

من ذلك ما رواه الشيخان من حديث أنس أنه ﷺ قال: «من لقيَ الله لا يشرك به شيئاً حرَّمت عليه النَّار» زاد البخاري: «صادقاً من قلبه»، ومن ذلك ما رواه النَّسائيُّ من حديث أبي عَمرَة الأنصاريِّ أنه ﷺ قال: «.. أشهد أن لا إله إلاَّ الله، وأشهد أنّي رسول الله، لا يلقى الله عبدٌ يؤمن بهما إلاَّ حُجِبت عنه النَّار يوم

القيامة»، ومن ذلك ما أخرجه أبو داوود والحاكم من حديث معاذٍ رضي الله عنه: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله لم تمسّه النّار»، ومن ذلك ما رواه أحمد من حديث عثمان بن عفانَ رضي الله عنه قال: «إني لأعلم كلمة لا يقولها عبدٌ حقّاً من قلبه إلا حرَّم الله عليه النّار» قال عمر بن الخطاب: هي كلمة الإخلاص.

أقول: ولكن ثبت في الصحيح أن في الموحدين من يدخلون يوم القيامة النار، ثم يخرجون منها إلى الجنة. وعليه، فإن هذا الذي ثبت في الصحيح ينبغي أن يكون استثناء من عموم الأحاديث السابقة، إذ العام يفسَّر دائماً على ضوء الخاص.

* * *

ولكن يُشكل على هذا الذي ذكرناه الحديث الذي رواه أصحابُ السُّنن من حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وتفرَّقت النَّصارى عن اثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أُمَّتي على ثلاثٍ وسبعين فرقة»، وقد رواه التِّرمذيُّ من حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو بزيادة «كلّهم في النَّار إلاَّ ملَّة واحدة، قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي» وقال عنه: هذا حديثٌ غريبٌ.

أقول: وفي العلماء من يُنكِر هذه الزِّيادة ويضعِّفها إلاَّ أنَّ هذه الزيادة لم ينفرد بذكرها التِّرمذي، بل رواها بألفاظٍ قريبةٍ أبو داوود من حديثِ مُعاذٍ رضي الله عنه، ورَواها ابنُ ماجه من حديثِ عبدِ الله بن عبَّاسٍ رضي الله عنهما. ومن ثمَّ فإنَّ المشكلة قائمة لا تزول بردّ هذه الزيادة اعتماداً على القول بعدمِ ثبوتها.

وأغلب الظَّنِّ أنَّ الدَّافع الأوَّل إلى تلمُّس أسباب الضعف في هذه الزيادة محاولة الفرار من الإشكال الذي تسببه، وهو التعارض الحادّ مع الأحاديث الكثيرة التي ذكرنا بعضها، والدالة على أن من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة. وقد علمت أن أصحاب الفرق على اختلافهم مؤمنون بوحدانية الله عز وجل.

وقد ذهب كثير من الناس يميناً وشمالا في السعي إلى رفع هذا الإشكال بما يتفق مع المبادئ التي لا مجال للخلاف فيها. والذي أراه - وأسأل الله أن يلهمني الرُّشد - أنَّ المُرادَ بالأمَّة في قوله ﷺ: «وتفترق أمتي» أمَّة الدَّعوة لا أمَّة الاستجابة. وكلُّ النَّاس الذين وُجدوا بعد بعثة رسول الله إلى يوم القيامة، من أمَّة الدَّعوة مسلمين كانوا أو غير مسلمين. وعليه فإنَّ المراد بالفرق التي تفترق إليها أمَّته هذه هي الأديانُ الباطلة الكثيرة الخارجة عن ملَّة الإسلامِ، وليس المراد بها الفرق الإسلاميَّة من معتزلةٍ ومرجئةٍ وجهميَّةٍ وخوارج .. إلخ.

يدلُّ على ذلك أمران اثنان:

أولهما: قوله ﷺ في الزِّيادة التي ساقها التِّرمذيُّ: «كلُّها في النَّار إلا ملَّة واحدة» وقد علمت أنَّ الملَّة هي الدِّين ولا يعبَّر بها عن الفرقة. وملَّة الإِسلامِ تشمل الفرق التي تكاثرت فيها.

ثانيهما: أن النبي ﷺ قال في صدر الحديث: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وتفرقت النصارى.. إلخ» فكان التَّقابل يقتضي أن يقولَ: «ويفترق المسلمون إلى ثلاث وسبعين فرقة» لو كان المراد بالفرق تلك التي يتفرق إليها المسلمون. فلما خالف رسول الله مقتضى المقابلة فعبّر بكلمة «أمّتي» بدلاً عن كلمة «المسلمون» دلّ على أن مراده بالأمة عموم أمة الدعوة.

فهذا الفهم لكلمة الأمة في الزيادة التي ساقها الترمذي وآخرون، ينسجم مع سياق الحديث وسباقه ويفتح سبيل التوافق والانسجام مع الأحاديث الكثيرة المؤكدة بأن من لقي الله مؤمناً بوحدانيته لا يشرك به شيئاً دخل الجنة.

وإذن فإننا على الرغم من التحذير من الضلالات والبدع التي وقعت فيها الفرق التي سنأتي على ذكرها والتعريف بها، لا نكفر أياً منها، ونسأل الله لنا ولهم المغفرة والصفح بمنه وكرمه إنه أكرم مسؤول.

ثانياً - أقسام هذه الفرق:

إن التيارات التي واجهها الإسلام بدءاً من بعثة خاتم الرسل والأنبياء سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، كانت لا تزيد على نوعين:

النوع الأول: ما واجهه الإسلام في الجزيرة العربية من ضلالة مبعثها الجهل والبداوة وترسب العادات والتقاليد القديمة، إلى جانب صفتي العناد والعصبية.

النوع الثاني: ما واجهه الإسلام خارجها (وكان ذلك فيما بعد) من المذاهب العقلية والفكرية التي جاءت نتيجة المعاناة والاعتماد على المعارف المختلفة، كالمذاهب الدينية في بلاد فارس، والمذاهب الفلسفية في بلاد الروم وعند اليونان، وعند من تأثر بهم.

فبأي سلاح واجه الإسلام أو المسلمون هذين النوعين من التيارات المختلفة؟

إن هذا التساؤل من شأنه أن يلفت نظرنا إلى ما ينطوي عليه الإسلام بحدّ ذاته، من عوامل الإقبال إليه والتقبل له والاقتناع به؛ إذ هو في الحقيقة ليس جملة تصورات ومواصفات سلوكية، تصلح للقبول والرفض على حد سواء، حتى نبحث له عن المؤيدات خارج حقيقته، كقوة المدافعين عنه، وكالمصلحة التي تتحقق للناس أو بعضهم في الخضوع له. وإنما هو جملة مبادئ واعتقادات لها في كيان الإنسان جذور نفسية وعقلية تبعثه على الإذعان لها واليقين بها، ما لم تُسْدل غواش وحجب من العصبيات والأهواء على تلك الجذور ومكانها من الكيان الإنساني.

إذن، فالحقائق الإسلامية لها جذور ممتدة إلى كيان الإنسان في كلا مظهريه النفسي والعقلي معاً. لها جذور تتصل بأعماق كيانه النفسي، من حيث هو دين الفطرة، أي دين يتفق مع أصول ما فطر عليه الإنسان من تطلعات وأشواق، كما يتفق مع موازين العقل والمنطق وأحكامهما.

ثم إن موازين العقل والمنطق تنقسم هي الأخرى إلى قسمين: قسم دلّ عليه منهج القرآن وحِجاجه، من البراهين العقلية التي يغلب أن يتعامل بها الناس ويعتمدوا عليها على اختلاف مللهم وأجناسهم. وقسم استخلصه الفلاسفة واستخرجوه من مسالكهم الفلسفية التي اختصوا بها، فكانت قيمة هذا القسم الثاني في الاحتجاج به والاعتماد عليه، مقتبسة من قاعدة «من فمك أدينك». فربّ مناقش يعتمد على مقدمات خصمه لدعم مدعاه، يريه بذلك أن مقدمات الخصم لا تنتج في الحقيقة دعواه بل تنتج نقيضها.

فهذه هي جملة المذاهب والفرق التي واجهها الإسلام لدى بعثة رسول الله ﷺ.

فكيف تراجعت هذه المذاهب والفرق في وجهه، وبأي حجة واجهها المسلمون حتى تغلبوا عليها، وكيف بادت تلك المذاهب بعد أن سادت؟

هذا ما سنجيب عنه الآن بعون الله وتوفيقه.

مسالك الإسلام

في مواجهة التيارات الجانحة على اختلافها

نستخلص مما ذكرناه أن مسالك الإسلام في مواجهة الضلالات والتيارات الجانحة على اختلافها تنحصر في المسالك الثلاثة التالية:

المسلك الأول: استثارة نوازع الفطرة الأصيلة في كيان الإنسان، عن طريق بذل الجهد في سبيل إزالة الغواشي والحواجز التي قد تصد الإنسان عن الشعور بها والخضوع لها. إذ إن الفطرة الإنسانية في أبسط الناس عقلا وإدراكاً تهدي إلى أن لهذا العالم خالقاً، وبعبارة أخرى: إنّ معرفة وجود الله مطبوعة في النفس طبعاً وإن أدنى التفات من العاقل السوي إلى نفسه تجعله يوقن بعبوديته لخالق مدبر عظيم.

المسلك الثاني: تحكيم موازين العقل والمنطق، ونقصد بها تلك التي ائتلفت واجتمعت عليها عقول الناس أجمع. حتى غدت كالعملة العالمية الرائجة. وهذه الموازين العقلية والمنطقية يدعو القرآن إلى استخدامها وإلى مواجهة الجاحدين بها، بل ربما لقن القرآن بأسلوبه المعجز الفريد كيفية الاحتجاج بها. من ذلك ما يسمى بدليل العناية، أو دليل الحكمة والتدبير، أو دليل مظهر العلة الغائية في المخلوقات. وهو دليل تصطبغ به المخلوقات كلها على تنوعها واختلافها، فإنك تلمس في نظامها وتآلفها، يد الإتقان والصنعة، وهو برهان ما بعده برهان على أن للتنظيم منظماً وللصنعة صانعاً.

المسلك الثالث: وهو مسلك الفلاسفة الإسلاميين، من أمثال الفارابي وابن سينا وأبي البركات البغدادي. فقد اعتمدوا أو توكؤوا على منهج الفلاسفة في تقسيم

الأشياء إلى ممكن ومستحيل وواجب، ثم في الاستدلال بأن الممكنات لا تتسم بأحد صفتي الوجود أو العدم، إلا بقدرة مرجحة تحكم عليها بإحدى الصفتين، وصاحب تلك القدرة المرجحة إن كان وجوده هو الآخر من نوع الممكنات، فلا بد من أن يستند وجوده بدوره على ذي قدرة أسبق منه يسبغ عليه صفة الوجود، فإذا فرضنا وجود صاحب هذه القدرة الثانية وجوداً ممكناً أيضاً، وهكذا.. تسلسل إلى ما لا نهاية، وهو باطل ومستحيل. إذن فلابدّ من اليقين بأن الممكنات كلها لابدّ أن تستند في أصل وجودها إلى ذات واجبة الوجود. ينبع وجودها من ذاتها ولا يُضفى عليها من غيرها..

وقد شغل كثير من الباحثين أنفسهم وغيرهم بالجدل والنقاش، حول أفضل هذه المسالك الثلاثة وأجداها في تبصير الإنسان العاقل بوجود الله وحمله على الدينونة له[1]. فمنهم من فضل المسلك الأول، ومنهم من أضاف إليه المسلك الثاني، ومنهم من ذهب إلى أنه لابدّ من اعتماد مسلك الفلاسفة والاستفادة من موازينهم الفكرية والمنطقية أيضاً.

والحقيقة أنه لا مجال للمفاضلة بين هذه المسالك الثلاثة، بل لا معنى للتفكير في إمكان الاستغناء بواحد أو باثنين منها عن الباقي؛ فإن هذه المسالك الثلاثة ما ظهرت في عهد أصحاب رسول الله ﷺ (وهم الرعيل الأول من أمة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام)، بل ظهرت متدرجة، حسب ظهور الحاجة، أي فكان الأساس في استعمالها ملاحظة ضرورة تناسب العلاج مع المرض المشخص، دون تنطع أو تكلف، ودون تقصير أيضاً في استحضار العلاج المناسب.

ومن المعلوم أن السنوات الثلاث عشرة التي أمضاها رسول الله ﷺ في مكة في

---

(١) انظر فخر الدين الرازي وآراؤه الكلامية والفلسفية للأستاذ محمد صالح زركان: ١٧٥ فما بعد.

صدر البعثة، هي المرحلة الأساسية الأولى في الدعوة إلى الحقائق الإسلامية وإزالة الحجب والغواشي الصادّة عن رؤيتها واليقين بها. ومن المعلوم أن الناس الذين كانوا من حوله آنذاك، هم أهل مكة. وقد علمت أن الضلالة التي استحوذت عليهم، كان مبعثها البداوة والجهالة بالإضافة إلى ما قد ركب في طباعهم من العناد والتأبي على الانقياد وتقديس التقاليد والعادات السائدة.

لذا؛ لم يكن ثَمَّة أي موجب للاستعانة (في نطاق دعوتهم إلى الإسلام وإزاحة الضلالة عن رؤوسهم) بغير المسلك الأول الذي يعتمد على استثارة نوازع الفطرة الأصيلة في كيان الإنسان، وتمزيق غواشي العصبية والعناد. على أن القرآن كان يلفت نظرهم - كلما دعت الحاجة - إلى تحكيم موازين العقل التي هي محل إجماع وتقدير من أولي الألباب والعقول في كل زمان ومكان.

فمن الطبيعي إذن أن نستعرض آيات التبصير بوجود الله والدعوة إلى اليقين بحقائق الإسلام وعقائده، التي نزلت في هذه المرحلة من عصر النبوة، فلا نجدها تحفل إلا بالمسلك الأول، مع تعريج على المسلك الثاني كلما دعت الحاجة.

على أن هذه الآيات التي نزلت في تلك السنوات، هي جل الآيات التي تعالج أمور العقيدة وتبرهن عليها، أو هي كلها، إذ الآيات التي نزلت فيما بعد، انتقلت إلى بيان التشريعات والأحكام السلوكية والمبادئ الأخلاقية.

وما كانت ثمة حاجة إلى تحكيم شيء من الموازين والقواعد الفلسفية، لنقل العرب آنذاك من ضلالة الكفر إلى صعيد الإيمان؛ لأن عقولهم فارغة عن الشبهات من جانب، ولأن نفوسهم لا تزال خاضعة للفطرة الإنسانية الأصيلة من جانب آخر.

ثم إنهم كانوا يتمتعون (إلى جانب هاتين الميزتين) بمورد إيماني آخر انفردوا به عن كل من جاء من بعدهم، وهو رؤيتهم رسولَ الله ﷺ وجلوسهم إليه وسماعهم

منه. فكم من ضلالة انقشعت عن نفوس أصحابها لما جلسوا إلى رسول الله فسرحوا أعينهم في مظهره وسيماه، وأنصتوا إلى حديثه وشاهدوا جميل صفاته وأخلاقه.

لذا كان إيمانهم، بعد ذلك، تسليماً، وسكينة عمت جوانب نفوسهم. فلم يكونوا - كما قال ابن خلدون[1] - يقفون عند آية من المتشابهات، ولا يستعظمون نبأ قرآنياً حوى شيئاً من عجائب الغيبيات، ولا يتساءلون عن شيء من ذلك بـ (كيف؟) أو (لماذا؟)، بل كانوا يفرون من الحيرة عند المتشابهات إلى ما يقابلها من المحكمات، وكانت عظمة رسول الله التي فاضت بها قلوبهم، تحملهم على ألا يستعظموا من بعده أي نبأ أخبرهم به عليه الصلاة والسلام، فما أيسر عليهم أن يقولوا بملء قلوبهم وعقولهم: سمعنا وصدقنا. وليس من حولهم من يشكو شبهة فلسفية أو بدعة مذهبية علقت بذهنه، حتى يضطرهم أمره إلى البحث فيها وتفنيدها بأصول البحث والنظر.

على أن كثيراً من أولي الصدارة في العلم في ذلك العصر، كانوا يرون أن الدخول في تفاصيل ما ورد به القرآن من الأمور الاعتقادية كالتنزيه وإثبات الصفات ونحو ذلك، شيء يتجاوز حدود العقل وطاقته، فلا يمكن أن يصل إليه الإنسان إلا بأن يقيس الله على نفسه، وذلك منبع لأخطار كثيرة[2]، فكانوا يغلقون السبيل في وجه كل من شاء أن يستثير الأفكار للبحث في هذه الأمور. على قلة من كان يبحث فيها في ذلك العصر. وقد علمت أن مالك بن أنس رضي الله عنه لما سئل عن معنى الاستواء في قوله عز وجل: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]

---

(١) انظر مقدمة ابن خلدون: ٢٢٦، ط بولاق.

(٢) ضحى الإسلام لأحمد أمين: ١٥/٣.

قال: «الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة».

ولكن الأمر لم يستمر على هذه الحال فيما بعد.

فقد نشأت عوامل مختلفة، ألجأت كثيراً من المتصدِّرين للدَّعوة إلى دين الله، وتجلية مبادئ العقيدة الإسلامية في أذهان الناس، إلى أن يضيفوا إلى المسلكين الأولين المسلك الثالث، وهو الذي سلكه علماء الكلام فيما بعد. وإليك أهم العوامل التي دعت إلى هذا المسلك:

أولاً - إن كثيراً ممن دخلوا في الإسلام بعد الفتح، كانوا من ديانات مختلفة كاليهودية والنصرانية والمانوية والزرادشية، والبراهمة والصابئة.. إلخ وكان فيهم كثير من علماء دياناتهم، فلما ركنوا إلى الإسلام ودرسوا أحكامه وتعاليمه أخذوا يفكرون في تعاليم دينهم القديم، ويقارنون بينه وبين الإسلام، فكان ذلك مثار حديث وجدل لدى كثير من الناس. إذ الطبع والفكر الإنساني يندفعان في مثل هذه الحال إلى المقارنة، واستثارة وجوه التشابه والخلاف، والتعمق في إبراز مزايا ما يُرى أنه الحق، وهو شيء يدفع ولا ريب إلى النظر والنقاش.

ولا نستبعد أن يكون في أولئك الذين تحولوا عن أديانهم إلى الإسلام من كان لا يزال مفتوناً ومعجباً ببعض ما في دينه القديم، فكان يثير أسباب الحديث عنه في المجالس، ويكسوه لباس الإسلام ويقوم بالدفاع عنه بتلك الحجة. ولكنه لا يشكّل ظاهرة عامة في ذلك كما يدلّ عليه كلام أحمد أمين في كتابه ضحى الإسلام، وإنما وقع شيء من ذلك بشكل جزئي وهو أمر طبيعي ومفروض الوقوع[1].

ثانياً - إن الفتح الإسلامي، كان أساساً لنشأة حضارة متكاملة المرافق

---

(١) انظر: ضحى الإسلام: ١/٧.

والأركان، وقد كانت المعرفة بفروعها المختلفة الدعامةَ الأولى فيها. فأعقبَ ذلك قيام حلقات العلم والبحث في شتى المسائل والموضوعات الدينية والأدبية وغيرها، وعكف الناس على تدوين ما ينتهون إليه من زبدة محادثاتهم ومناقشاتهم. فلم يكن بدّ عندئذ من الخوض في المتشابهات، والبحث في غوامض الآيات، وهو أمر يستدعي الاجتهاد، ومن شأن الاجتهاد أن يوصل إلى الخلاف. ومن الطبيعي أن ينهض كل من الأطراف المتخالفة إلى الاستدلال والحجاج لدعم ما يرى أنه الحق.

وتلك ظاهرة تفرض نفسها على جميع الأمم والشعوب لدى صعودها في مدارج الحضارة، وعند اتساع سلطانها الفكري والثقافي والسياسي.

ثالثاً - كان من آثار اتساع الفتوحات الإسلامية وانتشار الدعوة الإسلامية في ربوع الأرض، أن دخلت الآلاف بل الملايين في دين الله أفواجاً، وقد كانوا - كما هو معلوم - ينتمون إلى حضارات ويتمتعون بثقافات مختلفة، فضلا عما كانوا يتصفون به من أمزجة وأخلاق متفاوتة متنوعة، فظهر فيما بينهم زنادقة أضمروا الباطل الذي كانوا يتبنونه وستروه بظاهر من الإسلام والانقياد لأحكامه. ثم أخذوا يدسّون باطلهم، بدعاية من العلم والمنطق كلما سنحت لهم الفرصة، وقد ذكر الشهرستاني أمثلة كثيرة لهؤلاء، منهم - على سبيل المثال - أحمد بن حائط، الذي كان يقول بالتّناسخ مثل ما يقوله البَراهمة، ويقول في المسيح عليه الصلاة والسلام قولا يشبه قول النصارى[1].

وقد اقتضى ذلك أن يتصدَّى لهم علماء المسلمين فيكشفوا للناس زيفهم ويجردوهم مما يصطنعونه، خداعاً، من الحجج والبراهين الكاذبة. وذلك يستوجب، لا محالة، نوعاً من الحجاج والاعتماد على المنطق، لم يكن موجوداً فيما بينهم من قبل.

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني: ١/٧٧، على هامش الملل لابن حزم.

رابعاً - أحسّ كثير من علماء المسلمين والمتجردين لبيان العقائد الإسلامية والدفاع عنها، بالحاجة إلى الوقوف على المصادر التي يستقي منها الزنادقة وتجار الشبهات حججهم وصناعتهم الجدلية، كي يجادلوهم بمثل حججهم، ويظهروا لهم وللناس الآخرين تهافتها وبطلانها، أو يبينوا لهم عدم دلالتها على ما يزعمون من باطل. فاقتضاهم ذلك أن يقرؤوا الفلسفة اليونانية ويطلعوا على المنطق الأرسططاليسي وغيره، وأن يمعنوا النظر والفكر في أقوال هؤلاء المبطلين.

فبهذا الدافع درس (النظّام) منطق أرسطو ثم ردّ عليه، ودرس أبو الهذيل العلاف أصول الفلسفة اليونانية ثم اشتغل بإبطالها، وعكف كثير من المعتزلة على دراسة كثير من نظريات الفلاسفة واصطلاحاتهم: كحديثهم عن الطفرة والتوالد والجوهر، والجوهر الفرد، ثم اشتغلوا بالردّ على ذلك كله.

خامساً - (وهذا العامل يمثل روح العوامل الأربعة السابقة والمنهج إليها) ما تشبع به علماء المسلمين، بدءاً من عصر الصحابة، من التوجيهات القرآنية التي تدعو المسلمين إلى بذل كل جهد للنهوض بأعباء الدعوة الإسلامية؛ وتخطط لهم أصول تلك الدعوة، من مجادلة تلك المذاهب طبق مبادئها المرعية إذا اقتضى الأمر ذلك؛ بل لقد درّبهم القرآن على أكثر من ذلك، إذ وضع أمام أفكارهم نماذج من كيفية استعمال المنطق وأصول النظر في الكشف عن أحابيل المبطلين، وتعرية مقاصدهم وأهدافهم كلما دعا الداعي إلى ذلك.

من ذلك ما تراه من برهان التَّمانع في قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]. ومنه ما تراه من برهان بطلان الدور والرجحان بدون مرجح في قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّماواتِ وَالأَرْضَ بَلْ لا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥ - ٣٦].

ومنه ما تراه من برهان القياس بجامع العلة المشتركة في قوله تعالى وهو يردّ على منكري الحشر: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وقوله تعالى وهو يردّ على النصارى أوهامهم عن المسيح عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

ومنه ما تراه من مظهر المحاكمة الفكرية في طريق البحث عن الصانع والمكون في حديثه جل جلاله عن سيدنا إبراهيم، بدءاً من قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ إلى قوله: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥ - ٧٩].

فهذه الآيات، وأمثالها في القرآن الكريم، ترويض لعقول المسلمين وأفكارهم على النقاش والحجاج في طريق الكشف عن الحق وتجليته أمام بصائر أولي النهى، كلما دعا الأمر إلى ذلك.

ولا ريب أن المسلمين تمرسوا بهذه الأساليب القرآنية تدريجاً، وحصلوا منها على ملكة أقدرتهم على رسم مناهج النظر، وكيفية الجدال مع المبطلين. ثم إنهم وجدوا فيها الدعوة الصريحة لهم إلى عدم الاكتفاء بما يتمتعون به من نعمة الفطرة الإسلامية الأصيلة، التي أغنتهم عن تكلف النظر في براهين المنطق وموازين الفلسفة، بصدد دعوة غيرهم إلى الإسلام. بل أمرهم الله تعالى أن يجابهوا فئات الناس كلا حسب عقليته وما قد حُمِّله من شبه ومشكلات. وهذا من بعض ما تضمنه قوله ﷺ: «كلّموا النّاس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون، أتريدون أن يكذَّب الله ورسوله»[(١)].

---

(١) رواه البخاري موقوفاً على عليٍّ رضي الله عنه، ورفعه الدَّيلمي في مسندِ الفِردَوسِ من طريقِ أبي نُعيم.

فهذه هي أهم العوامل التي دعت المسلمين، بعد استقرار الفتح الإسلامي إلى أن يتجاوزوا المسلكين الأول والثاني في طريق التبصير بالعقائد الإسلامية والدفاع عنها ويقتحموا المسلك الثالث، الذي التقى عليه فيما بعد كل من علماء الكلام والفلسفة الإسلامية. ومن اتِّباعهم لهذا المسلك الثالث، الذي سبق أن عرّفنا به، نشأ وتكامل علم الكلام.

ولكن ما هو علم الكلام؟ وما هو مدى شرعيته، في مجال الدعوة إلى الله والتبصير بحقائق الإسلام؟ هذا ما حان وقت الإجابة عنه بعون الله وتوفيقه.

تعريف علم الكلام وتقويمه

أرى أن خير تعريف له ما عرفه به ابن خلدون في مقدمته إذ قال:

«هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والردّ على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة».

ولدى تأملنا في هذا التعريف له، ندرك أن مضمون هذا العلم يختلف حسب اختلاف الشبهات الطارئة والبدع المستجدة. فكل مجابهة لأي انحراف اعتقادي أو لأي بدعة فكرية مهما تنوعت، بالأدلة العقلية، داخل في ماهية علم الكلام، وعلى هذا فإن التصدي لشبهات الفلسفة المادية القائمة اليوم أو للنظريات المتعارضة مع حقائق الدين الإسلامي، بالمنطق وموازين النظر العقلي من صميم علم الكلام.

ولكن لماذا سمي بعلم الكلام؟

يفهم مما قاله الغزالي في صدر كتابه (إحياء علوم الدين) أنه إنما سمي بذلك، لأن بضاعة الكلام وتشقيقه والتصنيع فيه، تكاد تكون رأس مال هذا العلم وسلاحه، فقد عُرِف أهل الجدل في العقائد بكثرة الكلام، والإسهاب فيه، محققين

كانوا أم مبطلين[1].

وذهب كثيرون إلى أنه من قبيل تسمية الكل باسم جزئه لأهمية ذلك الجزء؛ إذ لما كان البحث في كلام الله عز وجل، وهل هو مخلوق أم قديم، وما يطوف بذلك من أدلة وحجاج، من أكثر ما أفاض فيه علماء هذا الفن، وأطالوا فيه، حتى قامت من جراء ذلك فتن ومشكلات تجاوزت الإطار الديني إلى التيارات السياسية سمي مجموع هذا العلم بعلم الكلام.

ويرجِّح أحمد أمين أن إطلاق هذا الاسم عليه كان في عصر المأمون: «فقد رأينا أنه قبل ذلك كان يسمى البحث في مثل هذه الموضوعات (الفقه في الدين) نظير (الفقه في العلم) فقالوا: «الفقه في الدين أفضل من الفقه في العلم» وسمى أبو حنيفة كتابه في العقيدة: (الفقه الأكبر)»[2].

ويؤيده ما ذكره الشَّهرستاني في الملل في هذا الصَّدد حيث قال: «ثم طالع بعد ذلك شيوخ المعتزلة كتب الفلاسفة حين فسرت أيام المأمون، فخلطت مناهجها بمناهج الكلام، وأفردتها فناً من فنون العلم، وسمتها باسم الكلام»[3].

أما عن أهمية هذا العلم وقيمته ومدى الحاجة إليه، فنقول:

أولاً - لا وجه - بعد الذي أوضحناه - لحصر المنهج القرآني في كل من المسلكين الأول والثاني اللذين ذكرناهما، كما يرى بعض الكاتبين. فقد علمت أن الذي اقتضى احتفال القرآن باستثارة نوازع الفطرة وتحكيم الأدلة العقلية العامة والقريبة المتناول؛ إنما هو واقع المشركين في مكة حيث ظل القرآن ينزل ثلاثة عشر

---

(١) انظر إحياء علوم الدين: ٣٣/١.

(٢) ضحى الإسلام: ١٠/٣.

(٣) الملل والنحل للشهرستاني: ٧٢/١.

عاماً يعالج أمور الاعتقاد والتبصير بحقائق الكون والإنسان والحياة. على أنه روّض عقول المسلمين كما رأينا على مجابهة الجاحدين بالحجاج والجدال، كل حسب حاله ومن خلال المنافذ التي أقبلت إليه الشكوك والشبه منها.

فقد غدت المسالك الثلاثة إذن، مسالك قرآنية، خاضعة لمنهج القرآن في الدعوة إلى الله وتجلية عقائد الإسلام، بشرط واحد، هو أن يُستعمل كل منها في المكان المناسب وطبقاً للحاجة الداعية، دون تشدق وتنطع، ودون تقصير وإهمال.

أي فاستثارة الفطرة، حيث تجثم الشبه العقلية والفلسفية في العقل وتثقله عن التحرك سعياً وراء الفطرة، عبث لا يأتي بطائل. واصطناع المعارك العقلية للرد على شبه عقلية لا وجود لها في المجلس أو بين الجماعة التي يثار الحديث عنها فيما بينهم تنطع ممجوج وتضييع للوقت.

ثانياً - لقد عرض الإمام الغزالي لبيان قيمة هذا العلم، ومدى أهميته، فعرض لرأي من استنكره وحذّر منه، وأكّد عدم الحاجة إليه، ثم أوضح رأي من حبذه ودعا إليه ولفت النظر إلى شدة حاجة المسلمين له. ثم ذكر رأيه الذي يعتمده في ذلك[1].

وقبل أن أوضح الرأي الذي يراه الغزالي في هذا العلم، أقول: لا أرى أيّ تعارض بين من استنكر علم الكلام والاشتغالَ به، ومن حبذه ودعا إليه. فإن الطرفين لم يحررا محلّ البحث والخلاف بينهما. ولو تحرر محل البحث في الموضوع لسقط الخلاف حول قيمة هذا العلم.

فقد كان من المستنكرين لهذا العلم الإمام الشافعي، وهو الذي نسب إليه قوله: «لأن يلقى الله عز وجل العبدُ بكل ذنب ما خلا الشرك بالله، خير له من أن

---

(١) إحياء علوم الدين: ١/٩٧ فما بعد.

يلقاه بشيء من علم الكلام».

وكان منهم أيضاً الإمام أحمد والإمام مالك، وأبو يوسف وهو القائل: «من طلب العلم بالكلام تزندق».

غير أن جمهوراً كبيراً من أصحاب الشافعي نفسه وأصحاب مالك وأبي حنيفة، ذهبوا إلى أن علم الكلام من الفروض الكفائية، وأنها ليست أقل أهمية من علم أصول الفقه ومصطلح الحديث، وعلوم القرآن، بل هو أشرفها جميعاً، لتعلقه بأصول العقائد الإسلامية. واحتجوا بالآيات القرآنية التي تتضمن الحجاج والنقاش في أمور الاعتقادات، وتدعو المسلمين إلى دعوة الناس على أساسها، كما احتجوا بأن علياً رضي الله عنه، كان في مقدمة الصحابة الذين سنوا دعوة المبتدعة، بالمجادلة، إلى الحق. فقد ناظر رضي الله عنه قدرياً في القدر، وأرسل ابن عباس ليناظر أحد الخوارج، وناظر عبد الله بن مسعود يزيد بن عميرة في الإيمان. بل إن الشافعي ذاته أوتي قدرة على الجدل والمناظرة ما أوتي أحد في زمنه مثلها. ولقد كان يجادل ويناظر كلما اقتضى الأمر ذلك.

وحلّ هذا الخلاف، الذي نراه خلافاً في الظاهر فقط، أن الذين استنكروا علم الكلام، إنما حذروا من اتخاذه صنعة وديدناً، والتنطع به بموجب وبدون موجب، وقد قال رسول الله ﷺ: «هلَكَ المتنطِّعونَ»[1]، على أنّهم أنكروه قبل أن تشتدَّ ضراوة الزنادقة وتشيع شبههم في الناس. وهذا الاستنكار بهذا القيد ليس محل خلاف فحتى الذين ألّفوا في علم الكلام واشتغلوا به كالإمام الباقلاني، حذروا من استعماله في غير حاجة إليه.

أما الذين استحبوه وعدوه من الفروض الكفائية، فإنما عدوه كذلك، بعد أن

---

(١) رواه مسلم.

شاعت الشبه والمشكلات، وبعد أن تغلب تيار النقاش والجدل حول آيات الصفات والآيات المتشابهة في المساجد وحلقات العلم، على الوازع الذي كان يجعل الناس يلجؤون إلى حمى السكينة الإيمانية والتسليم لمراد الله، كلما طرحت شبهة. فاستلزم الأمر إعداد العدة، وإفحام الباطل بسلاحه، وإسكاته بالحجة ذاتها التي يصطنعها دعاته، وهذا الاستحباب المقيد بهذا الحد لا نراه محل خلاف عند أحد الطرفين.

ثم إن الإمام الغزالي، أدلى بما يراه القول الفصل في حق هذا العلم، فقال كلاماً طويلا أنقله ملخصاً بألفاظه:

«إن فيه منفعة ومضرَّة، فهو باعتبار منفعته في وقت الانتفاع حلال أو مندوب إليه أو واجب كما يقتضيه الحال، وهو باعتبار مضرته، في وقت الاستضرار ومحلّه، حرام. وإذا وقعت الإحاطة بضرره ومنفعته فينبغي أن يكون كالطبيب الحاذق في استعمال الدواء الخطر، إذ لا يضعه إلا في موضعه، وذلك في وقت الحاجة وعلى قدر الحاجة.. ثم قال: وإن الشافعي وكافة السلف إنما منعوا عن الخوض فيه والتجرد له، لما فيه من الضرر الذي نبهنا إليه»[1].

أقول: وإن علم الكلام اليوم، في حدود الحاجة الماسة إلى التصدي لأسباب الزيغ وموجباته الحديثة، مما يلبس أردية المنطق والعلم، في الظاهر، من أشرف ما يجب على المسلمين الاشتغال به والانصراف إليه، وهو ضمن حدود الحاجة إليه داخل في صميم المنهج القرآني للتبصير بحقائق الإسلام وعقائده.

على أن هذا العلم لا تزيد فائدته على كنس الوساوس الفكرية وطرد الشبه العقلية التي يخيل إلى من وقع في شراكها أنها حقائق ثابتة، أما تنمية اليقين بالله في

---

(١) إحياء علوم الدين: ١٠/٩٩.

القلب فعلاجه اتباع شيء آخر وراء هذا العلم، هو الاستمرار في السعي إلى تزكية النفس من أوضارها عن طريق الإكثار من ذكر الله في الغدو والآصال، والإكثار من تلاوة القرآن، والعبادات، وتطهير اللقمة، والابتعاد جهد المستطاع عن ظلمات الآثام والمعاصي.

نشأة الفرق الإسلامية

وأنت تعلم أننا إنما نعني في هذا المقام تلك الفرق التي اختلفت بعضها عن بعض في أمور تتعلق بالاعتقاد، ولا شأن لنا في هذا الصدد بالمذاهب الفقهية التي يبحث فيها الفقهاء.

فنقول هنا باختصار: إن العوامل التي عددناها أسباباً لنشأة علم الكلام، هي بذاتها أسباب أساسية لنشأة الفرق الإسلامية، كالمعتزلة والمرجئة والجهمية والشيعة والخوارج و.. إلخ.

ذلك لأن مبادئ العقيدة إذا كانت محصَّنة بالتسليم القلبي ومكلوءة بحوافز الفطرة الإنسانية الأصيلة، وليس في العقل شيء من المشوشات والشبهات التي تفد عادة من خارج النفس لأسباب سبق أن ذكرنا طرفاً منها - فإن شيئاً من عوامل الخلاف لا يتسرب إلى مَن هذا شأنهم وحالهم، إذ الخلاف يأتي نتيجة التعمق في الشيء، بحيث يتجاوز الباحث ظواهره البدهية، إلى بواطنه الظنية، فإذا انتهى الباحثون إلى تلك البواطن، لم يؤمن عليهم من الاختلاف، نظراً لظنية أكثر الأدلة، وهو الأمر الذي لا يضمن معه الوصول إلى الاتفاق.

وليس من شأن أصحاب التسليم القلبي تجاوز الظواهر التي لا مجال للخلاف فيها، إذ إنهم ما إن يتنبهون إلى ما وراءها من غوامض ومشكلات، إلا ويطوون المسألة عن النظر ويغلقون باب التأمل الفكري فيها، مسلمين الأمر إلى الله عز

وجل، ثم يعودون إلى الاستمساك بالجذع الأساسيّ والظواهر الكلية الواضحة التي لا مجال لنشوب الخلاف حولها.

وتلك هي حالة أصحاب رسول الله ﷺ في صدر الإسلام. ولو استمر الأمر على تلك الحال، لما تسلل أي خلاف ولما ظهرت فرق أو مذاهب مختلفة.

ولكن لما ظهرت العوامل الخمسة التي عددناها، عند البحث في أسباب نشأة علم الكلام، انساق جمهرة العلماء من بقايا الصحابة وجل التابعين، بدون اختيار منهم، إلى مجاوزة ظواهر الحقائق الاعتقادية وظواهر نصوصها، نحو التأمل والبحث في بواطنها الخفية أو القابلة للنظر والبحث، كما انساق كثير من العلماء إلى العكوف على دراسة الفلسفة اليونانية، أو على دراسة الشبه الفكرية والعقلية عموماً، فاضطرهم الحال إلى البحث في كثير من دقائق الأمور الاعتقادية التي كانوا في غنى عن بحثها والنظر فيها، لو سلمت لهم الحال السابقة. فذرّ من جراء ذلك قرن الخلاف، وظهرت الفرق التي أشرنا إليها.

ويضيف بعض الباحثين، ولاسيما المحدثون منهم، إلى هذه العوامل التي أشرنا إليها، عاملا آخر، لم نتحدث عنه بصدد تعداد عوامل نشأة علم الكلام، إذ لا علاقة له به في الحقيقة؛ وهو العامل السياسي الذي يتمثل في الخلاف الذي نشأ حول أمر الخلافة بعد وفاة النبي ﷺ. فقد استتبع النَّظر في ذلك الأمر السياسي[1] خلافات حول أمر الإمامة والأولى بها، كما تفرَّعت عن ذلك خلافات فرعية أخرى، استقطبت مذاهب أضيفت إلى المذاهب الإسلامية.

---

(١) هكذا يسميه أكثر الكاتبين الجدد (أمراً سياسياً) ونحن نسميه أمراً سياسياً تماشياً مع النظرة الحديثة إلى مسألة الإمامة والخلافة. ولكن هذا الأمر في جوهره، وفي العصر الذي ظهر فيه أمر ديني بحت، ولم يكن يخطر في بال الذين اجتمعوا في السقيفة للحظة واحدة، أنهم يمارسون أمراً سياسياً، وإنما اجتمعوا ليرفعوا عن كواهلهم عهدة دينية يتحملون مسؤوليتها عند الله عز وجل.

ولا نرى علاقة لهذه المذاهب بما نحن في صدده من بيان أسباب نشأة الفرق الإسلامية التي اختلفت فيما بينها ضمن نطاق المسائل الاعتقادية المتعلقة بأصول الدين.

ثم إن الفرق الإسلامية التي نشأت على أعقاب البحث في غوامض المسائل الاعتقادية ودقائقها، إنما تفرعت عن المذهب الأساسي الأول الذي كان ولا يزال يمثل جمهور المسلمين في عصر الصحابة وصدر عصر التابعين، وهو المذهب الذي أطلق عليه فيما بعد مذهب أهل السنة والجماعة، ويمثله الأشاعرة والماتريدية، إذ الخلاف بين هذين الفريقين، جزئي لا أهمية له، فهما في حكم المذهب الواحد.

لذا فقد ظل المذهب الذي يمثل أهل السنة والجماعة، عنواناً على الحق الذي التقى عليه أصحاب رسول الله ﷺ، وسلف هذه الأمة، وكان أصحابه ولا يزالون هم سواد هذه الأمة وغالبيتها العظمى.

أما تلك الفرق التي تفرعت عنه، كالمعتزلة والمرجئة والقدرية وغيرهم، فقد انفصلت عن جماهير أهل السنة والجماعة، كما تنفصل الجداول الصغيرة المتعرجة عن النهر الغمر الكبير.

ولا يفوتنا هنا أن نلفت النَّظر إلى سياسة الاستشراق والمستشرقين اليوم، حيال هذه الفرق الجزئية الصغيرة؛ فهي تضع نصب أعينها ضرورة التنويه بها والدعوة إليها، وإبراز تراجم رجالها في إطار من الإجلال وعبارات الإعجاب، أملا في أن تحيا الخلافات التي نشأت فيما بينها من جديد، وأن يلقى كل منها شيعة وأتباعاً، فيتبدد فيما بينها الخيط العريض الذي كانت ولا تزال تلتقي عليه جماهير المسلمين، أهل السنة والجماعة، عسى أن يتحول أمر العقيدة الإسلامية الجامعة إلى نحل متخاصمة متعادية كما هو الشأن بالنسبة للديانة المسيحية اليوم.

ومع ذلك، فسندرس أهم هذه الفرق، ونقف على نقاط الخلاف فيما بينها،

لنتبين من خلالها السبب الذي من أجله كان مذهب أهل السنة والجماعة هو المستقطب لسواد المسلمين في كل زمان ومكان، ولندرك كيف أن هذا المذهب إنما كان استمراراً مستقيماً لما ترك عليه سيدنا محمد ﷺ أصحابه، فقد كان ولا يزال أبعدها عن غلواء الفلسفة والتأثر بها، وأقربها إلى التمسك بما كان عليه السلف دون انحراف إلى تجسيم ولا تشبيه ولا تعطيل.

الفصل الثاني

دراسة أهم الفرق الإسلامية

وبيان ما اختص به كل منها من اجتهادات وآراء

اعلم أن الفِرق التي ذرّ قرنها بعد وفاة رسول الله ﷺ، وبعد مرور عهد الخلافة الراشدة، تنقسم في مجموعها إلى قسمين:

أ - فرق سياسية يعود العامل الرئيسي في خروجها عن سبيل الجماعة ومنهج الاعتدال، إلى مسألة الخلافة وما قد يتعلق بها.

ب - فرق اعتقادية يعود العامل الرئيسي في خروجها عن سبيل الجماعة ومنهج الاعتدال، إلى مسائل تتعلق بأمور الاعتقاد.

وخطتنا في هذا الكتاب أن نمرَّ بالقسم الأول منها مراً سريعاً، نتوخى منه استحصال نظرة إجمالية إلى الخلافات التي نشأت حول مسألة الخلافة والحكم في الإسلام، والفرق التي توالدت من بعضها من جراء ذلك، والتنبيه إلى أنها غدت بعد حين مرتعاً لأولي الأهواء السياسية والنزعات الدينية، دون أن تكون أصولها الفكرية الأولى جارية في الحسبان.

حتى إذا بدأنا بالقسم الثاني، عرضنا فيه لأهم الفرق الاعتقادية التي كانت أصولا لفروع نشأت عنها. وأوضحنا بقدر من التفصيل مظاهر الغلو والانحراف التي انجرف إليها كل منها، وكيف انفصلت بذلك عن صراط هذه الأمة المتمثل في كتاب الله وسنة رسوله، والمتجلي فيما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ طوال

حياته معهم، وطوال عهد الخلافة الراشدة، انفصال الغصن المنحرف عن جذعه الصاعد المستقيم، فلا هو مدّغم فيه صاعد مستقيم معه، ولا هو منبتّ عنه أو منقطع النسب إليه.

ثم نوضح بعد ذلك دور كل من الإمامين أبي الحسن الأشعري وأبي منصور الماتريدي، في تحصين ذلك الجذع الضخم الصاعد المستقيم، من عبث العابثين وكيد الزنادقة الذين تسللوا يهدفون إلى ذلك الجذع العظيم، من خلال تلك الفرق وخلافاتها الناشئة فيما بينها، ليقوضوا الجذع والأساس وليبددوا رؤية العقول والأفكار الإسلامية عنه فلا تبصر أمامها إلا تلك السبل الخلافية المتعرجة، دون أن تهتدي إلى الصراط العريض المنير الذي ترك عليه رسول الله ﷺ أصحابه، والذي هو المعتصم الوحيد من مغبة كل ضياع وانحراف إلى متاهات السبل المتعرجة، إلى يوم القيامة.

وبذلك تكون دراستنا لهذه الفرق، دراسة علمية تأملية، لكيفية نشأة الفروع الانحرافية عن الصراط العريض الذي كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ، ابتغاء أن نعتبر فنبتعد عن متاهات تلك الفروع متحصنين بذلك الصراط العريض. ولا تكون هذه الدراسة سعياً إلى حجب أنفسنا عن هذا الصراط البيّن العظيم، بشذوذات تلك الفرق، على نحو ما يجنح إليه المستشرقون إذ يظهرون لنا الاهتمام البالغ بهذه الفرق وآرائها، ويتظاهرون بالتأثر والإعجاب الشديد بكثير منها، وهو منهج استشراقي في دراسة تاريخ الفرق، لا تخفى أهدافه على عامة المثقفين في هذا العصر.

أولاً - الفرق السياسية

وقد قلنا إن العامل الرئيسي لنشأة هذه الفرق، هو الخلافة وما يتعلق بها.

والجدل الذي ثار حول مسألة الخلافة يدور - كما يقول الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله - على المحاور التالية[1]:

- أحدها: أيجوز إقامة خليفتين في وقت واحد، أم لابد أن يكون الخليفة واحداً؟
- ثانيها: هل يتحتم كون الخليفة قرشياً؟
- ثالثها: هل يجب أن يكون من بيت النبوة؛ أي من آل بيت رسول الله ﷺ؟
- رابعها: هل الخلافة مستلزمة للعصمة، فلا ينالها إلا المعصوم الذي لم يرتكب معصية قط؟

والمهم في هذا الصدد أن نلاحظ أنّ هذا الجدل، وإن كان سياسياً في مظهره، وبالمعنى الذي يفهمه الناس اليوم، إلا أنه ديني في منشئه وأسسه، وليس كما آل إليه الحال اليوم أن يكون الجدل والخلاف في أمر ما دينياً في مظهره سياسياً في بواعثه وأساسه.

إن مما لا ريب فيه أن ظهور هذه الفرق قام على عكس الصورة التي كثيراً ما تشاهَد اليوم. فالقناعات الدينية فيها هي الأساس، والمستلزمات السياسية نتائج وفروع لتلك القناعات الدينية.

فما أهمها أمر الخلافة حينئذ، وما نهض أصحابها بالنقاش أو الجدل حوله، وما انقسموا من جرّاء ذلك فرقاً، إلا تمحيصاً وتحقيقاً لواجب إسلامي في تصور كل

---

(١) المذاهب الإسلامية للشيخ أبو زهرة: ٣٤، ٣٥.

منهم؛ ولكنه بقي (في تصوراتهم) أمراً خاضعاً للنظر والبحث، لا تتجلى فيه بواعث الاتفاق على يقين واحد فنشأ الاختلاف من جراء ذلك فيما بينهم.

على أن هذا الذي بدأ بدافع ديني كما أقول، لم يلبث أن غدا فيما بعد، ذريعة لكل ذي مطمح سياسي، أو نزعة إلحادية، أو هوى جانح عن سبيل الحق. فغدت هذه الفرق بذلك مطايا لأصحاب الأغراض وأولي الانحرافات على اختلافها. وأنت تعلم أن دعاة السوء والزيغ، لا يستطيعون أن يتسللوا إلى المجتمع الإسلامي المتماسك، إلا من نوافذ هذه الفرق وأمثالها إذ يتمادى بها الجدل والصراع، فتنحرف عن الجادة ربما دون أن تنتبه إلى أنها انحرفت عنها، فتتفتح من ذلك ثغرة، وما هو إلا أن ينحط فيها ويتسلل إليها المتربصون، من أولي الزيغ، تجار الزندقة والضلال.

وإليك بياناً موجزاً بأهم هذه الفرق الصغرى التي نشأت عنها:

الشّيعة

من المعلوم أن نشأة الفكر الشيعي كانت عند تمام البيعة لسيدنا أبي بكر رضي الله عنه. ولكنه لم يظهر مذهباً على صعيد المجتمع الإسلامي إلا في أواخر عهد سيدنا عثمان رضي الله عنه. أما شأنه فيما بين ذلك فإنما كان وجهة نظر قامت يوم السقيفة، ثم هدأت وطويت باستقرار الأمر لأبي بكر رضي الله عنه واجتماع الناس على بيعته، ولاسيما عندما بايعه سيدنا علي كرم الله وجهه بذاته. وقد كانت بيعته له بعد وفاة فاطمة رضي الله عنها بعشرة أيام، وقيل بعد وفاة رسول الله ﷺ بثلاثة أشهر، وقيل غير ذلك[1].

---

(١) انظر مروج الذهب للمسعودي: ٢/٣٠٢، طبعة بيروت.

ويتلخص مذهبهم الذي يتفقون جميعاً عليه في النقاط التالية:

أولاً - ليست الإمامة من المصالح العامة التي تفوَّض إلى نظر الأمة، بحيث يُعتمد الشخص الذي تختاره من بينها للنهوض بهذا الأمر، بل هي ركن الدين وقاعدة الإسلام، وليس من شأن النبي إغفاله ولا تفويضه إلى ما تراه الأمة، بل يجب عليه أن يعين لهم الإمام من بعده.

ثانياً - لابدّ أن يكون الإمام معصوماً من المعاصي بنوعيها: الكبائر والصغائر.

ثالثاً - إنّ علياً رضي الله عنه وكرم الله وجهه، هو الإمام الذي عينه رسول الله ﷺ للأمة من بعده.

فهذه النقاط الثلاث محل إجماع منهم جميعاً عليها، على اختلافهم وتفرقهم عن بعضهم بصدد النظر في أمور أخرى.

ثم إنهم لما نظروا في أمر الخلافة من بعد علي كرم الله وجهه تفرقوا إلى المذاهب التالية:

مذهب يرى أن مساق الخلافة من بعد علي كرم الله وجهه في ولد فاطمة، بالنص عليهم، واحداً إثر آخر. وأصحاب هذا الرأي هم الإمامية؛ نسبة إلى مقالتهم باشتراط معرفة الإمام وتعيينه في الإيمان.

ومذهب يرى أن مساقها في ولد فاطمة، لكن بالاختيار من الشيوخ، على أن يكون الإمام منهم عالماً زاهداً جواداً شجاعاً. وأصحاب هذا الرأي هم الزيدية، نسبة إلى صاحب المذهب وهو زيد بن علي بن الحسين.

ولما ناظر الإمامية زيداً في إمامة الشيخين، ورأوه يقول بإمامتهما ولا يتبرأ منهما رفضوه ولم يجعلوه من الأئمة المعتمدين. وبذلك سموا رافضة.

ومذهب يرى أن مساق الخلافة بعد علي وابنيه السبطين، إلى أخيهما محمد

ابن الحنفية، ثم إلى ولده. وأصحاب هذا الرأي هم الكيسانية نسبة إلى كيسان مولى محمد ابن الحنفية.

وقد نشأت منهم طوائف يسمّون الغلاة، تجاوزوا حدّ العقل والإيمان، فقالوا بألوهية كثير من هؤلاء الأئمة وقد تبرأ منهم أولئك الأئمة أنفسهم، وعاقبوهم على ذلك عقاب المرتدين[1].

ونحن نرى أن موضع النظر والبحث في هذه المسألة قد طوي وزال؛ فقد عفى الزمن على ما يمكن أن يختلف المسلمون حوله من أمر الخلافة والأحق بها من مجموع الخلفاء الراشدين؛ إذ هي مسألة تاريخية فصل الزمن والواقع في أمرها. وحسبك أن تعلم أن علياً كرم الله وجهه، وهو موضوع هذا البحث وبطل هذه المسألة وأصلها، قد بايع بنفسه أبا بكر رضي الله عنهما، واستقر الأمر على ذلك.

أفلا ترى أن نبش هذا الماضي الذي لا توجد له اليوم أي ظلال تطبيقية، واتخاذه مادة تصديع لصف المسلمين وبذر أسباب الخلاف بينهم من أعجب الأعمال المبكية والمضحكة بآن واحد؟

وإذا أعوزك أن تجد ما يثلج له صدرك، حيال واقع مضى وانقضى، في الصدر الأول من تاريخ المسلمين، فاذكر أن هذا الترتيب الذي شاءه الله تعالى في تعاقب الخلفاء الراشدين هو السبيل الوحيد إلى أن تسعد الأمة الإسلامية آنذاك بخلافتهم وإمرتهم جميعاً. فلو كان الترتيب على خلاف ذلك لخسر المسلمون خلافة واحد منهم على أقل تقدير؛ أي لو كان سيدنا علي رضي الله عنه هو أول الخلفاء، لما كان للمسلمين نصيب من خلافة أي من الثلاثة الذين كانوا قبله.

أما ما وراء أمر الخلافة من المسائل الفقهية الفرعية التي أخذت الشيعة فيها

---

(١) عن مقدمة ابن خلدون بتلخيص: ٩٦، طبعة بولاق.

باجتهادات خاصة بهم فأمر ذلك هين والخطب فيه يسير. وإنما المدار في كل اجتهاد ينهض به عالم من علماء المسلمين أياً كان، أن يكون اجتهاده معتمداً على مدرك ودليل من كتاب الله أو سنة رسوله.

ولكن العجيب الذي لا يهضمه عقل ولا تقبله غيرة صادقة على الدين الحق، هو أن نقوم ونقعد، بعد مرور ما يقارب خمسة عشر قرناً على عصر الخلافة الراشدة، فنجعل من أحقية علي أو غيره، موضوع لجج ومسألة خلاف، وحجاب تفرقة بين الإخوة المسلمين!.. إن لكلٍّ أن يحتفظ لنفسه بالعقيدة التي اقتنع بها من هذا الأمر، وهو مأجور إن شاء الله. ولكن ليس لأحد منهم أياً كان أن يجعل من عقيدته التي انفرد بها عصا تفرقة بين المسلمين، واتهام لمخالفيه بالخروج عن الملة.

الخَـــــوارج

تعود نشأة الخوارج - كما هو معلوم - إلى الحرب المستعرة التي قامت بين عليٍّ رضي الله عنه ومعاوية في موقعة صفّين. فقد دعا معاوية إلى تحكيم القرآن عندما أحس بالهزيمة تحدق به، فقام في جيش علي رضي الله عنه من يؤيد هذا التحكيم، ويضغط على علي رضي الله عنه أن يقبله.

فلما خضع علي للتحكيم، وقام حَكَم من هذا الطرف وحَكَم من ذاك، ونجحت الخطة التي كان قد وضعها معاوية للفوز بما يريد، عاد أولئك الذين ضيقوا على عليّ وألجؤه إلى قبول التحكيم، يلومونه ويعنفونه على ما صنع، وانقلبوا عليه بعد أن كانوا شيعة له، وانحاز عنه منهم اثنا عشر ألفاً فلحقوا بحروراء - وهي قرية من قرى الكوفة - وأمَّروا عليهم شبيب بن ربعي التميمي، فخرج علي رضي الله عنه إليهم، وقامت بينه وبينهم مناظرات، وإنما سموا بالحرورية لاجتماعهم في

هذه القرية وانحيازهم إليها. وهم من أكبر فئات الخوارج عدداً وأشدهم ضراوة وتمسكاً بما يرون.

روى المسعودي أن علياً رضي الله عنه لما قدم الكوفة، جعلت الحرورية تناديه وهو على المنبر: «جزعت من البليَّة، ورضيت بالقضيَّة، وقبلت الدنيَّة، لا حكم إلاَ لله. فيقولُ عليٌّ رضي الله عنه: حكمَ الله أنتظر فيكم. فيقولون: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥] فيقول علي: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠]»[1].

ولقد كانت بينهم وبين علي رضي الله عنه حروب لا مجال للحديث عنها، ثم كان مقتله على يد واحد منهم، وهو عبد الرحمن بن ملجم.

أهم المعتقدات التي انفردوا بها:

قد عرفت مما سبق أن الخوارج كانوا يعانون من ضيق في التفكير، وغلظة في الطبع، وقسوة في معالجة الأمور، وتعصب لما يرون. ويعود ذلك إلى أن أكثرهم من الأعراب والقبائل الجافية، لم يتذوقوا طبيعة الشريعة الإسلامية ولم يتمرسوا بمعرفتها، فزادتهم عصبيتهم بلاءً وأضافت إلى جهالتهم عناداً عندها وتشبثاً بها.

وقد تمسَّكوا - من دون سائر المسلمين - بمعتقدات جعلت لهم مذهباً متميّزاً نجملها فيما يلي:

أوَّلا - الخليفة لا تتمُّ له الخلافة إلاَّ بمبايعة تامَّة صحيحة، يقوم بها عامَّة المسلمين لا فريق منهم. فإذا حاد الخليفة بعد ذلك عن الحق أياً كان، وجب عزله، فإن لم ينعزل وجب قتله.

ثانياً - جميع الناس في أمر الخلافة سواء، لا فرق في ذلك بين قرشي وغيره

---

(١) مروج الذهب للمسعودي: ٣٩٥/٢، طبعة بيروت.

ولا بين عربي وأعجمي. وقد بايعوا من بينهم عبد الله بن وهب الراسبي، وهو غير قرشي، وسموه أمير المؤمنين.

ثالثاً - يكفر المسلم، في اعتقادهم، بارتكاب معصية ما، دون أي تفريق بين معصية وأخرى، أو صغيرة وكبيرة[1]، وحتى لو انزلق إليها خطأ أو بدافع اجتهادي، كأن اجتهد فأخطأ فهي خطيئة مكفرة؛ ولذا كفروا علياً رضي الله عنه بالتحكيم، مع أنه دخل فيه مكرهاً، وقبله اجتهاداً. فهذا دليل على أنهم يكفرون المسلم بأي ذنب اقترفه أو خطيئة وقع فيها، لا بارتكاب الكبائر فقط، كما نقل عنهم.

رابعاً - ثم إنهم يجيزون ألا يوجد إمام للمسلمين أصلا، إذا اتفقوا فيما بينهم على ذلك وسارت أمورهم دون حاجة إليه[2].

وقد كانوا يأخذون بظواهر النصوص، دون أن يعملوا فيها العقل والنظر إطلاقاً، فبينهم وبين الظاهرية من هذا الجانب نسب وتشابه.

لذا كان علي رضي الله عنه إذا جادلهم لم يحدّثهم عن نصوص كتاب أو سنة، بل كان يناقشهم بعمل رسول الله ﷺ، إذ لا مفرّ لهم من الاعتداد به والخضوع له.

وقد نقل الشَّيخ محمد أبو زهرة عن كتاب (نهج البلاغة) صوراً من مناقشاته رضي الله عنه لهم. من ذلك قوله يخاطبهم:

«فإن أبيتم إلا أن تزعموا أني أخطأت وضللت، فلم تُضلون عامة أمة محمد

---

(١) انظر الفَرق بين الفِرَق للبغدادي: ١١٧.

(٢) انظر الملل والنحل للشهرستاني: ١٥٧/١، ١٥٨ على هامش الملل لابن حزم، والمذاهب الإسلامية للشيخ محمد أبو زهرة: ١٠٥ فما بعد.

ﷺ، وتأخذونهم بخطئي وتكفرونهم بذنوبي؟. سيوفكم على عواتقكم تضعونها مواضع البرء والسقم وتخلطون من أذنب بمن لم يذنب. وقد علمتم أن رسول الله ﷺ رجم الزّاني المحصن، ثم صلّى عليه، ثم ورّثه أهله، وقتل القاتل، وورث ميراثه أهله، وقطع يد السارق، وجلد الزاني غير المحصن، ثم قسم عليهما من الفيء، ونكحا المسلمات، فآخذهم رسول الله ﷺ بذنوبهم، وأقام حق الله فيهم، ولم يمنعهم سهمهم من الإسلام، ولم يخرج أسماءهم من بين أهله»[1].

فرق الخوارج:

ثم إن الخوارج اختلفوا فيما بينهم في جزئيات شتى، بعد اتفاقهم، أو اتفاق أكثرهم إجمالا على هذه الأصول الأربعة التي ذكرناها عنهم.

وكبار فرق الخوارج التي نشأت عن اختلافاتهم تلك، ستة هي:

الأزارقة، والنجدات، والصفرية، والعجاردة، والإباضية، والثعالبة.

وأقل هذه الفرق غلواً، الإباضية. وهم أصحاب عبد الله بن إباض، كانوا يرون أن مرتكب الكبيرة يكفر كفر نعمة لا كفر ملة؛ أي لا يخرج بها عن الملة الإسلامية، وكانوا يقولون إن دار مخالفيهم من أهل الإسلام دار توحيد، إلا معسكر السلطان فإنه دار بغي[2].

قال الشهرستاني: «وقد قاتلهم علي رضي الله عنه بالنهروان مقاتلة شديدة، فما انفلت منهم إلا أقلّ من عشرة، وما قتل من المسلمين إلا أقل من عشرة. فانهزم اثنان منهم إلى عمان، واثنان إلى كرمان، واثنان إلى سجستان، واثنان إلى

---

(١) المذاهب الإسلامية: ١٠٨- ١٠٩.

(٢) الملل والنحل للشهرستاني: ١٨١/١، على هامش الملل لابن حزم.

الجزيرة، وواحد إلى تل مورون باليمن. وظهرت بدع الخوارج في هذه المواضع»[1].

ثانياً - المذاهب الاعتقادية

تنقسم المذاهب الاعتقادية التي انحرفت وتفرعت من الخط العريض الذي التقت عليه الأمة الإسلامية في حياة رسول الله ﷺ، وعهود الخلافة الراشدة من بعده إلى قسمين:

القسم الأول مذاهب رئيسة نسبياً؛ أي بالنسبة إلى الفروع التي نشأت عنها.

القسم الثاني مذاهب فرعية صغيرة تفرعت عن تلك المذاهب الرئيسة، عندما اختلف أصحابها فيما بينهم على بعض من الفروع والجزئيات.

ونحن هنا لن نتحدث عن شيء من مذاهب القسم الثاني، فهي كثيرة متنوعة، أطال عبد القاهر البغدادي في تفصيلها وبيان كيفية تفرعها من مذاهبها الرئيسية الأولى وأنهاها إلى ما يقارب سبعين فرقة[2].

وإنما نتناول أهم المذاهب الرئيسة التي كان لها شأن أو تركت أثراً في تاريخ المذاهب الإسلامية. والحقيقة أن المذاهب التي تمتاز بهذه الصفة، يمكن أن تنحصر في كل من مذهبي الاعتزال والإرجاء.

أما الأشاعرة والماتريدية الذين ظهروا بعد ذلك، فالواقع أن تصنيفهما مع هذه المذاهب جارٍ على سبيل التجوز والمشاكلة؛ إذ سنجد أن عمل كل من الإمامين أبي الحسن الأشعري وأبي منصور الماتريدي كان بمثابة إزاحة الأنقاض أو الركام عن معالم الطريق العريضة الثابتة من قبل، والتي التقى عليها جمهور العلماء وسواد

---

(١) المرجع المذكور: ١٥٩/١.

(٢) انظر الفرق بين الفِرق: للبغدادي.

الأمة الإسلامية بدءاً من عصر النبوة فما بعد. فما ابتدع أحد منهما في العقيدة الإسلامية رأياً ولا أضاف إليها من عنده جديداً، بل عاد كل منهما بسواد الأمة التي كادت تضيع بين صراعات أرباب السبل المتعرجة المتفرعة، إلى الملاذ والمرجع الأول والأخير، ألا وهو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

أما خلافات كل من هذين الإمامين مع بعضهما، فسنجد عندما يحين البحث في ذلك، أنها خلافات لفظية محصورة، ليست داخلة في شيء من جوهر العقيدة وبنيانها.

تصوّر عام لكيفية نشأة المذاهب الاعتقادية وتوالدها

على أننا وإن كنا سنقصر حديثنا على المذهبين الرئيسيين: الاعتزال والإرجاء، إلا أن من الضروري أن نتبصر جيداً، من خلال عرض خارطة موجزة عامة، كيفية توالد المذاهب الاعتقادية بعضها عن بعض، والمسار الذي اتخذه كل منها لنفسه، وكيف بدأت انحرافاتها عن الصراط العريض ثم إلامَ انتهت أو تبددت.

وقد رأيت بعد طول مراجعة وبحث، أن خير من تتبع ذلك وعرضه عرضاً جامعاً وجيزاً، فيما يشبه لوحة تثبت في الذهن كيفية توالد هذه المذاهب الجانحة عن بعضها، العلامة الشيخ محمد زاهد الكوثري، في مقدمته العلمية الهامة على كتاب (تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام الأشعري) للحافظ ابن عساكر وهو الذي أشرف على طباعته، وتولى تحقيقه والتعليق عليه. ومن الخير أن أنقل النص الذي يتولى بيان صورة هذا التشابك أو التوالد لتلك المذاهب كما هو، مع شيء من التلخيص. فقد قال تحت عنوان لمعة في نشأة الفرق، ما نصُّه:

«.. وبعد التحكيم في وقعة صفين انفضّ الخوارج من حول علي كرم الله

وجهه، وغلوا حتى أخذوا يكفرون مرتكب الكبيرة[1]. ولما توفي عليّ، دام أناس على مشايعته ومشايعة آله فسمُّوا الشيعة، وكانت زنادقة الرافضة تجد بينهم مرتعاً خصباً لزرع بذورهم كلما تكرر اضطهاد أهل البيت من بني أمية وغيرهم. وحين تخلّى الحسن السبط عن الخلافة لمعاوية، اعتزل الفريقين جماعةٌ ولزموا مساجدهم يشتغلون بالعلم والعبادة، وكانوا قبل ذلك مع علي رضي الله عنه، حيثما كان، وهم أصل المعتزلة[2]، ويقال إن أول من قام بالاعتزال أبو هاشم عبد الله والحسن، ابنا محمد ابن الحنفية. ثم أخذ الثاني يردّ على الخوارج في مسألة الإيمان ويقول: الإيمان هو الكلمة والعقد دون الأعمال. فسمي هو وجماعته مرجئة لتأخيرهم العمل عن الإيمان. وحدث منهم طائفة تقول: لا يضرّ مع الإيمان معصية، وهم مرجئة البدعة.

«وكان عدةٌ من أحبار اليهود ورهبان النصارى وموابذة المجوس أظهروا الإسلام في عهد الراشدين ثم أخذوا بعدهم في بثّ ما عندهم من الأساطير بين من تروج عليهم ممن لم يتهذب بالعلم من أعراب الرواة وبسطاء مواليهم، فتلقفوها منهم ورووها لآخرين بسلامة باطن معتقدين ما في أخبارهم في جانب الله من التجسيم والتشبيه، ومستأنسين بما كانوا عليه من الاعتقاد في جاهليتهم، وقد يرفعونها افتراء إلى الرسول ﷺ أو خطأ، فأخذ التشبيه يتسرب إلى معتقد الطوائف ويشيع شيوع الفاحشة.. فأول من انخدع بهم الشيعة، ولكن سرعان ما تراجعوا عن ذلك بمناظرة المعتزلة لهم...

---

(١) سبق أن أوضحنا أن الذي يدل عليه صنيعهم وتكفير كثير منهم لعلي رضي الله عنه، أنهم يكفرون بمطلق = ارتكاب الذنب، حتى وإن كان مبناه خطأ اجتهادياً.

(٢) اعتمد العلامة المحقّق في هذا على ما ذكره أبو الحسن الطرائفيّ الدمشقي (المتوفى سنة ٣٣٧هـ) في كتابه: (ردّ أهل الأهواء والبدع).

«وقد سمع معبد بن خالد الجهني من يتعلل في المعصية بالقدر، فقام بالرد عليه ينفي كون القدر سالباً للاختيار في أفعال العباد، وهو يريد الدفاع عن شرعية التكاليف، فضاقت عبارته وقال: «لا قَدَر والأمرُ أُنُف» ولما بلغ ذلك ابن عمر تبرّأ منه، فسمي جماعة معبد قدرية، ودام مذهبه بين دهماء الرواة من أهل البصرة قروناً، بل تطور عند طائفة منهم إلى حد أن جعلوا للخالق ما ينسبه الثنوية إلى النور، وإلى المخلوق ما يعزونه إلى الظلمة.

وكان غيلان بن أسلم الدمشقي ينشر بدمشق رأي معبد، فطلبه عمر بن عبد العزيز ونهاه عن ذلك وكشف شبهته، فانتهى وقال: «يا أمير المؤمنين لقد جئتك ضالا فهديتني، وأعمى فبصرتني، وجاهلا فعلمتني. والله لا أتكلم في شيء من هذا الأمر أبداً». ولما بدأ يذيعُ أمر معبد أخذ في الرد عليه جهم بن صفوان بخراسان، فوقع في الجبر ونشأ عنه مذهب الجبرية.

وكان الحسن البصري من جلة التابعين، وممن استمر سنين ينشر العلم في البصرة، ويلازمه نبلاء أهل العلم. وقد حضر مجلسه يوماً أناس من رعاع الرواة، ولما تكلموا بالسقط عنده قال: «ردوا هؤلاء إلى حشا الحلقة» أي جانبها، فسموا بالحشوية، ومنهم أصناف المجسمة والمشبهة.

وكان واصل بن عطاء بعد أن أخذ الاعتزال عن أبي هاشم، يحضر في مجلس الحسن، وقد ذكرت مسألة الإيمان في المجلس، فبادر واصل إلى القول بأن الكافر المجاهر والمؤمن المطيع لا خلاف في تسميتهما كافراً ومؤمناً. ومرتكب الكبيرة حيث كان موضع اختلاف في إطلاق أحدهما عليه نأبى إطلاق هذا وذاك عليه ونقول فيه إنه فاسق، أخذاً بما اتفقوا وهجراً لما اختلفوا.. فلم يرتض الحسن كلامه، فانسحب واصل من المجلس وأخذ ينشر مذهب الاعتزال والأصول الخمسة مع صاحبيه عمرو بن عبيد وبشر بن سعيد، وعنهما أخذ بشر بن المعتمر وأبو الهذيل، وبالثاني

تخرج أبو بكر عبد الرحمن بن كيسان الأصم وإبراهيم النظّام.. فهؤلاء هم قادة الاعتزال في البصرة وبغداد.

وأول من عرف بالقول بخلق القرآن الجعد بن درهم بدمشق، وكان جهم أخذ ذلك القول من الجعد وضمه إلى بدعه التي قام بإذاعتها، ومن جملتها نفي الخلود. ولما قام الحارث بن سريج بخراسان ضد الأموية داعياً إلى الكتاب والسنة اعتضد بجهم. وكان مقاتل بن سليمان ينشر هناك نحلة في التجسيم، فأخذ جهم يرد عليه وينفي ما يثبته مقاتل، فأفرط في النفي حتى قال: «إن الله لا يوصف بما يوصف به العباد»، ولم يفرق بين الاشتراك في الاسم والاشتراك في المعنى.

وبعد أن بدأ يطرأ بعض الفتور على الفتوح، ازداد الناس تفرغاً لتلك الآراء المبثوثة وتغلبت على عقولهم شهوة التعمق فيها.. وبدأت تترجم كتب الملاحدة والثنوية من الفرس حتى استفحل أمرهم.. فأمر المهدي علماء الجدل من المتكلمين بتصنيف الكتب في الرد على الملحدين، فأقاموا البراهين وأزالوا الشبه وأوضحوا الحق وخدموا الدين.. وكان القائمون بأعباء تلك المدافعات طائفة من المعتزلة، وقد علق بنفوس هؤلاء المدافعين ما لا يستهان به من أمراض عقلية عدت إليهم من مناظريهم، وكان غالب الفقهاء وحملة السنة طول هذه المكافحات يأبون الخوض في تلك المسائل ويجرون على ما عليه الصحابة وخيار التابعين من الاقتصار على ما ثبت من الدين بالضرورة، مع أن حفظة الدين كان لهم من الأسلحة ما لا يمكن مقابلته إلا بمثل أسنّتهم. ففي هذه الظروف تولى المأمون وأخذ يشايع المعتزلة ويقربهم حتى حمل الناس على القول بخلق القرآن والتنزيه حسبما يوحي إليه عقله وعقل خلطائه. ودام الأمر على ذلك مدة خلافة المعتصم والواثق، إلى أن رفع المتوكل المحنة، وأظهر الإمام أحمد فيها من الثبات ما رفع شأنه، ولم يكن للمتوكل ما يحمد عليه أكثر من أن رفع المحنة ومنع الناس عن المناظرات في الآراء

والمذاهب..

ثم ابتدأ رد الفعل يأخذ سيره الطبيعي، من ارتفاع شأن الحشوية والنواصب وانقماع أهل النظر والمعتزلة. وأهلُ السنة من الفقهاء والمحدثين يواصلون العمل في علومهم من غير جلبة ولا ضوضاء.. وكانت المعتزلة، مع هذا، تتغلب على عقول المفكرين من العلماء ويسعون في استعادة سلطانهم على الأمة، وأصناف الملاحدة والقرامطة توغلوا في الفساد واحتلوا البلاد، حيث لم يبق في ثغور الدفاع عن الدين من يرابط بحجج دامغة تمحق مخرقتهم، لانشغالهم بنفوسهم عما جدّ من الأحوال.

ففي مثل هذه الظروف الحرجة، غار الإمام أبو الحسن الأشعري رضي الله عنه على ما حلّ بالمسلمين من ضروب النكال، وقام لنصرة السنة وقمع البدعة. فسعى أولا للإصلاح بين الفريقين من الأمة بإرجاعهما عن تطرفهما إلى الوسط العدل قائلا للأولين: أنتم على حق إذا كنتم تريدون بخلق القرآن اللفظ والتلاوة والرسم، وللآخرين أنتم مصيبون إذا كان مقصودكم بالقديم الصفة القائمة بذات الباري غير البائنة منه، يعني الكلام النفسي.. وهكذا، حتى وفقه الله لجمع كلمة المسلمين وتوحيد صفوفهم وقمع المعاندين وكسر تطرفهم.. وتواردت عليه المسائل من أقطار العالم فأجاب عنها، فطبق ذكره الآفاق وملأ العالم بكتبه وكتب أصحابه في السنة والرد على أصناف المبتدعة والملاحدة وأهل الكتاب. وفقهاء المذاهب يتجاذبون الأشعري إلى مذاهبهم ويترجمونه في طبقاتهم.. فالمالكية كافة وثلاثة أرباع الشافعية وثلث الحنفية وقسم من الحنابلة على طريقة الأشعري في الكلام، والثلثان من الحنفية على الطريقة الماتريدية»[1].

---

(١) ستعلم فيما بعد أن الخلاف بين الإمامين الأشعري والماتريدي ضئيل جداً، يتجمع في مسائل محدودة -

ثم قال العلامة الكوثري: «ومن الجليّ أنه لا دخل للعلم في نشأة الخوارج والشيعة، بل ولدتهما العاطفة السياسية، ثم اندس فيهما خصوم الدين من الزنادقة، فتطورتا أطواراً شائنة»[1].

فهذا النص الذي نقلناه بطوله، يكشف لك المنظور العام للمناخ والأجواء التي نشأت وتوالدت فيها المذاهب الإسلامية المختلفة التي تفرعت منحرفة عن المنهج الإسلامي العام الذي التقى عليه أصحاب رسول الله ﷺ وجمهور التابعين.

أما الآن فعلينا أن ندرس أهم هذه المذاهب، دراسة علمية تعنى بما اختص به كل منها من الاتجاهات الاعتقادية، مع شيء من النقاش العلمي الذي يكشف عن قيمتها العلمية، وهذا يعني أنه لا يهمنا في المقام الأول أن ندرس نشأة هذه المذاهب وحياتها من الزاوية التاريخية.

المُعتـــزِلـــة

قد علمنا مما ذكره الشيخ زاهد الكوثري نقلا عن أبي الحسين الطرائفي الدمشقي (ت: ٣٧٧ هـ) أن أصل المعتزلة هم أولئك الذين كانوا من شيعة سيدنا علي رضي الله عنه، فلما تخلى الحسن رضي الله عنه عن الخلافة لمعاوية، اعتزلوا الناس وانقطعوا لمساجدهم وعبادتهم، ولا نستبعد أن يكون اسم الاعتزال قد نشأ والتصق بهم بشكل ما منذ ذلك العهد.

على أنه لا يهمنا في هذا الصدد أن نحقق تاريخياً في نشأة كلمة الاعتزال

= ومعظم ما بينهما من خلاف فيها نظري أو لفظي.

(١) ملخصاً من مقدمة الشيخ زاهد الكوثري لكتاب تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، ٩- ١٧.

وكيفية ولادة أو ظهور أفكارهم، كما اهتم بذلك طائفة من المستشرقين والمؤرخين العرب، وإنما يهمنا أن نتبين البدع التي اختص بها أصحاب هذا المذهب وأقدم القائلين منهم بها، وأن نحاكمها إلى شيء من البراهين المعتمدة في هذا الصدد.

من المتفق عليه أن قادة الاعتزال المتمثل في أصوله الخمسة التي سنذكرها، هم:

أبو علي محمد بن عبد الوهاب الجُبَّائيُّ، ثم واصل بن عطاء، وعَمرو بن عُبيد، وبشر بن سعيد، ثم بشر بن المُعتمِر وأبو الهُذَيلِ العلاَّف، ثم أبو بكر عبد الرحمن بن كيسان الأصم، وإبراهيم النَّظام.

إلا أن لأصل الاعتزال نسباً إلى معبد الجُهني، وهو أوَّل من تكلَّم في القدر فنفاه، وقال: «الأمر أنُفٌ». كما أسلفنا، فعنه أخذ واصل بن عطاء بدعة إنكار القدر[1]، وعن معبد أخذ غَيلانُ الدِّمشقيُّ، وقد أسلفنا أنه أعلن توبته وعاد عما كان يقول به، إن صح هذا النقل وصدق غيلان في توبته.

أهم آراء المعتزلة (الأصول الخمسة):

ثم إن أفكار الاعتزال التي أخذت عن قادتهم الذين ذكرنا أسماءهم، تشعبت واختلفت فافترق المعتزلة من جراء ذلك إلى أكثر من عشرين فرقة، قال عنها عبد القادر البغدادي: «إن كل فرقة منها تكفر سائرها»[2].

غير أن القاسم المشترك الذي لا بد منه، فيمن يسمى معتزلياً، يتمثل في القول بالأصول الخمسة كما ذكر أبو الحسن الخياط في كتابه الانتصار، وهي: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف

---

(١) انظر الفرق بين الفرق للبغدادي: ١١٤، بتحقيق محيي الدين عبد الحميد.

(٢) المرجع السابق.

والنهي عن المنكر[1].

وهذه الألفاظ التي اتخذت شعاراً على أبرز آرائهم التي اختصوا بها، لا تدلّ على أي شيء تميزوا به؛ إذ التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مبادئ عامة ليست خاصة بفئة دون أخرى من المسلمين. ولكن فلننظر إلى الآراء التي تكمن تحت كل منها، فإنا سنعلم عندئذ أن هذه الشعارات وضعت بمثابة جذب إليها ودفاع عنها وحماية لها.

إذن فلنبدأ بدراسة هذه الأصول كلا على حدة، مع القدر الذي لابدّ منه من التفصيل.

الأصل الأول: التوحيد

وهو أهم الأصول التي ميزتهم وأبرزت خصائص مذهبهم.

وتوحيد الله دعامة الإسلام والإيمان، وهو القاسم المشترك بين المسلمين عموماً، لا فرق في ذلك بين فريق وآخر، غير أن المعتزلة رتبوا على هذه الدعامة العامة فهوماً وأحكاماً انفردوا بها عن جمهور المسلمين. وهي:

أولا - نفي صفات المعاني عن الله تعالى، وهي صفات السمع والبصر والعلم والقدرة والإرادة والكلام والحياة. ولكنهم نسبوا إلى الله تعالى آثار هذه الصفات من كونه سميعاً بصيراً عليماً.. إلخ. أي فهو جل جلاله يعلم دون أن تتحقق له صفة اسمها العلم، ويقدر دون إسناد صفة إليه اسمها القدرة.

والذي حملهم على ذلك، تصورهم بأن نسبة صفات المعاني إلى الله، تستلزم القول بوجود قدماء لا أول لهم، غير الله عز وجل، وهم هذه الصفات،

---

(١) انظر الملل والنحل للشهرستاني: ١/٥٤ على هامش الملل والنحل لابن حزم، وانظر المذاهب الإسلامية لأبو زهرة: ٢١٠.

وذلك مما ينافي توحيد الله عز وجل، واليقين بأنه لا يشبهه ولا يشترك معه غيره في شيء من صفات ألوهيته، ومن أبرزها القدم أي عدم وجود بداءة لوجوده.

ولا يخفى على المتأمل ما في هذا الكلام من التمحل الذي يرفضه العقل والعلم. وحسبنا لبيان ذلك أن نقول:

١ - الصفة معنى لا يتقوم بذاته ولا وجود له إلا بوجود من يتصف به. فإذا نسبنا إلى الله صفة العلم مثلا، فإنّ هذه الصفة ليست شيئاً قائماً بذاته حتى يستلزم وصف الله به القول بقديم آخر غير الله عز وجل يقوم إلى جانبه أو يتلبس به كتلبس الرداء بمن يرتديه. وإنما هي معنى من المعاني لا تتجلى إلا في عالمية الله تعالى وكونه عليماً. وكذلك القول بالنسبة للصفات الأخرى.

٢ - إن القرآن، وهو كلام الله عز وجل، نسب إليه سبحانه وتعالى صفة (العلم) بالإضافة إلى وصفه بكونه عالماً أو عليماً. فقال جل جلاله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] والعلم من صفات المعاني كالسمع والبصر.. وهو نص قرآني جازم بعكس ما يتصوره المعتزلة. وقد وصف الله تعالى نفسه بأنه ذو القوة المتين، ونسب إلى ذاته صفة القوة فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥][(١)]، فإذا أثبت القرآن صفة العلم لله تعالى، فقد انحلت المشكلة ولم يبق موجب لحجب بقية صفات المعاني عنه.

ثانياً - نفي إمكان رؤية الله تعالى يوم القيامة. قالوا لأنها تستلزم صفة الجسمية وكينونته في جهة، ضرورة أن المرئيّ بالعين إنما يرى بعد انحصاره بين خطي زاوية النظر. وهما ينافيان - على حدّ فهمهم - مقتضيات توحيد الله عز وجل؛ إذ من معاني توحيده نفي المماثل والمشابه له.

---

(١) راجع مقالات الإسلاميين للأشعري: ٢٤٣/١، بتعليق محيي الدين عبد الحميد.

ولا يخفى أن هذا أيضاً تنطع، يأباه قواعد النظر والبحوث، كما يتعارض مع نصوص كتاب الله تعالى، فهم يعتمدون في قولهم بأن رؤية الله تعالى يوم القيامة من المستحيلات، على أن الناس لن تتجاوز طاقاتهم البصرية هذه الحدود التي يتمتعون بها اليوم، وأنها إنما تعتمد آنذاك على هذه الأداة الباصرة ذاتها، بما أودعه الله فيها من إمكانات ورتب لها من شروط.

فعلى أي دليل اعتمدوا في قرارهم هذا؟ أي من أين لهم أن أصحاب الوجوه التي ستحشر ناضرة، كما قال الله تعالى، لا يتمتعون من قوة الإبصار وكيفيته وأدائه إلا بمثل أو بنفس ما كانوا يتمتعون به في دار الدنيا؟.. ومن أين جاءهم الدليل أن قدرة الله تعالى لا تطول أن تبدع لهم أعيناً جديدة أقوى نظراً، ودون أن تكون قائمة على الشروط التي كانت مقيدة بها في الدنيا؟..

من البداهة بمكان أن قوانين أخرى غير القوانين التي تحكم حياتنا وتقلباتنا اليوم ستتحكم في سيرة الحياة الآخرة بكل ما فيها من تقلبات وأحوال. وإلا فما أكثر ما وصلنا من الأخبار عن طريق كتاب الله وصحاح السنة، وهي تنبئ عن أحداث ستجري يوم القيامة، لا تخضع لشيء من مألوفات حياتنا الدنيوية هذه، أفننكرها أو نتأولها، اعتماداً على ما تقتضيه مقاييس حياتنا اليوم؟

ومع ذلك فإن النصوص القرآنية أبرمت هذا الأمر، ولم تدع مجالا لشك أو اختلاف فيه، فقد قال الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ - ٢٣] ولا سبيل إلى إقحام أي تأويل مقبول إلى كلمة ناظرة لصرفها عن المعنى الذي هي نص في الدلالة عليه.

وقال جل جلاله عن الكافرين وحالهم يوم القيامة: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥] وقد علمت أن محجوبيتهم عن الله لا تصلح أن تكون بمعنى إنكار وجوده، في العقبى، وإنما هو الاحتجاب الذي يمنعهم من التمتع

برؤيته، وهو يدل كما فهم الشافعي وغيره على أنه عز وجل لما حجب قوماً عنه بالسخط، دلّ على أن قوماً يرونه بالرضا[١].

ثالثاً - زعمهم أن كلام الله تعالى مخلوق، وأنه ليس إلا هذا الذي يخلقه الله على الشفاه عند قراءة القرآن. فليس له ما يسميه جماهير المسلمين الكلام النفسي الذي هو عز وجل به آمر وناه ومخبر، والذي يدل عليه ألفاظ القرآن المتلوّة.

وإنما حملهم على ذلك ما توهموه من أن إثبات كلام قديم لله تعالى خدش في عقيدة وحدانيته وانجراف إلى نوع من الشرك، فكلامه القديم يعني وجود قديم ثان معه، كما مرّ بيانه في نفيهم لصفات المعاني. قالوا: فليس له إلا هذه الألفاظ المنطوقة من قبلنا وهي مخلوقة.

غير أن الخلاف ما بينهم وبين أهل السنة والجماعة يؤول أخيراً إلى خلاف لفظي، كما أوضح شارح المواقف، إذ إنهم لا ينفون مدلول ما يسميه الجمهور بالكلام النفسي، بل يثبتونه مثلهم، ولكنهم لا يذهبون مذهبهم في تسميته بالكلام النفسي، وإنما هو راجع في الحقيقة إلى صفة العلم إن كان مدلوله خبراً، وإلى صفة الإرادة إن كان أمراً أو نهياً. وهم يرون أن الإرادة والأمر بمعنى واحد[٢].

إلا أن هذا التخريج منهم غير صحيح إذ ليس الإخبار داخلا في كل حال في صفة العلم، فإن الرجل قد يخبر عما لا يعلمه بل يعلم خلافه أو يشك فيه، كما قال صاحب المواقف. وكذلك الأمر الذي هو الكلام النفسي، قد يأمر المتكلم بأمر ولا يريده كما هو مشروح في أماكنه[٣].

---

(١) طبقات ابن السبكي: ١/٨١.

(٢) شرح المواقف للعضد: ٢/٣٦١.

(٣) انظر شرح المواقف: ٢/٣٦١، وكبرى اليقينيات الكونية للمؤلف: ١٢٨.

الأصل الثاني: العدل

وقد علمت أن نسبة العدل إلى الله تعالى محل اتفاق من سائر المؤمنين فحاشا أن ينسب إلى الله عكسه. ولكن المعتزلة فهموا أن العدل بالنسبة إلى الله يتوقف على أنه لا يحب الفساد، ولا يخلق أفعال العباد، ولا يأمرهم بما لا يريد بل يفعلون ما يشاؤون بالقدرة التي جعلها الله لهم وركبها فيهم. وقالوا إنه وليّ كل حسنة أمر بها وبريء من كل سيئة نهى عنها[1]. ثم إن الإرادة الموجهة إلى أفعال العباد هي بعينها الأمر الموجه إليهم[2]، وأمره وإرادته لا يتوجهان إلا إلى خلق أو فعل ما فيه الصلاح والخير.

فقد استلزم أصلهم هذا القول بأشياء انفردوا بها، على خلاف كبير فيما بينهم في تفصيلها. وأهم هذه الآراء: القول بأن العبد هو الذي يخلق أفعال نفسه، والقول بأن الله حيثما أمر العبد بشيء فهو لما قد أمره به مريد، فلا انفكاك بينهما، وأنه لا يفعل أو يخلق أو يأمر إلا بما فيه الصلاح.

وسنبين تخبطهم في هذه التصورات، من خلال بيان وجيز لحقيقة كل منها:

أولاً - القول بأن العبد هو الذي يخلق أفعال نفسه، قول ألجؤوا أنفسهم إليه إلجاءً فراراً من أن ينسبوا إلى الله خلاف العدل الذي هو متصف به. فقد خيل إليهم أنهم إن قالوا بأن الله هو الذي يخلق صلاة الإنسان إذا صلى وشربه للخمر إذا شربها. فقد أصبح تكليفهم بالأوامر ونهيهم عن النواهي عبثاً، وعاد تحميلهم لما توعدهم به من العقاب شططاً.

ولم يتنبهوا إلى أن مناط التكليف هو الكسب الذي وهبه الله للإنسان، وهو

---

(١) انظر خلاصة مذهبهم في ذلك في مروج الذهب للمسعودي: ٣/٢٢١ و ٢٢٢.

(٢) مقالات الإسلاميين للأشعري: ١/٢٣٣.

الانبعاث الذاتي عن طريق الإرادة إلى الفعل الذي يشاءه، فبه يستأهل الأجر أو العقاب. أما الفعل فيخلقه الله بقدرة تنفيذية تنبث في أعضائه وأعصابه وأوصاله تحقق ما اتجه إليه كسبه بمحض إرادته واختياره. وليس في هذا شائبة ظلم ولا تعسف أو عبث. ألا ترى أن الله تعالى أناط الجزاء الأخروي بالكسب أو الاكتساب أكثر من مرة.

فقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨]، وقال: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقال: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ٣]، وقال: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١١٢].. الآيات.

ولو تأملوا لتنبهوا إلى أن مقومات الفعل وحدها لا تعني وجوده، إذ هي على الرغم من خلق الله لها جميعاً، لا تتحول إلى واقع إلا بعد وجود الكسب الخفي الذي يتجه به العبد عزماً وإرادة. فعندئذ يطلق الله لأعضائه وأوصاله العنان ويخلق فيها القدرة على التحرك طبقاً لأوامر القلب الذي هو مصدر الإرادة والكسب.

على أن المعتزلة لاحظوا ما في قولهم هذا من الانحراف إلى طريق الكفر، إذ مؤداه أن الله يتصف بالعجز حيال ما يخلقه العبد لنفسه من فعل، فتحفظوا في القول، وجاء قولهم بهذا الشكل: «بل يفعلون ما أمروا به ونهوا عنه بالقدرة التي جعلها الله لهم وركبها فيهم» فقد نزهوا الله بذلك عن العجز واعترفوا بأن الله هو الذي خلق في العبد القدرة التي بها يخلق أفعال نفسه، ونجوا بذلك من كفر كان لابد لهم أن ينزلقوا فيه.

ومآل هذا التحفظ، أو القيد، لو تنبهوا، إلى أن الذي خلق الفعل في العبد، إنما هو ذاك الذي أودع فيه القدرة عليه. والذي أودع فيه القدرة عليه إنما هو —

باعترافهم - الله عز وجل.

لقد أرادوا بهذا الذي قالوه أن يفروا من الجبر الذي قال به الجبرية، وأن يردّوا على جبرهم، ولكن الأمر لا يحوجهم إلى أن يركبوا في الأمر شططاً، وينسبوا خلق الفعل - دون برهان - إلى الإنسان.

ثانياً - قولهم بأنه لا يأمر إلا بما أراد، ولا ينهى إلا عما كره. فبين أمره وإرادته تلازم لا يقبل انفكاكاً، وبين نهيه وكراهيته تلازم مثله.

وإنما حملهم على ذلك تصور أنه جل جلاله لو أمر العبد بفعل وأراد منه نقيضه، فقد أصبح أمره منه عبثاً وتكليفه بما لم يرده شططاً وظلماً. ولما كان الظلم لا يجوز عليه وكان العدل واجباً منه، فقد اقتضى ذلك أن يكون أمره تعبيراً عن إرادته وأن تكون إرادته سبباً لأمره.

غير أن المعتزلة وقعوا في شر مما أرادوا الفرار منه. فقد التزموا أن الله تعالى قد يريد شيئاً ثم لا يتحقق مراده، ذلك لأن كثيراً ممن أمرهم الله تعالى بأوامر ونهاهم عن نواهٍ لم يأتمروا بما أمرهم به ولا انتهوا عما نهاهم عنه، فإذا كان أمره تعبيراً عن إرادته ونهيه تعبيراً عما لا يريد، فإن كثيراً مما يريده لا يتحقق وكثيراً مما لا يريده هو الذي يتحقق. وفي ذلك من النقص والعجز ما نجزم بأن الله تعالى منزه عنه.

أما جمهور أهل السنة والجماعة، فقد قرروا أن ما يأمر به الله عز وجل ليس دائماً هو بعينه ما يريده الله عز وجل، فقد ينفك أحدهما عن الآخر، فقد أمر أبا جهل بالإيمان مثلا، ولكنه لم يرد منه ذلك، بدليل أنه لم يؤمن. ولا يرد على هذا ما خشيه المعتزلة من الجبر الذي يجعل الأمر عبثاً والعقاب على عدم الائتمار به ظلماً، ذلك لأن إرادة الله تعالى لكفر أبي جهل إنما هي فرع ونتيجة لإرادة الله تعالى أن يكون أبو جهل مختاراً مريداً ينفذ ما يشاء بمحض حريته واختياره. فلما سخَّر أبو جهل هذه الصلاحية التي أراد الله أن يمتعه بها، لاختيار الكفر، كانت إرادته عز

وجل متعلقة بطبيعة الحال بكفره لا مباشرة، ولكن عن طريق تعلق إرادته بأن يكون حراً مختاراً يتجه إلى اختيار ما يشاء.

مثال ذلك، الأستاذ الذي يريد أن يمتحن تلميذه، فإنه ما أراد امتحانه إلا وأراد من خلال ذلك النتيجة التي سينتهي التلميذ إليها سواء أكانت نجاحاً أم رسوباً. غير أن هذه الإرادة من الأستاذ لا تجعل الطالب مُلجَأً ولا تجعل الأستاذ ظالماً. فمثل ذلك إرادة الله المتعلقة بكفر الكافر.

وقد أوجز العلامة سعد الدين التفتازاني بيان هذا المعنى في هذه العبارة التالية، وذلك في شرحه على العقائد النفسية: «فإن قيل بعد تعميم علم الله تعالى وإرادته، الجبر لازم قطعاً، لأنهما إما أن يتعلقا بوجوب الفعل فيجب أو بعدمه فيمتنع، ولا اختيار مع الوجوب والامتناع، قلنا يعلم ويريد أن العبد يفعله أو يتركه باختياره فلا إشكال»[1].

ثالثاً - قولهم إن الله حكيم لا يفعل إلا ما فيه صلاح وخير، فذلك منه واجب، أما الأصلح ففي وجوبه منه خلاف عندهم[2].

ومحلّ الوهم والتخبط في كلامهم أنهم جعلوا ما سموه الصلاح أصلا متبعاً في أفعال الله تعالى وأحكامه. فكان ما اعتبروه حكمة وصالحاً هو الموجه لأحكامه وأفعاله عز وجل. وفي هذا من المفاسد ما لا يخفى على ذي بصيرة. فقد استلزم ذلك أولا أن يكون الصلاح والفساد حقيقتين قائمتين بذاتهما دون خلق الله عز وجل، واستلزم ذلك ثانياً أن تكون إرادة الله تعالى مشوبة بالقسر، وذلك نظراً إلى

---

(١) شرح العقائد النفسية: ٣٥٤.

(٢) الملل والنحل للشهرستاني: ٥٦/١ على هامش الملل والنحل لابن حزم. وانظر مقالات الإسلاميين لأبي لحسن الأشعري: ٢٥٢، بتعليق محيي الدين عبد الحميد.

أن إرادته لا بد أن تكون منضبطة بالصلاح أو الأصلح، واستلزم ذلك ثالثاً ألا تكون الحاكمية الحقيقية لله عز وجل وإنما هي لهذا الذي سموه الصلاح أو الأصلح.

وقال جمهور المسلمين أهل السنة والجماعة، إن الصلاح والحكمة لا ينفكان عن أحكامه وأفعاله سبحانه وتعالى، غير أن كلا من الصلاح والحكمة تابعان لقضاء الله وفعله، وليس قضاء الله وفعله مسوقين وراء الصلاح.

ولو أن المعتزلة راجعوا أنفسهم في تفسير معنى (العدل) في حق الله عز وجل لرجعوا إلى ما اتفق عليه جمهور المسلمين من القول بأن الصلاح هو ما حكم به الله عز وجل، وليس ما حكم الله به يجب أن يكون تابعاً للصلاح.

والخطأ الذي ارتكبوه في تفسير العدل في حق الله عز وجل، أنهم فسروا العدل من الله ومن عباده بمعنى واحد، مع أن بينهما فرقاً كبيراً.

إن مبدأ العدل بين الناس بعضهم مع بعض، إنما ينبثق سلطانه من كون الناس أحراراً بعضهم تجاه بعض ليس لأحد منهم سلطان على آخر. أما الله عز وجل فلا يتصور منه أن يرتكب ظلماً في حق عباده قط، حتى يكون لعدله ضوابط معينة يجب أن يلتزم بها؛ إذ هو المالك لرقابهم وذو الحق المطلق في أن يفعل بهم ما يشاء، فكيف يتصور منه الظلم الذي هو تصرف الرجل بحق غيره بدون رضاه، حتى يتصور أنه ملزم باتباع منهج العدل معهم؟..

ولقد أوقعتهم الغفلة عن هذه الحقيقة في شطط القول، وأقحمتهم في مكابرات وتناقضات مع الواقع المشاهد، وكم نوظروا في هذه المسألة فسكتوا ولكن العناد صدهم عن الإذعان بالحق والرجوع إليه. من ذلك تلك المناظرة المشهورة التي وقعت في مسألة الصلاح هذه بين أبي عليٍّ الجُبَّائيِّ والشيخ أبي الحسن الأشعري:

«سأل الشيخ رحمه الله تعالى أبا عليٍّ: أيها الشيخ ما قولك في ثلاثة؛ مؤمن، وكافر، وصبي؟

قال أبو علي: المؤمن من أهل الدرجات، والكافر من أهل الدركات، والصبي من أهل النجاة.

قال الشيخ: فإن أراد الصبي أن يرقى إلى أهل الدرجات هل يمكن؟

قال أبو علي: لا، يقال له إن المؤمن إنما نال هذه الدرجة بالطاعة، وليس لك مثلها.

قال الشيخ: فإن قال: التقصير ليس مني، فلو أحييتني كنت عملتُ من الطاعات كعمل المؤمن.

قال أبو علي: يقول الله: كنت أعلم أنك لو بقيت لعصيت ولعوقبت فراعيت مصلحتك وأمتُّك قبل أن تنتهي إلى سن التكليف.

قال الشيخ: فلو قال الكافر: يا ربّ، علمت حاله كما علمت حالي، فهلا راعيت مصلحتي مثله؟

فانقطع أبو عليٍّ الجُبَّائي ولم يُحِرِ جواباً»[1].

ولقد تفرَّع عن هذا الرأي الذي نادى به المعتزلة، وهو وجوب اتباع حكم الله عز وجل للمصلحة أو الأصلح، طرحٌ لمسألة فلسفية طال النقاش فيها، وهي حقيقة الحسن والقبح الكائنين في الأشياء، أو الأفعال، أيمكن أن يكون لكل منهما معنى جوهري ذاتي ثابت بحد ذاته، أم هو لا يعدو أن يكون معنى اعتبارياً ينشأ من الإلف أو الحس والشعور أو من ترتيب الله الثواب والعقاب عليه؟ فتشبث المعتزلة بالرأي الأول ليبنوا عليه القول بأن الحسن هو محور أحكام الله عز وجل، والمحور

---

(١) طبقات ابن السبكي: ٣/٣٥٦.

لا بدَّ أن يكون له وجود ثابت بحدّ ذاته، وذهب بقية المسلمين إلى الرأي الثاني. ولذا فإنّ مصدر الحسن والقبح في الأشياء - في مقياس الدين - إنما هو حكم الله عز وجل. فبدون أن يتنزل حكمه عز وجل لا يمكن أن يستبين لنا الصلاح والفساد أو الحسن والقبح، اللهم إلا فيما يتآلف الناس عليه أو بالنظر إلى ما جبلت إحساساتهم عليه. وهذا شيء متطور متبدل[1] غير أن خلافاً جزئياً قام هنا بين الماتريدية والأشاعرة، سنتحدث عنه عندما نتكلم عن هاتين المدرستين.

الأصل الثالث: الوعد والوعيد

وخلاصة ما يقولونه في أصلهم هذا أن كلا من وعد الله ووعيده نازل لا محالة فوعده بالثواب واقع، ووعيده بالعقاب واقع أيضاً، ووعده بقبول التوبة النصوح واقع أيضاً. ويترتب على قولهم هذا أن الله لا يغفر الكبائر إلا بالتوبة؛ إذ إنه صادق في وعده ووعيده لا مبدل لكلماته[2].

غير أن جمهور المسلمين وقفوا في هذه المسألة عند قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ١١٦] وقوله عز وجل: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

فإذا كانت حجة المعتزلة في تمسكهم بأصلهم الثالث هذا، أن إخباره صدق ولا مبدل لكلماته، فإن مضمون هاتين الآيتين من جملة إخباره وصادق كلماته، فهي أيضاً لا يلحقها خلف ولا تبديل. وهكذا فإنهم ملزمون بالرجوع إلى مذهب جمهور المسلمين بموجب حجتهم ذاتها.

---

(١) انظر تفصيل النقاش في هذه المسألة كبرى اليقينيات الكونية للمؤلف: ١٢٢- ١٢٥.

(٢) مروج الذهب للمسعودي: ٢٢٢/٣.

ومذهب جمهور المسلمين يستند إلى مقتضى جميع ما أخبر به الله عز وجل، وعداً ووعيداً وإخباراً بأنه سبحانه وتعالى إذا شاء تجاوز عن كل الذنوب والمعاصي أياً كان نوعها إلا الشرك بالله عز وجل. وواضح أن مجموع ما تتضمنه هذه الإخبارات كلها أن وعد الله تعالى بإثابة الطائعين لا يلحقه خلف، أما وعيده بمعاقبة العصاة فعائد إلى مشيئته، وعفو الله عن مرتكبيها مأمول وغير بعيد[1].

ويبدو أن المعتزلة أرادوا أن يردوا من خلال أصلهم هذا على المرجئة الذين تطرفوا إلى نقيض هذا الرأي، إذ قالوا: لا يضرّ مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة. فلم يجدوا سبيلا للرد عليهم سوى أن يتطرفوا إلى نقيض قولهم، وقد علمت أن كلا طرفي قصد الأمور ذميم. ولا موجب لهذا التطرف أو ذاك بعد وجود الآيات القرآنية الصريحة التي تضع المسلم على صراط الاعتدال. وهو ما التقى عليه جمهور المسلمين من أهل السنة والجماعة وخلاصته أن:

١ - وعد الله بالمثوبة لا خلف فيه لأن سائر الآيات التي أخبرت به أطلقت دون استثناء.

٢ - وعيد الله بالعقاب ثابت في كتابه، وتنفيذه يوم القيامة عائد إلى مشيئته، وعفو الله عن مستحقيه مأمول وغير بعيد، إلا أن يكونوا مشركين أو في حكمهم كالملحدين والكتابيين. وذلك لأن الآيات التي أخبرت بالوعيد، عادت ففتحت باب الأمل بالعفو وأخبرت بأن الله إن شاء عفا عن كل ما دون الإشراك والجحود به.

الأصل الرابع: المنزلة بين المنزلتين

قال البغدادي في كتابه (الفَرْقُ بين الفِرَق)، وهو يوضح سبب نداء المعتزلة بهذا الذي هو في الحقيقة أصلهم الأول الذي انطلقوا منه:

---

(١) انظر شرح جلال الدين الدواني على العقائد العضدية: ١٦٤/٢.

«كان واصل بن عطاء من منتابي مجلس الحسن البصري في زمان فتنة الأزارقة، وكان الناس يومئذ مختلفين في أصحاب الذنوب من أمة الإسلام على فرق:

فرقة تزعم أن كل مرتكب للذنب صغير أو كبير مشرك بالله. وكان هذا قول الأزارقة من الخوارج وزعم هؤلاء أن أطفال المشركين مشركون.. وكانت الصفرية من الخوارج يقولون في مرتكبي الذنوب بأنهم كفرة مشركون كما قالته الأزارقة، غير أنهم خالفوا الأزارقة في الأطفال.. »

إلى أن قال البغدادي: «.. وكان علماء التابعين في ذلك العصر مع أكثر الأمة يقولون: إن صاحب الكبيرة من أمة الإسلام مؤمن، لما فيه من معرفة بالرسل والكتب المنزلة من الله تعالى، ولمعرفته بأن كل ما جاء من عند الله حق، ولكنه فاسق بكبيرته، وفسقه لا ينفي عنه اسم الإيمان والإسلام. وعلى هذا القول الخامس مضى سلف الأمة من الصحابة وأعلام التابعين.

فلما ظهرت فتنة الأزارقة بالبصرة والأهواز، واختلف الناس عند ذلك في أصحاب الذنوب على الوجوه الخمسة التي ذكرناها، خرج واصل بن عطاء عن قول جميع الفرق المتقدمة، وزعم أن الفاسق من هذه الأمة لا مؤمن ولا كافر، وجعل الفسق منزلة بين منزلتي الكفر والإيمان. فلما سمع الحسن البصري من واصل بدعته هذه التي خالف بها أقوال الفرق قبله طرده عن مجلسه، فاعتزل عند سارية من سواري مسجد البصرة وانضم إليه قرينه في الضلالة عمرو بن عبيد»[1].

وذكر الشهرستاني تفصيل هذا الموقف الذي وقفه واصل بن عطاء فشذ به عن جمهور المسلمين وبقية الفرق الأخرى، وكيفية اعتزاله حلقة الحسن البصري

---

(١) الفرق بين الفرق: ١١٧- ١١٨.

فقال: «.. والسبب أنه دخل واحد على الحسن البصري، فقال: يا إمام الدين لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر، والكبيرة عندهم كفر يخرج به عن الملة، وهم وعيدية الخوارج، وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر، والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان، بل العمل على مذهبهم ليس ركناً من الإيمان، ولا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة، وهم مرجئة الأمة، فكيف تحكم لنا في ذلك اعتقاداً؟..

فتفكر الحسن في ذلك؛ وقبل أن يجيب، قال واصل بن عطاء: أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلق ولا كافر مطلق، بل هو في منزلة بين المنزلتين، لا مؤمن ولا كافر. ثم قام واعتزل إلى أسطوانة من أسطوانات المسجد يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن. فقال الحسن: اعتزَلنا واصل، فسمي وأصحابه معتزلة».

ثم قال الشهرستاني: «ووجه تقريره أنه قال: إن الإيمان عبارة عن خصال خير إذا اجتمعت سمي المرء مؤمناً وهو اسم مدح، والفاسق لم يستجمع خصال الخير ولا استحق اسم المدح فلا يسمى مؤمناً، وهو ليس بكافر مطلق أيضاً، لأن الشهادة وسائر أعمال الخير موجودة فيه لا وجه لإنكارها. لكنه إذا خرج من الدنيا على كبيرة من غير توبة، فهو من أهل النار خالداً فيها، إذ ليس في الآخرة إلا الفريقان فريق في الجنة وفريق في السعير، لكنه يخفف عنه العذاب وتكون دركته فوق دركة الكفار، وتابعه على ذلك عمرو بن عبيد بعد أن كان موافقاً له في القدر وإنكار الصفات»[1].

فما الفرق بين ما ذهب إليه غلاة الخوارج، وهذا الذي قاله واصل بن

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني: ١/٦٠ و ٦١، على هامش الملل والنحل لابن حزم.

عطاء، ثم تابعه عليه جمهور المعتزلة؟

لا فرق بين مضمون القولين؛ إذ القاسم المشترك بينهما هو القول بخلود صاحب الكبيرة في النار وقد علمنا من بدهيات هذا الدين أنه لا يخلد في النار إلا الكافر، إذ قد ورد في الصحيح أنه لا يبقى في النار من يكون في قلبه مثقال ذرة من الإيمان.

أما ابتداع المعتزلة لعبارة خاصة بهم يعبرون بها، وهي قولهم: هو في منزلة بين المنزلتين فليس وراءها من طائل، ما داموا يقولون بخلوده في النار.

فإن قلت: لعل الفرق بين القولين يظهر في معاملة المسلمين لصاحب الكبيرة في دار الدنيا، قلنا: ما هو هذا الفرق؟ وما علمنا مما وقفنا عليه في كتاب الله وسنة رسوله إلا أن المسلم يعامل صاحبه في الدنيا على أنه أحد رجلين: مسلم أو كافر. وما أنبأنا أحد هذين المصدرين عن حالة ثالثة إذا رؤي الإنسان عليها كان واقفاً بذلك في منزلة بين منزلتي الإسلام والكفر، وما أنبأنا عن المعاملة الخاصة التي يجب أن نعامله بها على أساس منزلته تلك.

وإن قلت: ولكنهم يقررون أن خلود صاحب الكبيرة في النار يكون مقروناً بنوع من التخفيف من عذابه، فهو - كما قالوا - يقيم في دركة فوق دركة الكافرين، قلنا: فمن أين وقفوا على خبر تلك الدركة التي هي خاصة بذوي الكبائر من المؤمنين الذين لم يتوبوا. ومن أنبأهم بها؟.. أما نحن الذين علمنا أن هذه الغيوب لا سبيل لنا إلى وجه اليقين بها إلا عن طريق الخبر الصادق عن طريق قرآن أو سنة، فما وصلنا مما يتعلق بهذا إلا قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ١١٦] وهو يقرر نقيض ما تنبأ به المعتزلة تماماً.

الأصل الخامس: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وإنما اختلفوا في هذا الأصل عن بقية المسلمين، بقولهم: إن النهوض بهذا الأصل واجب على جميع المؤمنين وليس خاصاً بفئة منهم دون أخرى.

ولعلهم إنما ذهبوا إلى هذا المذهب لما رأوا في عصرهم من مظاهر الزندقة والدس في دين الله عز وجل؛ ولذا تجدهم يتصدون للذود عن الحق أمام الزنادقة الذين انتشروا انتشاراً مريعاً في أوائل عصر العباسيين.

والحقيقة أن هذا الأصل الخامس، سلوكي أكثر من أن يكون اعتقادياً، ولا ينطوي على خلاف ذي أهمية عن جمهور المسلمين.

بل بوسعنا أن نقرر أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب كفائي يلزم به جميع المسلمين على نحو وعن طريق عدد يقع موقعاً من الكفاية وإبلاغ كلمة الحق لجميع المسلمين. فإن لم يسدّ القائمون بهذا الأمر مسداً كافياً وجب أن يشترك معهم غيرهم، فإن كان المنكر لا يقضى عليه والمعروف لا يحل محله إلا بنهوض جميع المسلمين، فإن القيام بهذا الأصل يصبح واجباً عينياً على جميع المسلمين الذين يتمكنون من القيام به بوجه ما وعلى وجه سليم، وذلك في حدود علمهم واستطاعتهم.

ويكفي من الأدلة على هذا قوله عليه الصلاة والسلام: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان».

قال القرطبي في تفسيره: «أجمع المسلمون فيما ذكر ابن عبد البر أن المنكر واجب تغييره على كل من قدر عليه، وأنه إذا لم يلحقه بتغييره إلا اللوم الذي لا

يتعدى إلى الأذى، فإن ذلك لا يجب أن يمنعه من تغييره..»[1].

وأنت تعلم أن النهي عن المنكر هو الوجه الثاني للأمر بالمعروف وبينهما تلازم في الوجوه والنتائج.

إذن فما هو مظهر الشذوذ أو اختلاف المعتزلة عن جمهور المسلمين بالنسبة لهذا الأصل الأخير؟

الحقيقة أن الشذوذ محصور في أن المعتزلة جعلوا من أصل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أداة لترويج أصولهم الأربعة الأخرى. فقد نشطوا في الدفاع عن الإسلام حقاً وفي مقاومة الزندقة وأهلها، ولكنهم كانوا يقيمون دفاعهم عنه على أساس من تلك القواعد والأصول التي انحازوا بها عن جمهور الأمة وعامة الأئمة. بل لعل أصولهم هذه ليست سوى زبدة الجدال والخصومات الفكرية، التي قامت واستدامت بينهم وبين خصومهم الجبرية والجهمية والمرجئة والحشوية.

منهج المعتزلة في البحث والاستدلال:

تغلبت على المعتزلة النزعة العقلية، فكان نصيب اعتمادهم على صحيح المنقول من جراء ذلك ضئيلا جداً. بل كانوا يرون أن مقياس الحق قبول العقول له، فكل ما قبله العقل فهو الحق الذي يجب المصير إليه والتمسك به، وكل ما لم يقبله العقل فهو الباطل الذي يتحتم رفضه.

وقبل أن نوضح سبب ظهور هذه النزعة لديهم، يجب أن نجلّي حقيقة قد تلتبس على كثير من الباحثين، وهي أن مدار النصوص والنقول التي يُهتدى بها، على ما يجزم به العقل ويقضي به. فقيمة النصوص الصحيحة الثابتة أنها تهدي إلى

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٤/٤٨، وانظر الأحكام السلطانية للماوردي: ٢٤٧.

حكم العقل الصحيح، وليس العكس.

وظاهر هذا الكلام يقتضي تصويب المعتزلة في منهجهم الذي سلكوه ألا وهو تغليب المحاكمة العقلية في أمور العقيدة، والتهوين من أمر النصوص في جنبها إذ كأنهم بذلك يتمسكون بما جاءت النصوص تبياناً له ألا وهو الحق الذي لا ميزان له إلا العقل.

وهذه النظرة صحيحة من حيث المبدأ، ولكن الزيغ يتسرب إليها في مرحلة التطبيق. فإن الحق إنما يدل عليه العقل الكامل الصافي عن شوائب الأهواء ورغائب النفس. وعقول أفراد الناس كانت ولا تزال مشوبة بعكر تلك الأهواء والرغائب، وقلما استطاع إنسان أن يتحرر من الوقوع تحت تأثيراتهما. على أن من الحقائق الثابتة ما لا سبيل للعقل وحده (حتى وإن صفا عن الشّوائب) إلى دركها والوصول إلى واقعها. فمن أجل ذلك كان لابد للوصول إلى ما تقضي به العقول من الاعتماد على صحيح المنقول. وإلا تخالفت العقول فيما تزعم أنها سائرة للوصول إليه من الحق الذي لا ينبغي الاختلاف عليه، وتجاوزت حدود طاقتها وإدراكها فانحطت في عماهة من الأوهام التي لا تنتهي عند شاطئ ولا تقف عند قعر.

ولكن من أين تسرب إلى المعتزلة هذا الإغراق في تحكيم العقل المجرد على حساب النصوص الثابتة حتى حملوا العقل ما لا يحمل وجعلوه حاكماً من دون الله عز وجل؟

ذكر علماء الفرق لذلك أسباباً مفصلة، وأنا أجملها في سبب واحد، هو اختلاطهم بكثير من أهل الديانات الأخرى الذين دخلوا الإسلام، كالنصرانية واليهودية والمجوسية والمانوية وغيرها، فقد حمل جلّ هؤلاء أفكاراً فلسفية وتصورات عقلية لأسباب شتى، كانوا يتطارحونها مع المسلمين، من أهم ما نقله هؤلاء إلى الساحة الإسلامية مذاهب الفلسفة الإغريقية، على أن في هؤلاء من

أظهروا الإسلام وأبطنوا غيره، رغبة أو رهبة، أو قصداً إلى بث أسباب الزندقة والشكوك في نفوس المسلمين. وكان لهم في علومهم الفلسفية ومناقشاتهم العقلية أقوى سبيل إلى ذلك.

فأقبل المعتزلة إليهم يجادلونهم، أملا في هدايتهم وخوفاً من أن تتسلل شبهاتهم إلى عقول المسلمين. والمحارب - كما يقول الشيخ محمد أبو زهرة - مأخوذ بطريقة محاربه في القتال، مقيّد بأسلحته متعرف لخططه دارسٌ لمراميه، وكل ذلك من شأنه أن يجعل الخصم متأثراً بخصمه آخذاً عنه بعض مناهجه. وهكذا سرى إلى المعتزلة بعض من تفكير مخالفيهم، وتأثروا بالكثير من أساليبهم وأشربت أفئدتهم حبّ الفلسفة، وسلكوا إلى معرفة العقائد طريقة عقلية خالصة[1].

ولقد عكف أئمتهم على دراسة الفلسفة اليونانية، وأوغلوا في ذلك بدون رفق، وكان في مقدمتهم أبو الهذيل العلاف، من رجال الطبقة الثانية في الاعتزال، فلقد اشتغل بقراءة الفلسفة اليونانية وتأثر بها أيما تأثر من حيث يشعر أو لا يشعر، وكان من أبرز علماء المعتزلة ومناظريهم[2]، ومنهم إبراهيم النَظّام الذي درس منطق أرسطو ليرد عليه، ولكنه وقع في براثنه قبل أن يتمكن من نقضه أو الردّ عليه، فتخطفته ترهات الفلاسفة الملحدين من براهمة وثنوية وغيرهما، ثم صاغ من ذلك كله في غمرة انحرافه في ذلك الضياع أوهاماً أغنى بها مذهبه الاعتزالي، حول الطفرة والجزء الذي لا يتجزأ أو تداخل الأجسام في حيز واحد[3].

ولو أنهم حكّموا نصوص الكتاب والسُّنّة أولاً، ولاسيما في الأمور الغيبية

---

(١) انظر المذاهب الإسلامية للشيخ أبو زهرة: ٢٢٢.

(٢) انظر ترجمة محمد بن الهذيل أبي هذيل العلاف في وفيات الأعيان لابن خلكان: ٤٨٠/١، وفي مروج الذهب للمسعودي: ٢٩٨/٢.

(٣) الفرق بين الفرق للبغدادي: ١٣١، والنجوم الزاهرة: ٢٣٤/٢. وانظر تاريخ بغداد: ٩٧/٦.

التي لا سلطان للأدلة العقلية عليها، ثم تأملوا في تلك الأوهام الفلسفية تأمل المتبصر الناقد، مدركين بأن للعقل الإنساني حداً لا يستطيع أن يتجاوزه، فإن هو أكره على تجاوز ذلك الحد، خاض على غير بينة واضطرب في مجهلة - أقول لو أنهم فعلوا ذلك أولا لما جرفهم تيار ذلك الضياع، ولما تمزقوا وآلوا إلى ما يزيد على عشرين فرقة كل منها يكفر الآخر، وذلك في أثناء سعيهم إلى هداية الآخرين ومقارعتهم بالحجة العقلية فيما زعموا.

فهذا القدر كاف، في التعريف بالمعتزلة وأصولهم الفكرية الكبرى التي اختصوا بها، وقيمة هذه الأصول في ميزان الكتاب والسنة وما التقى عليه سواد هذه الأمة.

المُـــرجِئَـــة

لما ظهرت بدعة الخوارج وهي قولهم بتكفير مرتكب الكبيرة، بل بتكفير مرتكب أي ذنب كما سبق بيانه، وانتشرت قالتهم هذه بين الناس، وابتدعت المعتزلة في ذلك قولا ثانياً وهو الحكم على مرتكب الكبيرة بأنه قائم في منزلة بين منزلتي الإيمان والكفر مع خلوده في النار يوم القيامة، وتلاغط الناس حول هذا الأمر وجرى الجدل والنقاش فيه - قام من ينادي برأي ثالث في مسألة ارتكاب الكبيرة خصوصاً والمعاصي كلها عموماً، وهم الذين سموا بالمرجئة.

فما هو الإرجاء؟ وما هو الرأي الثالث الذي نادوا به؟ وما هي فرقهم؟

يقول الشهرستاني في كتابه الملل والنحل: «الإرجاء على معنيين؛ أحدهما التأخير، قالوا أرجه وأخاه أي أمهله وأخره، والثاني إعطاء الرجاء. أما إطلاق اسم المرجئة على الجماعة بالمعنى الأول فصحيح، لأنهم كانوا يؤخرون العمل عن النية والقصد، وأما بالمعنى الثاني فظاهر فإنهم كانوا يقولون لا تضر مع الإيمان معصية،

كما لا ينفع مع الكفر طاعة..»[١].

إذن فكلمة (الإرجاء) بالمعنى الاصطلاحي الذي يطلق على هذه الفرقة، مشتقة بآن واحد من كلا معنييها: التأخير وإعطاء الأمل؛ إذ إن رأيها في المعصية التي يرتكبها المؤمن قائم على اعتبار كلا هذين المعنيين.

ثم إن اسم (المرجئة) يطلق فيراد به مرجئة الخوارج، ومرجئة القدرية، كما يطلق ويراد به المرجئة الخالصة. ولا شأن لنا في هذا المقام إلا بالحديث عن المرجئة الخالصة فهؤلاء فريقان:

فريق يرى أنه لا يضر مع الإيمان ذنب، ولا تنفع مع الكفر طاعة. والإيمان عند هذا الفريق هو المعرفة بالله والخضوع له وترك الاستكبار عليه والمحبة له بالقلب. فمن اجتمعت فيه هذه الخصال فهو مؤمن. وما سوى المعرفة من الطاعات فليس من الإيمان ولا يضر تركه حقيقة الإيمان ولا يعذب على ذلك إذا كان الإيمان خالصاً واليقين صادقاً[٢]، وربما اختلفوا فيما بينهم في دقائق تتعلق بتعريف الإيمان ولكن القاسم المشترك بينهم هو القول بأن المعاصي لا تستوجب العذاب يوم القيامة إذا كان مقترفها مؤمناً بالله عز وجل[٣].

وفريق يرى أن أمر مرتكب الكبيرة مُرجأ إلى الله عز وجل، فقد يغفر له وقد يأخذه بجريرة ذنبه. ولا يشكل رأي هذا الفريق، مذهباً مختلفاً عما عليه سواد الأمة وجمهور المسلمين من أن العاصي أمره مفوض إلى الله عز وجل قد يتوب عليه وقد يعفو عنه. ومن ثم أطلق على هذا الفريق الثاني اسم مرجئة السنة، وإنما نسب

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني: ١/١٨٦، على هامش كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل.

(٢) المرجع السابق: ١/١٨٧، ومقالات الإسلاميين: ١/١٩٧.

(٣) انظر فرق المرجئة وما بينهم من خلاف وراء هذا القاسم المشترك في الفرق بين الفرق: ٢٠٢- ٢٠٧، ومقالات الإسلاميين للأشعري: ١/١٩٧- ٢١٥.

الإرجاء إلى أبي حنيفة وآخرين كالحسن بن محمد بن علي وسعيد بن جبير، وحماد بن أبي سليمان، على هذا المعنى الثاني دون الأول. قال الشهرستاني: «ومن العجيب أن غسان كان يحكي عن أبي حنيفة رحمه الله مثل مذهبه (وهو من كبار المرجئة) ويعدّه من المرجئة، ولعله كذب. ولعمري كان يقال لأبي حنيفة وأصحابه مرجئة السنة»[1].

إذا تبين هذا، فالمرجئة الخالصة؛ أي الذين لا علاقة لهم بالجبر ولا بنفي القدر ولا بالخروج على عليّ رضي الله عنه، اختلفوا عن كل من المعتزلة والخوارج وجمهور المسلمين، بما ذهبوا إليه من أن المعصية لا تضر صاحبها إذا مات مؤمناً صادقاً في إيمانه - على اختلاف في تحديد معنى الإيمان - وأن الطاعة لا تنفع صاحبها إذا مات كافراً.

يضاف إليهم أصحاب غيلان الدمشقي الذي كان يضيف إلى عقيدة الإرجاء هذه نفي القدر. ويسمون مرجئة القدرية، كما يضاف إليهم أصحاب جهم بن صفوان الذي كان يجمع إلى الإرجاء القول بالجبر ويسمون مرجئة الجبرية.

وهكذا فقد اصطبغ بعقيدة الإرجاء كثير من القدرية والجبرية والخوارج، كما تمسك بها وحدها آخرون وهم الذين يسمون (المرجئة الخالصة).

نقد عقيدة الإرجاء:

يلاحظ أن القول بالإرجاء إنما ظهر بدافع رد الفعل تجاه ما ذهب إليه الخوارج من ناحية وما قال به المعتزلة من ناحية أخرى، دون أن يعتمد على أي دليل من كتاب أو سنة. فما رأينا واحداً من أصحاب الإرجاء ورؤساء فرقه، دافع

---

(١) الملل والنحل: ١/١٧٩.

عن هذا الرأي بآية من القرآن أو حديث وارد عن رسول الله ﷺ.

بل إن نصوص القرآن الجلية، والأحاديث الكثيرة الثابتة تنقض أقوالهم، وتثبت نقيض ما يزعمون.

من ذلك قوله عز وجل: ﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٠٦].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ [النساء: ١٠].

وقوله جل جلاله على لسان المؤمنين إذ يخاطبون أناساً يساقون يوم القيامة إلى العذاب: ﴿ ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قالوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّى أَتانا الْيَقِينُ ﴾ [المدثر: ٤٢ - ٤٧].

وقوله جل جلاله: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكاةِ فاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ * إلا عَلَى أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَراءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَماناتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ راعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَواتِهِمْ يُحافِظُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْوارِثُونَ ﴾ [المؤمنون: ١ - ١٠].

فأنت ترى أن الله عز وجل فتح احتمال كل من المغفرة والعقاب للعصاة. وهو يتنافى مع الجزم بأن المعصية مع الإيمان لا تضر. كما ترى أن الله عز وجل توعد الذين يأكلون أموال اليتامى بدون حق - وهو من المعاصي كما تعلم - بأن يصليهم سعيراً. ولئن كان الإكرام بإخلاف الوعيد محتملا، فهو غير مقطوع به، ولو كان الخلف في الوعيد مقطوعاً به، لما كان لهذا الوعيد أي معنى ولعاد عبثاً من القول، والله منزه عن ذلك. ثم أنت ترى أن الله يحكي في حوار المؤمنين مع الكافرين العصاة اعتراف الكافرين بأن سبب العذاب الذي استحقوه تركهم

الطاعات التي كلفوا بها من صلاة وصدقة ونحوهما. إلى جانب كفرهم بالله عز وجل. فإذا استحق تارك الطاعات العقاب عليها مع عقاب كفره، أفلا يستحق بعض هذا العقاب من ساواه في ترك الطاعات وإن خالفه في الجنوح إلى الكفر؟ أما الآية الأخيرة، فهي نص قاطع، وكأنما أنزل للرد على أوهام المرجئة. فأنت ترى أن الله قيد فلاح المؤمنين يوم القيامة بشرط لابد منه هو أداؤهم الطاعات التي أُمروا بها وانتهاؤهم عن المعاصي التي نهوا عنها، ومعنى ذلك أنه إذا فقد شرط انضباطهم بتلك الأوامر والنواهي فلا فلاح لهم يوم القيامة، بل يتناقص فلاحهم بنسبة المعاصي التي ارتكبوها والطاعات التي أعرضوا عنها.

والدليل النقلي الوحيد الذي يتمسك به المرجئة لترويج شبهتهم، هو ما يفهمونه من قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى * لا يَصْلاهَا إِلا الأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [الليل: ١٤ - ١٦]، فقد فهموا من الآية ما يدل عليه ظاهرها من أن الاصطلاء بالنار يوم القيامة خاص بالكافرين الذين كذبوا بما جاء به الرسل وأعرضوا عنه؛ وعلى هذا فإن من لم يكذب به، لا يمسه الاصطلاء وإن ارتكب ما ارتكبه من الأوزار.

غير أن هذه الآية، كأي آية أخرى من القرآن، لا يجوز أن تفهم وتفسر بمعزل عن الآيات الأخرى التي تتولى بيان المراد منها. وحسبك من تلك الآيات الأخرى التي تنفي هذا الوهم، الآية التي تلي هذه مباشرة. وهي قوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ [الليل: ١٧ - ١٨] فإن الله عز وجل لم يفسر الأتقى الذي وعد بتجنيبه عذاب تلك النار، بمن آمن بالله ورسوله ثم وقف عند حدود ذلك الإيمان، بل فسره بمن أضاف إليه العمل الصالح فآتى زكاة ماله وقام بالطاعات المنوطة به. والآية صريحة في بيان ذلك.

بقي أن نتساءل: فلماذا حصر الله تعالى وعيد الاصطلاء في الأشقى الذي

فسره بمن كذب وتولى، وأين هو مكان ذاك الذي لم يتبوّأ درجة (الأتقى) ولكنه لم ينحط إلى الكفر الذي ينزل به إلى درجة (الأشقى)؟

وأحسن الأجوبة على هذا ما ذكره الفخر الرازي، قائلا:

«الجواب على ذلك من وجهين؛ الأول ما ذكره الواحدي، وهو أن معنى لا يصلاها لا يلزمها في حقيقة اللغة، يقال: صلى الكافر النار إذا لزمها مقاسياً شدتها وحرّها. وعندنا أن هذه الملازمة لا تثبت إلا للكافر. أما الفاسق فإما أن لا يدخلها أو إن دخلها تخلص منها. الثاني أن يخصّ عموم هذا الظاهر بالآيات الدالّة على وعيد الفساق والله أعلم»[1].

أقول: والآيات الكثيرة الدالة على وعيد الفساق، تستوجب تفسير يصلاها بـ (يلازمها) كما قال الرازي. وبذلك يتحد الوجهان في الجواب على هذا الاستشكال.

دوافع عقيدة الإرجاء

لا نستبعد أن يكون اعتقاد الإرجاء إنما نشأ عند أصحابه، بدافع من ردة الفعل لموقف الخوارج من مرتكبي الكبائر. ذلك لأننا مهما بحثنا عن الأدلة والمرتكزات الفكرية لهم، لن نعثر على شيء، اللهم إلا قوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ ناراً تَلَظَّى * لا يَصْلاها إلا الأَشْقَى﴾ [الليل: ١٤- ١٥].

ولكن مهما يكن، فلا نرى أي داع أو دليل على القول بأن عقيدة الإرجاء كانت تعبيراً عن موقف سياسي معين، وقفه بعض الناس من فتنة علي ومعاوية. ومن هؤلاء الذين قالوا بهذا الرأي الدكتور يوسف العش رحمه الله في مذكراته التي وضعها عن تاريخ الفرق والأديان. فقد صور لنا أن الفتنة لما اشتدت وظهر

---

(١) تفسير مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي: ٥٩٢/٨.

الخوارج برأيهم الشديد، وأصرت شيعة علي على المطالبة بحقه وظهرت فرقة الأمويين من الجانب الآخر، كان من المعقول في موقف كهذا أن تظهر طائفة جديدة هي طائفة الحياديين تقف وسطاً بين الجانبين وتضم إليها أولئك الذين رغبوا أن يكونوا من أول الأمر بعيداً عن الفتنة[1].

نقول: لا نرى أي دليل يؤيد هذا التخيل، اللهم إلا الرغبة في أن يكون الأمر في واقعه قائماً على هذا الأساس. بل نرى ما يفند هذا الزعم لما يلي:

١ - لم يكن أولئك الذين وقفوا موقف الحياد أمام الفتنة من أمثال عبد الله بن عمر وعمرو بن الحصين الخزاعي، وأبي هريرة.. إلخ من المرجئة في شيء. وقد علمت أننا نتحدث عن مرجئة المبتدعة أما ما سمي بإرجاء أهل السنة، فهو اعتقاد سائر المسلمين دون تفريق. فإن كان حيادهم السياسي يعبر عنه بالإرجاء، فعلينا أن نصف بالإرجاء كل أولئك الذين لم يريدوا أن يدنسوا سيوفهم ولا ألسنتهم بتلك الفتنة، وما أكثرهم من الصحابة والتابعين.. علماً بأنهم ما فروا من تلك الفتنة إلا تنفيذاً لوصية رسول الله ﷺ التي كررها أكثر من مرة. من ذلك ما رواه البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«ستكون فتنٌ القاعدُ فيها خيرٌ من القائم، والقائمُ فيها خيرٌ من الماشي، والماشي فيها خيرٌ من السَّاعي، من تشرَّف لها تستشرفه، فمن وجد فيها ملجأ أو معاذاً فليعذ به».

فما علاقة هذا الحياد الذي أمر به رسول الله ﷺ بمذهب اعتقادي جانح قالت به فئة قليلة من الناس؟

٢ - إن المرجئة لم يكونوا في اعتقادهم الذي نادوا به حياديين، بل إنهم

---

(١) تاريخ الفرق والأديان للدكتور يوسف العش: ٥٥.

يجسدون ردة الفعل القاسية لمذهب الخوارج، فإذا جنح الخوارج في اعتقادهم بكفر العاصي إلى أقصى حدود التطرف فإن المرجئة باعتقادهم أن المعاصي مهما كانت لا تضر صاحبها ما دام مسلماً، قد جنحوا إلى أقصى التطرف المقابل. فأين هو الحياد منهم؟ وأين هم الذين بالغوا أكثر منهم في التطرف حتى يبقى للمرجئة مقام حيادي بين الفئتين؟

٣ - تلك هي طريقة المستشرقين في تحليل خلفيات الفرق الاعتقادية التي نشأت في عصر التابعين فما بعد، إذ يطيب لهم أن يجعلوا من الاعتقادات الدينية لدى المسلمين فروعاً لعوامل وأسباب سياسية؛ وبذلك يهونون من شأن قيمة تلك الاعتقادات ويفرغونها من مضامينها الذاتية التي تستدعي البقاء والاستمرار. إذ إنها ما دامت لم تقم إلا ظلا لواقع سياسي، فإن من الجدير أن يذهب الظل مع ذهاب أصله.

غير أن من شأن العاقل الذي روض فكره على السير وراء المنطق والعلم، أن يتأمل الواقع الثابت من حيث هو، ثم يفهمه على هذا الأساس، لا أن يحكّم رغبته في أن يتصور هذا الواقع على نحو معين، ثم يلزم عقله باعتقاد ما حكمت به رغبته.

فكيف بمن يلزم عقله باعتقاد ما حكمت به رغبة الآخرين؟.. وكيف عندما يكون هؤلاء الآخرون هم المستشرقين الذين لا يخفون حقدهم على هذا الدين؟

الأَشَـــاعِــرة

الأشاعرة والأشعرية نسبة إلى الإمام أبي الحسن بن إسماعيل الأشعري. ولد بالبصرة سنة ٢٦٠ هـ وتوفي عام ٣٣٠ هـ، وقيل كانت وفاته سنة ٣٢٤ هـ[١].

ظهر هذا الإمام في وقت كثرت فيه الفرق الصغيرة المتناثرة، التي اشتغلت بتكفيرها بعض لبعض، واشتد فيه أمر المعتزلة، فأصبحت أقوى تلك الفرق وأشدَّها دعوة لمذهبها وجدالا بل إقزاعاً للآخرين لاسيما المحدثين والفقهاء.

يقول الشيخ أبو زهرة في كتابه المذاهب الإسلامية: «اشتدت حملة المعتزلة على الفقهاء والمحدثين، ولم يسلم من حملتهم فقيه معروف أو محدث مشهور، فكرههم الناس وصاحب ذكرهم البلاء والمحن، وتأرثت العداوة حتى نسي الناس خيرهم، فنسوا دفاعهم عن الإسلام وبلاءهم فيه، وتصديهم للزنادقة وأهل الأهواء. نسوا هذا كله، ولم يذكروا لهم إلا إغراءهم الخلفاء بامتحان كل إمام تقي ومحدث مهدي..».

إلى أن قال: «وظهر في آخر القرن الثالث رجلان امتازا بصدق البلاء، أحدهما أبو الحسن الأشعري، ظهر بالبصرة، والثاني أبو منصور الماتريدي ظهر بسمرقند، وقد جمعهما مقاومة المعتزلة على اختلاف بينهما في القرب من المعتزلة والبعد عنهم»[٢].

ولقد كان أبو الحسن الأشعري معتزليّاً في أول أمره، تمرس بدراية أفكارهم ومعرفة أساليبهم في الجدال والنقاش، وأقبل مثلهم إلى علوم الفلسفة ودرس الكثير منها. ولكنه تبرأ بعد ذلك منهم وأعلن توبته من اعتناق أفكارهم، ثم انتصر للحقِّ

---

(١) انظر تحقيق تاريخ وفاة الإمام الأشعري في تبيين كذب المفتري: ١٤٦ - ١٤٧.

(٢) المذاهب الإسلامية: ٢٦٥.

الـذي كـان عليـه سـواد الأمـة الإسـلامية إلى ذلـك العهـد، وفي مقدمتـهم المحـدثون والفقهاء. وقد كان له في ماضيه معهم وتمرسه بأساليبهم ودرايته بالفلسفة اليونانية التي هي جل معتمد المعتزلة، ما يسَّر له السبيل إلى تعريتهم والكشف عن باطلهم. فمن أجل ذلك كان ظهور المذهب الحق، الذي سارت عليه الجماعة، على يديه. حتى نسب هذا المذهب إليه، مع أنه كان موجوداً من قبله، وكان سواد الناس من علماء وعامة يتناقلونه ويتواصون به، ولكن لم يكن ثمة من يجابه به المعتزلة ويزيف لهم آراءهم، إذ كان جميع المحدثين والفقهاء منصرفين عن ذلك إلى دراسة ما هم بصدده من علوم الحديث والرواية أو دراسة الأحكام الفقهية واستنباطها من مصادرها الشرعية.

فلما ظهر أبو الحسن الأشعري وانشق عن المعتزلة، قيض الله منه مدافعاً للحق الذي اجتمع عليه سواد الأمة، كاشفاً عن زيف الانحرافات التي انجرف إليها المعتزلة، موضحاً مدى ضلالهم في ابتعادهم عن نصوص الكتاب والسنة، واعتماد الفلسفة اليونانية بدلا منهما.

فكيف ترك الاعتزال؟ وما هي العوامل التي حملته على ذلك؟

خير من يجيبنا على ذلك، ابنُ عساكر المتوفى سنة ٥٧١ هـ في كتابه (تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري)، قال رحمه الله، يروي عن إسماعيل بن أبي محمد بن إسحاق الأشعري رحمه الله:

«الأشعري شيخنا وإمامنا ومن عليه معولنا، قام على مذهب الاعتزال أربعين سنة وكان لهم إماماً، ثم غاب عن الناس في بيته خمسة عشر يوماً، فبعد ذلك خرج إلى الجامع فصعد المنبر وقال: معاشر الناس، إني إنما تغيبت عنكم في هذه المدة، لأني نظرت، فتكافأت عندي الأدلة، ولم يترجح عندي حق على باطل ولا باطل على حق، فاستهديت الله تبارك وتعالى فهداني إلى اعتقاد ما أودعته في

كتبي هذه، وانخلعت من جميع ما كنت أعتقده كما انخلعت من ثوبي هذا. وانخلع من ثوب كان عليه ورمى به، ودفع الكتب إلى الناس: فمنها كتاب (اللُّمع) وكتاب أظهر فيه عوار المعتزلة سماه بكتاب (كشف الأسرار وهتك الأستار). وغيرهما. فلما قرأ تلك الكتب أهلُ الحديث والفقه من أهل السنة والجماعة أخذوا بما فيها وانتحلوه، واعتقدوا تقدمه واتخذوه إماماً حتى نسب مذهبهم إليه»[1].

لم يكن الأشعري مبتدع مذهب بل كان نصير مذهب أهل السنة والجماعة

يظن بعض من الناس أن الإمام الأشعري، ابتدع هو الآخر لنفسه مذهباً في أمور العقيدة، ودونه في كتبه ثم دعا إليه، فاجتمع عليه الناس، فنسبوا إليه، لأخذهم بأقواله وقيل عنهم أشعريين.

وهذا في الحقيقة وهم كبير، فإن الإمام الأشعري لم يبتدع لنفسه مذهباً ولا رأياً بل لفت نظره (وقد أمضى شطراً من عمره وهو يتبنى أفكار المعتزلة) ما يعتقده رجال السنة والحديث، ومعهم الفقهاء المشتغلون بدراسة أحكام الشريعة، في مسائل أصول الدين. وهو الاعتقاد الذي ورثوه من جيل التابعين، وورثه التابعون من أصحاب رسول الله ﷺ، مأخوذاً من نصوص الكتاب والسنة. وعلى الرغم من أن سواد الأمة وجمهرة علماء المسلمين كانوا على هذا المنهج يسيرون، وبهذا المعتقد يتمسكون، إلا أن ظهور تلك الفرق الأخرى بخصوماتها وجدالها مع دعوة كل منها إلى ما يروق لها من بدع جديدة لم تكن من قبل، حجب ذلك المنهج عن الأنظار، وصرف الأسماع عنه إلى ضجيج تلك المناقشات والمجادلات، فعادت عقيدة جمهور المسلمين في غمرة تلك الصراعات، أشبه ما تكون بالجادة العريضة التي تكاثرت فوقها الأتربة والحجارة والرمال، فضاع على الناس معالمها وتاهوا عن

---

(١) تبيين كذب المفتري: ٤٠.

حدودها، فكان عمل الإمام أبي الحسن الأشعري محصوراً في إزاحة ذلك الركام عن تلك الجادة العريضة، وتجليتها أمام الأنظار، وتنبيه الناس إلى اتباع ما عليه جماعة المسلمين منذ عصر النبوة، مدعوماً بنصوص الكتاب والسنة، وذلك تنفيذاً واتباعاً لوصية رسول الله ﷺ باتباع الجماعة والتحذير من الشرود عن جادتها العريضة إلى السبل التائهة المتعرجة. وهذا ما نبه إليه جُلُّ الذين ترجموا له.

يقول ابن عساكر نقلا عن الشيخ أبي القاسم القُشيريّ ما نصه:

«اتَّفق أصحاب الحديث أن أبا الحسن علي بن إسماعيل الأشعري رضي الله عنه كان إماماً من أئمة أصحاب الحديث. ومذهبه مذهب أصحاب الحديث، تكلم في أصول الديانات على طريقة أهل السنة وردّ على المخالفين من أهل الزيغ والبدعة»[1].

ويقول ابن السُّبكي في (طبقات الشّافعيّة): «اعلم أن أبا الحسن لم يبدع رأياً، ولم يُنشئ مذهباً، وإنما هو مقرر لمذهب السلف، مناضل عما كانت عليه صحابة رسول الله ﷺ. فالانتساب إليه إنما هو بأنه عقد على طريقة السلف نطاقاً وتمسّك به، وأقام الحجج والبراهين عليه، فصار المقتدي به في ذلك السالك سبيله في الدلائل يسمى أشعرياً»[2].

ويقول ابن خلكان: «هو صاحب الأصول والقائم بنصرة مذهب أهل السنة، وإليه تنسب الطائفة الأشعرية»[3].

وقال عنه ابن العماد في كتابه شذرات الذهب: «وقد بيض الله به وجوه أهل

---

(١) تبيين كذب المفتري: ١١٢- ١١٣.

(٢) طبقات الشافعية لابن السبكي: ٣٦٥/٣.

(٣) وفيات الأعيان: ٣٢٦/٢.

السنة النبوية وسوّد به رايات أهل الاعتزال والجهمية، فأبان به وجه الحق الأبلج ولصدور أهل العلم والعرفان أثلج»[1].

عقيدة الإمام الأشعري:

هذا، وخير ما يؤكد لنا أن الإمام الأشعري لم يكن مبتدع مذهب ولكنه كان نصير مذهب جمهور المسلمين أهل السنة والجماعة، أن نصغي إليه وهو يحدثنا عن معتقده بعد أن رجع عن الاعتزال. وقد لخص عقيدته في كتابه الإبانة، وهو آخر مؤلفاته، وها أنا أنقل عقيدته التي يدين بها من خلال نص كلامه في كتابه هذا، دون تحريف ولا تلخيص:

«فإن قال لنا قائل: قد أنكرتم قول المعتزلة والقدرية والحرورية والرافضة والمرجئة، فعرفونا قولكم الذي به تقولون وديانتكم التي بها تدينون، قيل له: قولنا الذي نقوله، وديانتنا التي ندين بها التمسك بكتاب الله ربنا عز وجل، وبسنة نبينا ﷺ، وما روي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن حنبل نضر الله وجهه ورفع درجته وأجزل مثوبته قائلون، ولمن خالف قوله مجانبون، لأنه الإمام الفاضل والرئيس الكامل الذي أبان الله به الحق ورفع به الضلال وأوضح به المنهاج وقمع به بدع المبتدعين وزيغ الزائغين وشك الشاكين، فرحمة الله عليه من إمام مقدم وخليل معظم مفخم وعلى جميع أئمة المسلمين. وجملة قولنا أنّا نقرّ بالله وملائكته وكتبه ورسله وما جاء من عند الله وما رواه الثقات عن رسول الله ﷺ، لا نردّ من ذلك شيئاً، وأن الله عز وجل إله واحد لا إله إلا هو فرد صمد لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، وأن

---

(١) شذرات الذهب: ٣٠٣/٢.

محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق، وأن الجنة حق والنار حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور. وأن الله استوى على عرشه كما قال: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] وأن له وجهاً كما قال: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧] وأن له يدين بلا كيف كما قال: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] وكما قال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] وأن له عيناً بلا كيف كما قال: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤] وأن من زعم أن أسماء الله غيره كان ضالا، وأن لله علماً كما قال: ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ [النساء: ١٦٦] ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ [فاطر: ١١] ونثبت لله السمع والبصر ولا ننفي ذلك كما نفته المعتزلة والجهمية والخوارج، ونثبت أن لله قوة كما قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]. ونقول إن كلام الله غير مخلوق وأنه لم يخلق شيئاً إلا وقد قال له كن فيكون ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]، وأنه لا يكون في الأرض من خير وشر إلا ما شاء الله، وأن الأشياء تكون بمشيئة الله عز وجل، وأن أحداً لا يستطيع أن يفعل شيئاً قبل أن يفعله الله، ولا نستغني عن الله ولا نقدر على الخروج من علم الله عز وجل، وأنه لا خالق إلا الله، وأن أعمال العباد مخلوقة لله مقدورة كما قال: ﴿خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] وأن العباد لا يقدرون أن يخلقوا شيئاً وهم يُخلقون، كما قال: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٣]، وكما قال: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [النحل: ١٢٠]، وكما قال: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧]، وكما قال: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥] وهذا في كتاب الله كثير، وأن الله وفق المؤمنين لطاعته ولطف بهم ونظر إليهم وأصلحهم وهداهم وأضلّ الكافرين ولم يهدهم ولم يلطف بهم بالإيمان كما زعم أهل الزيغ والطغيان، ولو لطف بهم وأصلحهم لكانوا صالحين، ولو هداهم لكانوا مهتدين كما قال تبارك

وتعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٨]، وأن الله يقدر أن يصلح الكافرين ويلطف بهم حتى يكونوا مؤمنين، ولكنه أراد أن يكونوا كافرين كما علم، وأنه خذلهم وطبع على قلوبهم، وأن الخير والشر بقضاء الله وقدره، وأنا نؤمن بقضاء الله وقدره خيره وشره حلوه ومره، ونعلم أن ما أخطأنا لم يكن ليصيبنا وأن ما أصابنا لم يكن ليخطئنا وأن العباد لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله، وأنّا نلجئ أمورنا إلى الله ونثبت الحاجة والفقر في كل وقت إليه. ونقول: إن القرآن كلام الله غير مخلوق وأن من قال بخلق القرآن فهو كافر؛ وندين بأن الله تعالى يُرى في الآخرة بالأبصار، كما يُرى القمر ليلة البدر يراه المؤمنون كما جاءت الروايات عن رسول الله ﷺ، ونقول إن الكافرين محجوبون عنه إذا رآه المؤمنون في الجنة كما قال الله عز وجل: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، وأن موسى عليه السلام سأل ربه الرؤية في الدنيا وأن الله سبحانه وتعالى تجلّى للجبل فجعله دكاً فأعلم بذلك موسى أنه لا يراه في الدنيا. ونرى بأن لا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب يرتكبه، كالزنى والسرقة وشرب الخمر، كما دانت بذلك الخوارج وزعمت أنهم كافرون؛ ونقول إن من عمل كبيرة من هذه الكبائر مثل الزنى والسرقة وما أشبهها مستحلا لها غير معتقد لتحريمها كان كافراً. ونقول إن الإسلام أوسع من الإيمان وليس كل إسلام إيماناً. وندين بأنه يقلب القلوب وأن القلوب بين أصبعين من أصابعه، وأنه عز وجل يضع السماوات على أصبع والأرضين على أصبع كما جاءت الروايات عن رسول الله ﷺ.

وندين بأن لا ننزل أحداً من أهل التوحيد جنة ولا ناراً إلا من شهد له رسول الله ﷺ بالجنة، ونرجو الجنة للمذنبين ونخاف عليهم أن يكونوا بالنار معذبين، ونقول إن الله عز وجل يخرج قوماً من النار بعد أن امتحشوا بشفاعة محمد

ﷺ، تصديقاً لما جاءت به الروايات عن رسول الله ﷺ، ونؤمن بعذاب القبر وبالحوض، وأن الميزان حق والصراط حق والبعث بعد الموت حق وأن الله عز وجل يوقف العباد بعد الموت ويحاسب المؤمنين، وأن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص، ونسلّم بالروايات الصحيحة في ذلك عن رسول الله ﷺ، التي رواها الثقات عدل عن عدل حتى تنتهي الرواية إلى رسول الله ﷺ، وندين بحب السلف الذين اختارهم الله عز وجل لصحبة نبيه ﷺ ونثني عليهم بما أثنى الله به عليهم ونتولاهم أجمعين. ونقول إن الإمام الفاضل بعد رسول الله ﷺ أبو بكر الصدّيق رضوان الله عليه، وأن الله أعز به الدين وأظهره على المرتدين، وقدّمه المسلمون للإمامة كما قدّمه رسول الله ﷺ للصلاة وسموه بأجمعهم خليفة رسول الله ﷺ، ثم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ثم عثمان بن عفان رضي الله عنه وأن الذين قاتلوه قاتلوه ظلماً وعدواناً، ثم علي بن أبي طالب رضي الله عنه. فهؤلاء الأئمة بعد رسول الله ﷺ وخلافتهم خلافة النبوة. ونشهد بالجنة للعشرة الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بها، ونتولى سائر أصحاب النبي ﷺ ونكفّ عما شجر بينهم، وندين لله بأن الأئمة الأربعة خلفاء راشدون مهديون فضلاء، لا يوازيهم في الفضل غيرهم.

«ونصدق بجميع الروايات التي يثبتها أهل النقل من النزول إلى السماء الدنيا، وأن الرب عز وجل يقول: هل من سائل هل من مستغفر، وسائر ما نقلوه وأثبتوه، خلافاً لما قاله أهل الزيغ والتضليل ونعول فيما اختلفنا فيه على كتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ واجتماع المسلمين وما كان في معناه ولا نبتدع في دين الله بدعة لم يأذن الله بها، ولا نقول على الله ما لا نعلم، ونقول بأن الله عز وجل يجيء يوم القيامة كما قال: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢] وأن الله عز وجل يقرب من عباده كيف يشاء كما قال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]

وكما قال: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [النجم: ٨ - ٩]..

«ومن ديننا أن نصلي الجمعة والأعياد وسائر الصلوات والجماعات خلف كل برّ وغيره، كما روي عن عبد الله بن عمر أنه كان يصلي خلف الحجاج، وأن المسح على الخفين سنة في الحضر والسفر خلافاً لقول من أنكر ذلك.

«ونرى الدعاء لأئمة المسلمين بالصلاح والإقرار بأمانتهم، وتضليل من رأى الخروج عليهم إذا ظهر منهم ترك الاستقامة، وندين بترك الخروج عليهم بالسيف، وترك القتال في الفتنة.

«ونقر بخروج الدجال كما جاءت به الرواية عن رسول الله ﷺ، ونؤمن بعذاب القبر ومنكر ونكير ومساءلتهما المدفونين في قبورهم، ونصدق بحديث المعراج ونصحح كثيراً من الرؤيا في المنام ونقرّ أن لذلك تفسيراً، ونرى الصدقة عن موتى المسلمين والدعاء لهم ونؤمن بأن الله ينفعهم بذلك.

«ونصدق بأن في الدنيا سحرة وأن السحر كائن موجود في الدنيا. وندين بالصلاة على من مات من أهل القبلة برّهم وفاجرهم وتوارثهم، ونقر بأن الجنة والنار مخلوقتان وأن من مات أو قتل فبأجله مات أو قتل..»[1].

وإنما نقلت لك هذا النص بطوله، حتى يتبين لك من خلاله أن هذا الإمام لم يخترع لنفسه مذهباً ينادي به، كما فعل أصحاب الفرق الأخرى، وإنما اعتنق ما كان يدين به جمهور المسلمين من علماء الحديث والفقه وسائر الصحابة والتابعين، ومحوره ما دلّ عليه كتاب الله وسنة نبيه محمد ﷺ.

غير أن هذه العقيدة نسبت إليه، بسبب أنه هو الذي قام - من دون بقية علماء السنة والفقه - بالدفاع عنها والتدليل عليها وتزييف ما يخالفها من آراء

---

(١) الإبانة: ٨- ١٢.

الفرق الأخرى فانتشر اسمه بذلك في الآفاق وتواردت عليه المسائل من أقطار العالم فأجاب عنها، وعمّ مذهبه الذي سمي بمذهب أهل السنة والجماعة في بلاد العراق وخراسان والشام وبلاد المغرب. ودانت له - كما يقول العلامة الكوثري - أهل البسيطة إلى أقصى بلاد إفريقية[1].

وذكر العزّ بن عبد السلام أن أتباع المذاهب الأربعة يدينون بهذه العقيدة؛ فمنهم كافة المالكية ومعظم الشافعية وقسم كبير من الحنفية وكثير من الحنابلة، ومن لم يكن من هؤلاء من أتباع الإمام الأشعري، فهم من أتباع أبي منصور الماتريدي، كقسم من الحنفية وبعض الشافعية[2]. وستعلم أن الخلاف بين الإمام الأشعري والإمام الماتريدي محصور في مسائل جزئية اجتهادية والخلاف في كثير منها لفظي.

وإنك لتلاحظ من هذا النص الذي نقلناه، أن منهج الإمام الأشعري في بناء العقيدة يقوم على النقاط التالية:

أ - الأخذ بكل ما جاء به الكتاب، وبكل ما جاءت به السنة، لا فرق في ذلك بين سنة متواترة وآحاد ما دامت ثابتة صحيحة.

ب - الأخذ بظواهر النصوص في الآيات الموهمة للتشبيه، مع تنزيه الله تعالى عن الشبيه والنظير، فهو يعتقد أن لله وجهاً لا كوجه العبيد وأن لله يداً لا تشبه يد المخلوقات.

جـ - إثبات جميع الصفات التي أثبتها الله تعالى لنفسه، مع اليقين بأنها ليست كصفات المخلوقات وإن اتفقت التسمية أحياناً.

د - إن الإنسان لا يخلق شيئاً، ولكنه يقدر على الكسب أي يملك اختياراً

---

(١) مقدمة تبيين كذب المفتري للشيخ محمد زاهد الكوثري: ١٥.

(٢) طبقات ابن السبكي: ٣٦٥/٦.

وإرادة، وعلى هذا الكسب يدور التكليف.

هـ - كل ما وعد الله به واقع ونافذ، ومن جملة وعده تأميله الفاسقين والعاصين بالعفو والمغفرة يوم القيامة إذا شاء ذلك، ومن جملة وعده أن ينكشف لمن شاء من عباده يوم القيامة فيرونه رؤية صحيحة لا يضارّون فيها.

مسلك الإمام الأشعري في الاستدلال:

سلك الأشعري في الاستدلال على العقائد مسلك النقل أولا والعقل ثانياً. فهو يثبت ما جاء في القرآن الكريم والحديث الشريف من أوصاف الله تعالى ورسله واليوم الآخر والملائكة والحساب والعقاب والثواب. ويتجه إلى الأدلة العقلية والبراهين المنطقية يستدل بها على صدق ما جاء في القرآن والسنة عقلا، بعد أن وجب التصديق بها كما هي، نقلا. فهو - كما يقول الشيخ أبو زهرة - لا يتخذ من العقل حاكماً على النصوص ليؤولها أو يمضي ظاهرها، بل يتخذ العقل خادماً لظواهر النصوص يؤيدها.

وقد برع الإمام الأشعري كما يقول الشيخ أبو زهرة في الاستدلال العقلي وارتضاه مسلكاً صحيحاً إذا جاء خاضعاً لسلطان النصوص الثابتة وسبب ذلك:

١ - أنه تخرّج على المعتزلة ونال من مشربهم وسار على طريقتهم في الاستدلال.

٢ - أنه تصدى بعد ذلك للرد على المعتزلة وكشف انحرافاتهم فلا بد أن يلحن بمثل حجتهم وأن يتبع طريقتهم في الاستدلال ليقطع شبهاتهم وليرد حجتهم عليهم.

٣ - تصديه للرد على الفلاسفة والقرامطة والباطنية وأضرابهم، وكثير من

هؤلاء لم يكن يفحمه إلا الأقيسة المنطقية والدليل العقلي[1].

المـــاتـــريـــديَّـــــة

هي نسبة إلى الإمام محمد بن محمد بن محمود أبي منصور الماتريدي، نسبة إلى ماتريد، وهي محلة أو ضاحية في سمرقند من بلاد ما وراء النهر. وقد كان إلى جانب إمامته في أصول الدين وعلم الكلام أحد فقهاء الحنفية، فقد تلقى الفقه على مذهب أبي حنيفة عن نصر بن يحيى البلخي (المتوفى سنة ٢٦٨ هـ).

وقد كانت بلاد ما وراء النهر موطن مناظرات ومجادلات في الفقه وأصوله، ولما انتقلت أصداء الاعتزال وأفكاره إلى تلك البقاع أقبل العلماء هناك يتناظرون في علم الكلام أيضاً. وقد عاش الماتريدي في تلك الحلبة وتغذى بروح تلك المناظرات الفقهية والأصولية والكلامية. وبرع في علم الحجاج والمنطق والفنون العقلية والنقلية، فقيض الله منه الرجل الثاني للذود عن الحق وإزاحة شبهات أولي البدع والضلالة.

يقول أبو زهرة في كتابه المذاهب الإسلامية: «عاش أبو منصور الماتريدي وأبو الحسن الأشعري في عصر واحد، وكلاهما كان يسعى للغرض الذي يسعى إليه الآخر. بيد أن أحدهما كان قريباً من معسكر الخصم وهو الأشعري، فقد كان بالبصرة موطن الاعتزال والمنبت الذي نبت منه، وكانت المعركة بين الفقهاء والمحدثين وبين المعتزلة بالعراق الذي كانت البصرة إحدى أحواضه. أما أبو منصور الماتريدي فقد كان بعيداً عن موطن المعركة، ولكن تردد صداها في أرجاء الأرض التي يسكنها، فكان في بلاد ما وراء النهر معتزلة يرددون أقوال معتزلة العراق وقد

---

(١) المذاهب الإسلامية للشيخ محمد أبو زهرة: ٢٧٧ و ٢٧٨.

تصدى لهم الماتريدي»[1].

منهجان إلى مذهب واحد:

من هنا نعلم أن الغاية التي قصدها كل من أبي الحسن الأشعري وأبي منصور الماتريدي، واحدة، ألا وهي الدفاع عن معتقد أهل السنة والجماعة سواد الأمة، ضد هجمات المبتدعة وأوهامهم ولاسيما المعتزلة، فلا غرو أن تتمثل الغاية الواحدة في معتقدات واحدة. ولقد علمت أن أبا منصور الماتريدي كان حنفي المذهب، وقد كان أبو حنيفة ممن كتب في أصول الدين، وله في ذلك كتابه (الفقه الأكبر) وكتب أخرى. وكانت عقيدته موروثة - وهو من أقدم الأئمة الأربعة - من أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين، دون تزيد أو انحراف أو ابتداع فكانت هي نفسها عقيدة الماتريدي، وعنها كان دفاعه، وإليها كانت دعوته.

بيد أن منهجه إلى ذلك ربما اختلف في بعض الجوانب عن منهج أبي الحسن الأشعري. ويتلخص الفرق بينهما في ذلك، في أن الأشعري كان لا يقيم لسلطان العقل الاجتهادي وزناً أمام النصوص، حتى وإن كانت واردة عن طريق الآحاد، ولم ترق إلى درجة التواتر. أما الماتريدي فقد كان يقيم لأحكام العقل وزناً أكثر من ذلك، بمعنى أنه يسعى إلى التوفيق بينه وبين المنقول إذا أمكنه ذلك دون تكلف أو تمحل.

غير أن هذا الاختلاف اليسير في المنهج لم يتسبب عنه أي خلاف جوهري في النتائج والمعتقدات الأساسية، بل العكس هو الصحيح.

نعم، وقع بين الإمامين خلاف في جزئيات اجتهادية قائمة على هوامش

---

(١) المذاهب الإسلامية: ٢٩٢.

المبادئ الاعتقادية المتفق عليها، وأكثرها خلاف لفظي لا طائل منه، وما كان منه خلافاً جوهرياً فهو غير متعلق بالمعتقدات الأساسية التي يتسبَّب عن الانحراف عنها الضلال والفسوق.

وقد عني كثير من العلماء بجمع نثار هذه المسائل الجزئية التي وقع فيها الخلاف، بين الأشعرية والماتريدية فحصرها بعضهم في عشر مسائل، وجمعها ابن السبكي في ثلاث عشرة مسألة وقال: «.. منها معنوي ست مسائل، والباقي لفظي. وتلك الست المعنوية لا تقتضي مخالفتهم لنا ولا مخالفتنا لهم تكفيراً ولا تبديعاً، صرح بذلك أبو منصور البغدادي وغيره من أئمتنا وأئمتهم»[1]. ورأيت في ذلك رسالة للشيخ زادة أسماها (نظم الفرائد وجمع الفوائد في بيان المسائل التي وقع فيها الاختلاف بين الماتريدية والأشعرية في العقائد) أنهى فيها المسائل الخلافية بين الفريقين إلى أربعين مسألة. ولدى تتبعي لها رأيت أن أكثرها خلافات حول مسائل فلسفية وعقلية بحتة لا تعكس أي آثار خلافية على مسائل العقيدة الإسلامية؛ كخلافهم في أن الوجود هل هو عين الذات أم شيء زائد عليها؟ وكخلافهم في أن البقاء والوجود هل هما بمعنى واحد؟

أهم المسائل الخلافية بين الأشعرية والماتريدية:

ومع ذلك فلنستعرض أقرب هذه المسائل الخلافية إلى الخلاف الحقيقي وأشدها اتصالا بمسائل العقيدة، وهي في جملتها محتملة للنظر والبحث، لا يقتضي القول بأحد القولين فيها كفراً ولا تبديعاً كما قال ابن السبكي.

المسألة الأولى: دور العقل في معرفة الله وإدراك وجوب عبادته

(١) طبقات ابن السبكي: ٣/٣٧٨.

ذهب الأشعري إلى أن العقل لا دور له في معرفة وجوب شكر المنعم أو وجوب الإيمان به والعبادة له، وإنما معرفة ذلك متوقفة على بعثة الرسل وإخبارهم عن الله جل جلاله.

أما الماتريدية فيرون أن العقل قد يدرك ذلك ويكشف عن وجوب شكر الله وعبادته استقلالا؛ أي بدون رسل ولا أنبياء، ولكنه لا يستقل بمعرفة الأحكام التكليفية. غير أنهم يفترقون بعد ذلك عن المعتزلة في أن المعتزلة يقررون بناء على هذا أن معرفة الله واجبة على الإنسان بحكم العقل، أما الماتريدية فيقررون أن العقل وإن أدرك وجوب ذلك، إلا أن الوجوب الفعلي لا يأتي إلا ممن يملك الإيجاب وهو الله عز وجل. وهكذا يلتقي الماتريدية والأشاعرة أخيراً على يقين واحد، هو أن العقل لا يمكن أن يكون منبع حكم شرعي، وإنما الحكم الشرعي صادر من الله وحده. فما لم يتلق الناس حكم الله بواسطة رسله وأنبيائه لا يكلفون من قبله بشيء مهما أدرك العقل وعلم. فعاد الخلاف كما ترى لفظياً.

المسألة الثانية: دور العقل في الكشف عن حسن أو قبح ذاتي في الأشياء

وهذه المسألة متفرعة عن الأولى، أو الأولى متفرعة عن هذه. فقد قرر الماتريدية أن العقل يدرك الحسن أو القبح فيما له حسن أو قبح ذاتي من الأشياء والأفعال. وهم بهذا الرأي يتفقون مع المعتزلة، غير أنهم يعودون فيقررون أن معرفة العقل لتلك الصفة لا تستوجب وحدها أي حكم شرعي. إذ الحاكم هو الله وحده. وبذلك يتلاقى الماتريدية والأشاعرة على صراط واحد. وينفرد المعتزلة بالقول بأن حكم الله تابع للحسن أو القبح الذاتيين في الأشياء. ويبقى الخلاف بين الماتريدية والأشاعرة خلافاً نظرياً مجرداً.

المسألة الثالثة: ارتباط أفعال الله بالحِكَم أو العلل الغائية

ذهب الأشعرية تبعاً لما عليه أهل السنة والجماعة إلى أن أفعال الله ليست

معللة بأي علل غائية أي بمقاصد وأغراض. إذ لو كانت أفعاله كذلك لاقتضى ذلك أن تكون إرادته تعالى مشوبة بنقص وأن تكون قدرته مشوبة بعجز، ولكان مستكملا ذاته بغيره، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وقد علمت أن المعتزلة قالوا: إن الله يفعل أفعاله معللة بمقاصد وأغراض، وأن هذه المقاصد والأغراض هي المصالح التي لابد أن تدور عليها أحكام الله عز وجل. وقد علمت ما في هذا القول من الضلال والجنوح عن الحق.

أما الماتريدية فقالوا: نظراً إلى أن الله تعالى منزّه عن العبث، فلا بد أن تجري أحكامه على مقتضى الحكمة لأنه الإله الحكيم العليم. وقالوا: إن الله تعالى قد أراد هذه الحكمة وقصدها في أفعاله التكوينية وأحكامه التكليفية. غير أنهم انفصلوا عن مذهب المعتزلة عندما عادوا فقالوا: ولكنه سبحانه وتعالى قصدها غير مجبر عليها ولا ملزَم بها، فلا يقال إنه يجب عليه ولا منه فعل الصلاح أو الأصلح، لأنه يتنافى مع إرادته الكلية المطلقة.

فما هي إذن حصيلة الخلاف في هذه المسألة بين الأشاعرة والماتريدية؟

لا خلاف إلا في الأسلوب والتعبير؛ فالفريقان متفقان على أن أفعاله تعالى تستتبع الحكمة دائماً، والفريقان ينزهان الله تعالى عن أن يحمله على الفعل قصد إلى غاية لا سبيل إليها عنده إلا بواسطة ذلك الفعل. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

المسألة الرابعة: مسألة الإرادة والرضا والفرق بينهما

نقل الشيخ زادة في كتابه (نظم الفرائد) أن الماتريدية ذهبوا إلى أن الإرادة لا تستلزم الرضا والمحبة، بل الإرادة أعم منهما، وأن الأشاعرة ذهبوا إلى أن المحبة والرضا بمعنى الإرادة، ونقل ذلك عن إمام الحرمين[1].

---

(١) نظم الفرائد للشيخ زادة: ٩.

أقول وهذا النقل غلط عن الأشاعرة والإمام الأشعري، لم أجده إلا في هذا الكتاب. وكتب علماء العقيدة الأشاعرة تفيض ببيان الفرق بين الإرادة والرضا، والرد على المعتزلة الذين يقولون بترادفهما.

وقد ذكر ابن السبكي في طبقات الشافعية هذه المسألة فقال ما نصه:

«اعلم أن المنقول عن أبي حنيفة اتحادهما (أي الإرادة والرضا) وعن الأشعري افتراقهما. وقيل إن أبا حنيفة لم يقل بالاتحاد فيهما، بل ذلك مكذوب عليه، فعلى هذا انقطع النزاع، وإنما الكلام بتقدير صحة الاتحاد عنده. وأكثر الأشاعرة على ما يعزى إلى أبي حنيفة من الافتراق، منهم إمام الحرمين وغيره، وآخرهم الشيخ محيي الدين النووي رحمه الله تعالى، قال: هما شيء واحد، ولكني أنا لا أختار ذلك والحق عندي أنهما مفترقان كما هو منصوص الشيخ أبي الحسن»[1].

فحصيلة هذا الكلام أن منصوص الشيخ أبي الحسن وجل أتباعه على أن الإرادة أعم من الرضا، وأن الصحيح، الذي يروى عن أبي حنيفة هو الافتراق أيضاً. فقد اتفق الفريقان إذن على أن بين الكلمتين فرقاً في المعنى.

المسألة الخامسة: الاختيار والكسب

من المعلوم أن الأشاعرة كسائر أهل السنة والجماعة، قرروا أن الله هو خالق أفعال الإنسان. وردوا بذلك على المعتزلة القائلين بأن الإنسان هو الذي يخلق أفعال نفسه غير أنهم قرروا أيضاً أن الإنسان يملك كسبه، وهو الاختيار والعزم على الفعل الذي يشاء، وهو مناط التكليف وأساس الثواب والعقاب، وردوا بهذا على الجبرية.

---

(١) طبقات الشافعية: ٣/٣٨٥.

والحق في هذا أن الكسب، من حيث هو ملكة كلية يتمتع بها الإنسان، من مخلوقات الله عز وجل، أما ممارسة الإنسان لها فمنه هو، وبذلك يستحق الجزاء.

وربما اختلفت التعابير في هذا بين الأشاعرة والماتريدية، فتعبير الأشاعرة أن الكسب مخلوق من قبل الله عز وجل في العبد، أما تعبير الماتريدية، فهو أن أصل الملكة مخلوق من قبل الله تعالى، أما استخدامها لطاعة الله أو عصيانه، فمن العبد وإنما يكون من الله في هذه الحال التوفيق أو الخذلان، والتوفيق عندهم هو التيسير والنصرة[1].

ثم إن الماتريديين يعبرون عن هذا السر الذي هو بالاتفاق مناط التكليف، بالاختيار، أما الإمام الأشعري وأتباعه فيعبرون عنه بالكسب. قال ابن السبكي:

«والذي تحرر لنا أن الاختيار والكسب عبارتان عن معيّن واحد، ولكنّ الأشعري آثر لفظ الكسب لكونه منطوق القرآن، والقوم آثروا لفظ الاختيار لما فيه من إشعار قدرة للعبد»[2].

فهذه من أهم المسائل التي شاع فيها الخلاف بين الأشاعرة والماتريدية. وقد رأيتَ أن الباحث لا يكاد يستبين أثراً لخلاف جوهري فيها، وإنما هي صياغات وتعابير مختلفة إلى نهايات وحقائق واحدة لا خلاف فيها.

ولعلنا استوفينا بهذا، القدرَ الكافي من التعريف بهذين الإمامين وأثرهما في الدفاع عن الحق الذي التقى عليه جمهور المسلمين منذ عصر الصحابة إلى هذا اليوم.

ولعله قد تجلى لك أن الأشعري لم يكن صاحب مذهب ابتدعه، كما أن

---

(١) نظم الفرائد: ٢٤.

(٢) طبقات الشافعية: ٣/٣٨٦.

الماتريدي لم يكن هو الآخر صاحب رأي أو مذهب نادى به، وإنما تجرد كل منهما للذود عن عقيدة أهل السنة والجماعة بالمناهج العقلية والحجج المنطقية التي لقيت رواجاً في ذلك العصر، من جراء ترويج المعتزلة لها. فنسب هذا الحق إليهما وانتشر لهما تلامذة سلكوا مسلكهما في الذود عن الحق وتبيينه بأدلة المنقول والمعقول.

هذا وينبغي أن تعلم أن بعضاً من متطرفي الحنابلة وغيرهم، ظهروا فيما بعد، فخالفوا قبل كل شيء أصول مذهبهم، وخرجوا عن إجماع جمهرة المسلمين أهل السنة والجماعة، لاسيما في آيات الصفات، ثم إنهم ناصبوا أبا الحسن الأشعري العداء، ونسبوا إليه آراء لم يقلها واخترعوا على لسانه أقاويل ثبت في كتبه القول بنقيضها، كالذي ذكره في تفسير آيات الصفات في كتابه الإبانة، وسموا أنفسهم ترويجاً لشبهاتهم وحشويتهم بـ (السَّلَفية).

وخير من كتب في الرد عليهم والدفاع عن الإمام الأشعري؛ ابن عساكر رحمه الله وذلك في كتابه (تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام الأشعري). ومن أفضل ما ظهر أخيراً في الموضوع نفسه كتاب (براءة الأشعريين) فهو كتاب جليل أخرجه مؤلفه رحمه الله تعالى في مجلدين.

والله نسأل أن يجمعنا على الحق، وأن يوفقنا للدعوة والذود عنه إنه خير مأمول.

خاتمة لهذا الباب

فرقٌ خارجةٌ عن الملَّة

ذكرنا فيما مضى بعضاً من أهم المذاهب الإسلامية التي نشأت بعد عصر الصحابة، ثم أوضحنا كيف أنها ذابت في تضاعيف الحق الذي اجتمع عليه أهل السنة والجماعة، بعد أن قضى الله لإبرازه والدفاع عنه كلاًّ من الإمامين أبي الحسن الأشعري وأبي منصور الماتريدي.

ولعل من الخير أن نلفت نظر القارئ، قبل إنهاء هذا الباب، إلى أن ثمة فرقاً أخرى تكونت داخل الحظيرة الإسلامية، ولكنها اشتطت حتى خلعت عنها رداءه وفرّعت لنفسها منه ديناً جديداً، أو تحللت منه ثم لم ترتبط بعد ذلك بأي دين.

نذكر من هذه الفرق البابية التي تسمى أيضاً بالبهائية، والقاديانية، نموذجين لهذا النوع من الفرق، ونذكر الماسونية نموذجاً لجماعات تلاقت على التحلل من ربقة الإسلام بشكل أو بآخر، دون أن تخضع بعد ذلك لسلطان أي دين غيره.

ولنعرف لك كلاًّ منها بتعريف وجيز، يبصرك بنموذج هذه الفرق، وكيفية مروقها من الإسلام، على ألاّ يقصينا ذلك عما نحن بصدده، من بحوث العقيدة الإسلامية والفكر المعاصر.

البابيَّة والبهائيَّة

نسبة إلى الميرزا علي محمَّد الشّيرازيّ المولود في عام ١٨٢٤م، والذي سمى نفسه بالباب، إشارة إلى أنه الباب الوحيد الذي يمكن أن ينفذ منه الطالب ليصل إلى

حضرة الله. كما سمى نفسه بالنقطة أي منبثق الحق وروح الله ومظهر قدرته وجلاله.

كان هذا الرجل في بادئ أمره من المسلمين المتعبدين وكان يتمتع بأخلاق فاضلة وشمائل جذابة، ولكنه ما لبث أن اشتغل بتأسيس دين جديد مخالف للإسلام، وراح يستنبطه بالتأويلات الباطلة والباطنية من كتاب الله تعالى، فانضم إليه رجال كانوا من أتباعه وانتشر له اسم في بلاد فارس، وقامت معارك بين جماعته وحكومة طهران، واستمرت المعارك مدة من الزمن، دون أن يكون لها من تأثير في القضاء عليهم.

وخلاصة العقيدة التي يتمسك بها البابية هي: القول بأن مجموع الكائنات المتنوعة هو الله ذاته، وإذا قامت القيامة رجع الخلق إلى الله وفنوا في وحدته التي صدروا عنها، فيتلاشى إذ ذاك كل شيء إلا الطبيعة الإلهية. والقول بأن النبوة والوحي ليسا إلا من بعض مظاهر الاتحاد بين الله وعباده، وكل منهما في نظرهم باقيان مستمران وليس (الباب) إلا مظهراً لاستمرار الوحي والرسالة، فهو عندهم من أكبر الأنبياء الذين يؤكدون بأن زمن الوحي مستمر ولم ينقض بعد، وليس في عقيدة البابية جنة ولا نار، بل الأتقياء والأخيار يرجعون إلى الله ويحيون في ذاته، أما الأشرار فيفنون وينتهون. وللصلاة عند البابية مظهرها الخاص بهم، ويكتفى منها بمرة واحدة في كل شهر.

ولما ظهر المدعو بهاء الله الذي نادى على نفسه خليفة للباب نسبت هذه الديانة إليه فسميت بالبهائية، وأعلن أتباعه بأن دين الله لم يتم إلا بظهور البهاء الذي هو أحد رسل الله في اعتقادهم.

وإنما تقوم ديانتهم وأفكارهم الخرافية الكافرة على التفسيرات والاستنباطات الباطنية والإشارية التي لا تعتمد على منطق ولا لغة ولا مقياس من مقاييس النظر

والعلم[1].

القـاديانيَّـــة

نسبة إلى غلام أحمـد القاديـاني (١٢٥٢- ١٣٢٦ هـ). قـام يعلـن بـأن الله إنما وعد بظهور مثيل عيسى في الأرض لا بظهور عيسـى نفسـه، وبأنـه هـو ذلـك المثيـل الذي وعد الله بظهوره فهو المسيح الموعود. ثم راح يزعم أنه نـبي ورسـول مؤيـد مـن الله، وصاغ لنفسه وحياً كـالقرآن، وابـتنى لنفسـه مسـجداً في بلـدة (قاديـان) وسمـاه المسجد الأقصى. وسمى بلدته مكة المسيح، وسمى أزواجـه أمهـات المؤمنين، وراح يجمع من حوله الشيعة والأتباع بكل وسيلة، والاستعمار البريطـاني مـن ورائـه يمـده ويغذيه بشكل مكشوف وملحوظ. ثم أعلن أن ظـواهر الكتـاب والسـنة مصـروفة إلى الاستعارات والتأويل المختلفة، وأخذ يحرف كما يشاء في شـرع الله وحكمـه، وكـان من جملة هديه في ذلك أن الجهاد منسوخ ولا سيما مـع الإنكليـز، وذلـك لموقفهـم النبيل من المسلمين ولحسن رعايتهم لهم.

ولم يزل على حاله تلك يدّعي النبوة ويكذب على الله وأنبيائه، ويضـع نفسـه للناس موضع عيسى بن مريم عليه السـلام، إلى أن رمـاه قضـاء الله تعـالى بالهيضـة (داء الكوليرا) ومـات في بيت الخـلاء سـاقطاً علـى وجهـه، فكـان موتـه عـبرة لأُولي الأبصار[2].

---

(١) انظر دائرة المعارف لفريد وجدي: ٢/٥ و ٢/٣٧٥.

(٢) انظر كتاب (التصريح بما تواتر من نزول المسيح)، وما كتبه في هذا الصَّدد محقّقه الأستاذُ الجليلُ عبدُ الفتاح أبو غدة نقلاً عن الإمام الكَشميريِّ في مقدِّمة كتاب (الإسلام في حياة عيسى عليه السلام) ٣٨- ٤٢.

الحمد لله رب العالمين





le shintoïsme	الشنتوية
religion polythéiste	دين شركي
Hindous	الهندوس
Reincarnation	إعادة التجسد، التناسخ
Divinité	آلهة
la paix	السلم
religion monothéiste	دين توحيدي
la sagesse	الحكمة
Rites	طقوس
texte sacré	نصوص مقدسة
Fondateur	مؤسس
Ancêtres	أسلاف
une philosophie	فلسفة
la piété	التقوى
la bonté	الطيبة
l'humanité	الإنسانية
les vertus	الفضائل
l'être humain	الكائن الإنساني
l'éducation morale	التربية الأخلاقية

الحمد لله رب العالمين

l'autorité supreme	السلطة العليا
l'histoire	التاريخ
le pape	بابا الكنيسة
l'alimentation	الطعام
les chrétiens	المسيحيون
la puberté	البلوغ
mariage	زواج
la mort	الموت
une communauté	جماعة/أمة
les juifs	اليهود
Sacré	مقدس
les fidèles	المؤمنون
une mosquée	مسجد
moines bouddhistes	رهبان بوذيون
un temple	معبد
l'interdiction	تحريم
l'habillement	اللباس
la vie sociale	الحياة الاجتماعية
rites les	الشعائر
Le Messie	المسيح المنتظر
religions orientales	أديان شرقية
le confucianisme	الكونفوشية
le bouddhisme	البوذية
l'hindouisme	الهندوسية

l'Esprit saint	روح القدس
la Trinité	التثليث
le Christ	المسيح
Les trois entités	الأقانيم الثلاثة
une religion monothéiste	دين توحيدي
l'humanité	الإنسانية
la Bible	الكتاب المقدس
tout-puissant	قدير
le Dieu unique	الإله الواحد
La Torah	التوراة
la création du monde	خلق العالم
la foi	الإيمان
Secte	طائفة
les croyants	المؤمنون
Liberté	حرية
la Bible chrétienne	الكتاب المقدس المسيحي
Mythologie	أسطورة
le créateur de l'Univers	خالق الكون
Nouveau Testament	العهد الجديد
l'Apocalypse	الأسفار المنحولة
les Épîtres	الرسائل الكاثوليكية
la Bible hébraïque	الكتاب المقدس العبراني
Synagogue	الكنيس اليهودي
Prêtres	الكهنة

Orient	شرق
Église	كنيسة
un rabbin	كاهن يهودي/ ربائي
Le judaïsme	اليهودية
Le livre sacré	الكتاب المقدس
Le lieu de culte	مكان العبادة
la société	المجتمع
Dogmes	عقائد مذهبية
les laics	العلمانيون
Empreinte	طابع/صبغة
un investissement	استثمار
l'art juif	الفن اليهودي
Coutumes	عادات
le sauveur	المخلّص
les rituels de la religion	شعائر الدين
les enseignements de Jésus-Christ	تعاليم المسيح عيسى
Disciples	تلاميذ
la tradition	التراث/التقاليد
Crucifixion	الصلب
l'archange Gabriel	رئيس الملائكة جبريل
les Apôtres	الرسل/ الحواريون
l'Ancien Testament	العهد القديم
les Évangiles	الأناجيل
la Résurrection	القيامة/ النشور

قائمة بأهم المصطلحات والمفاهيم الدينية

Religion	دين
Croyance	إيمان
le témoignage	شاهد
Préhistoire	ما قبل التاريخ
La notion	مفهوم
les évêques	الأساقفة
Dioceses	مدن أسقفية
l'évêque	أسقف
le Grand Schisme	الانشقاق العظيم
le pèlerinage	الحج
la prière	الصلاة
le Dieu	الإله
le culte	العبادة
communauté de fidèles	جماعة المؤمنين
Protestants	البروتستانت
un sentiment	شعور
les orthodoxies	الأرثوذكس
l'initiative	مبادرة
Le catholicisme	الكاثوليكية
Église anglicane	الكنيسة الأنجليكانية
la Réforme	الإصلاح الديني
le clergé	هيئة كهنوتية
l'art bouddhique	الفن البوذي

(croyance en plusieurs dieux) et animiste (croyance dans les forces de la nature). Le shintoïsme, qui n'a pas de fondateur ni de texte sacré, se définit au travers d'un ensemble de rites et de pratiques. Il est exclusivement pratiqué au Japon.

Aujourd'hui, il y a environ 2,5 millions de shintoïstes au Japon.

QU'EST-CE QUE LE CONFUCIANISME? الكونفوشية

Apparu il y a 2 500 ans environ, le confucianisme est à la fois une religion et une philosophie. Son fondateur est Confucius, un sage chinois.

Le confucianisme recherche l'épanouissement de l'être humain par l'éducation morale et la mise en place d'une société hiérarchique et ordonnée. En effet, selon Confucius, tout individu doit cultiver les vertus correspondant à sa place dans la société : par exemple, l'humanité pour un prince et le respect pour son vassal ; la bonté pour un père et la piété pour un fils, etc.

Aujourd'hui, il y a environ 5 millions de confucianistes (ou confucéens) en Chine.

pendant la vie), le nombre de fois nécessaires pour libérer l'âme (et ainsi interrompre le cycle des réincarnations).

Aujourd'hui, il y a environ 750 millions d'hindous dans le monde. La communauté la plus importante vit en Inde.

QU'EST-CE QUE LE BOUDDHISME ? البوذية

Fondé par Bouddha il y a 2 500 ans environ, le bouddhisme est la religion des bouddhistes. Bouddha (un nom qui signifie « l'Éveillé ») est plus un sage qu'un dieu ; pourtant, le bouddhisme est défini comme une religion monothéiste.

Le bouddhisme est héritier de l'hindouisme. Comme les hindous, les bouddhistes croient en la réincarnation sous de multiples formes. Mais à ce principe, Bouddha a ajouté que l'homme peut atteindre la sagesse et la paix de son âme (appelée le nirvana) en méditant et en renonçant aux biens matériels.

Aujourd'hui, il y a environ 350 millions de bouddhistes dans le monde. Les communautés les plus importantes vivent au Tibet, au Japon, en Thaïlande et en Birmanie.

QU'EST-CE QUE LE SHINTOÏSME ? الشنتوية

Également appelé shinto (qui signifie « voie des dieux »), le shintoïsme est la religion des shintoïstes. Il combine le culte des ancêtres et celui des esprits de la nature : c'est donc une religion polythéiste

الأديان الشرقية Religions Orientales

On appelle « religions orientales » les religions qui se sont développées dans les pays d'Orient et d'Extrême-Orient. Les religions orientales les plus importantes sont l'hindouisme, le bouddhisme, le shintoïsme, et le confucianisme; cependant, il en existe d'autres. Aujourd'hui ces religions peuvent être pratiquées dans le monde entier, mais les pays où elles ont le plus de fidèles demeurent les pays d'Orient comme l'Iran l'Inde, la Chine et le Japon.

QU'EST-CE QUE L'HINDOUISME ? الهندوسية

Apparu il y a 4 000 ans environ, l'hindouisme est la religion des hindous. Il existe des milliers de dieux hindous : c'est une religion polythéiste. Dans ce panthéon, les trois divinités majeures sont Brahma (le créateur de l'Univers), Vishnou (le protecteur du monde) et Shiva (à la fois force de destruction et de fertilité). Les textes sacrés de l'hindouisme sont les *Veda*.

Les hindous croient en la réincarnation, c'est-à-dire en une renaissance perpétuelle de l'âme sous de multiples formes (humaines ou animales). En effet, dans l'hindouisme, le corps est une enveloppe provisoire de l'être humain. Après la mort, son âme se réincarne dans un autre corps (en fonction des actions, bonnes ou mauvaises, réalisées

Le protestantisme:

Les protestants sont d'anciens catholiques qui ont voulu réformer l'Église au xvie siècle ; cet événement s'appelle la Réforme. Il existe de nombreuses Églises protestantes, notamment les luthériens (la plus ancienne Église protestante, fondé par Martin Luther) et les calvinistes (un courant fondé par Jean Calvin).

Les protestants reconnaissent la Bible comme seule autorité. Ils n'ont donc pas de clergé pour intercéder en leur faveur auprès de Dieu (comme dans la hiérarchie catholique). Cependant, certains fidèles aident la communauté dans la prière au temple ; ce sont les pasteurs, qui peuvent être des hommes ou des femmes.

L'anglicanisme:

L'anglicanisme (ou Église anglicane) est né en Angleterre au xvie siècle, sur l'initiative du roi Henri VIII. C'est une Église de confession catholique qui refuse l'autorité du pape. Comme elle a subi l'influence de la Réforme, elle mêle aujourd'hui les doctrines catholiques et protestantes. Les prêtres peuvent être des hommes ou des femmes, tandis que l'Église catholique romaine refuse la prêtrise féminine.

d'Occident conduisent l'Église chrétienne à se scinder en deux. Cet événement, qui s'appelle le Grand Schisme, confirme la séparation entre les chrétiens d'Orient et d'Occident, c'est-à-dire entre les orthodoxes (qui conservent le système des patriarcats) et les catholiques (dont l'ancien patriarche de Rome devient le pape).

QUELLES SONT LES PRINCIPALES BRANCHES DU CHRISTIANISME?

Les chrétiens voient tous en Jésus-Christ le messie, mais ils se divisent au cours de l'histoire en de nombreux groupes donc les principaux sont les catholiques, les orthodoxes et les protestants.

Le catholicisme:

Séparés des chrétiens d'Orient depuis 1054, les catholiques reconnaissent l'autorité suprême de l'évêque de Rome, le pape, installé au Vatican (le plus petit État du monde, situé à l'intérieur de Rome, la capitale de l'Italie). Ils pratiquent leur religion dans des églises, où ils célèbrent leur culte sous la direction de prêtres, qui assurent le lien entre Dieu et la communauté de fidèles.

L'orthodoxie:

Séparés des chrétiens d'Occident depuis 1054, les orthodoxes ont pour chefs des patriarches. Ils pratiquent également leur religion dans des églises, guidés dans leur culte par des popes. L'Église orthodoxe est principalement installée en Russie, mais il existe d'autres Églises chrétiennes en Orient.

annoncée à Marie (qui est vierge) par l'archange Gabriel.

Il naît à Bethléem en Judée, et grandit à Nazareth en Galilée. Adulte, il est baptisé par son cousin Jean-Baptiste, et commence à enseigner la parole de Dieu. Pour les chrétiens, il est le fils de Dieu. Ses plus fervents disciples sont les Apôtres. Jésus meurt sur la croix (c'est la Crucifixion). Selon la tradition, il réapparaît plus tard à ses disciples (c'est la Résurrection biblique) ; ceux-ci sont les tout premiers chrétiens.

Pour les chrétiens, Jésus-Christ est donc le messie, le sauveur annoncé dans l'Ancien Testament (les juifs considèrent pour leur part que le messie n'est pas encore venu). C'est pour cette raison qu'on l'appelle le Christ (ce mot vient du grec khristos, qui désigne le messie dans la traduction grecque de l'Ancien Testament). Jésus-Christ est l'une des trois entités de la Trinité, les deux autres étant Dieu le Père et l'Esprit saint. Par sa mort, il a racheté le salut du monde.

QUI SONT LES PREMIERS CHRÉTIENS?

La première Église chrétienne est fondée par les disciples de Jésus-Christ, au ier siècle de notre ère. Ces chrétiens ont pour chefs religieux cinq patriarches, qui sont les évêques des cinq diocèses principaux : Rome, Alexandrie, Antioche, Constantinople et Jérusalem. Mais très vite, l'évêque de Rome (le pape) affirme sa supériorité sur les autres patriarches.

En 1054, différentes querelles entre chrétiens d'Orient et

dieu). Le livre sacré des chrétiens est la Bible chrétienne. Le lieu saint du christianisme est le Saint-Sépulcre à Jérusalem, qui est le lieu présumé du Calvaire où Jésus-Christ a été crucifié. Le jour saint des chrétiens est le dimanche.

Aujourd'hui, il y a environ 1,7 milliard de chrétiens qui vivent dans le monde entier. Ils se répartissent en plusieurs branches dont les plus importantes sont la branche catholique, la branche orthodoxe et la branche protestante.

QUI EST LE DIEU DES CHRÉTIENS?

Pour les chrétiens, le créateur de l'Univers est un dieu unique qu'ils appellent Dieu. Il s'est révélé pour la première fois à Abraham (personnage biblique, également reconnu par les juifs et les musulmans).

QU'EST-CE QUE LA BIBLE?

Livre sacré des chrétiens, la Bible est composée de l'Ancien Testament et du Nouveau Testament.

– L'Ancien Testament correspond à la Bible hébraïque des juifs. Il relate le récit de la création du monde et l'histoire des premiers Hébreux.

– Le Nouveau Testament contient plusieurs livres écrits plus tardivement (les quatre Évangiles, les Actes des Apôtres, les Épîtres et l'Apocalypse). Il raconte notamment la vie de Jésus-Christ.

QUI EST JÉSUS-CHRIST?

Fils de Marie, Jésus est juif. Selon les Évangiles, sa naissance est

sont des Hébreux : Abraham, son fils Isaac et son petit-fils Jacob. Ils sont appelés les patriarches. Yahvé s'est révélé à eux comme étant le Dieu unique et tout-puissant.

Jacob a eu douze fils qui sont devenus les chefs des douze tribus de l'Israël antique.

QUE CONTIENT LA BIBLE JUIVE?

Livre sacré des juifs, la Bible juive (que les chrétiens ont incluse dans leurs textes sacrés sous le nom d'Ancien Testament) est composée de 39 livres qui se répartissent en trois parties : la Torah (ou la Loi), les Nebiim (ou les Livres des Prophètes) et les Ketubim (ou les Écrits).

La Torah est composée des cinq premiers livres de la Bible ; elle est particulièrement sacrée pour les juifs. Elle raconte notamment la création du monde, la vie des patriarches et l'histoire des Hébreux (comme l'Alliance d'Abraham puis de Moïse avec Dieu). Elle explique aussi les rituels de la religion. La Torah annonce enfin la venue d'un messie qui sauvera l'humanité. Des commentaires sur la Torah sont réunis dans le Talmud.

Le christianisme المسيحية

Le christianisme est la religion des chrétiens. Il a été fondé il y a 2 000 ans environ sur les enseignements de Jésus-Christ.

QU'EST-CE QUE LE CHRISTIANISME?

Le christianisme est une religion monothéiste (croyance en un seul

qui restent dans la société « classique » tout en pratiquant leur religion (les laïcs).

Les religions marquent enfin de leur empreinte les sociétés dans lesquelles elles naissent et se développent. Ainsi, les musiciens, les peintres, les sculpteurs, les architectes et les écrivains mettent souvent leur art au service de la religion. On parle alors d'art religieux : l'art juif, l'art chrétien, l'art musulman, l'art bouddhique, etc.

Le judaïsme اليهودية

Le judaïsme est la religion des juifs. Elle a été fondée il y a 4 000 ans environ (vers 2000 avant J.-C.).

QU'EST-CE QUE LE JUDAÏSME ?

Le judaïsme est la plus ancienne religion monothéiste (croyance en un seul dieu). Le livre sacré des juifs, est la Bible juive. Le jour saint est le samedi.

Le lieu de culte des juifs est la synagogue ; la prière est présidée par un rabbin, qui est également chargé d'enseigner la religion aux fidèles.

Aujourd'hui, il y a environ 15 millions de juifs répartis dans le monde. Les deux plus importantes communautés se situent en" Israël" et dans la ville de New York.

QUI SONT LES FONDATEURS DU JUDAÏSME?

Les fondateurs du judaïsme sont trois personnages de la Bible. Ce

pratiques codifiées, qui peuvent être individuelles ou collectives. Par exemple, le culte (c'est-à-dire un hommage fait au dieu) peut être rendu par la prière et le pèlerinage. Les lieux de culte peuvent être privatifs (prier chez soi), mais ils sont surtout collectifs : les fidèles se rassemblent dans une synagogue (pour les juifs), dans une mosquée (pour les musulmans), dans une église (pour les catholiques et les orthodoxes) ou dans un temple (pour les protestants). Dans certaines religions, ces lieux de cultes sont sacrés.

D'autres pratiques de la religion s'inscrivent directement dans la vie sociale : l'habillement (par exemple la kippa qui coiffe la tête des hommes juifs, ou la robe orange que portent les moines bouddhistes), l'alimentation (l'interdiction de manger du porc chez les musulmans, ou le repas sans viande le vendredi chez les chrétiens), mais également les grandes étapes de la vie (célébration de la naissance, de la puberté ou du mariage, funérailles après la mort).

Une religion crée une communauté:

La communauté qui se forme autour d'une religion construit ses propres rites, codes, dogmes et coutumes. Une religion est plus ou moins organisée, plus ou moins hiérarchisée.

Chaque fidèle d'une religion peut avoir un investissement différent dans sa croyance. On différencie les croyants qui entrent en religion pour donner leur vie à leur dieu (les clercs, qui constituent le clergé) de ceux

بسم الله الرحمن الرحيم

مفهوم الدين Religion

La notion de religion est apparue lorsque, à la préhistoire, les hommes de Neandertal ont commencé à enterrer leurs morts ; ces premières tombeaux sont le témoignage de la croyance en un au-delà après la mort.

COMMENT DÉFINIR UNE RELIGION?

Une religion est une croyance:

Ainsi, une religion est la croyance, partagée par une communauté de fidèles, en des forces supérieures à l'homme. Cette croyance est intime, personnelle : c'est un sentiment intérieur que l'on appelle la foi.

Une religion est une croyance pratiquée. Lorsqu'elle est oubliée et n'est plus pratiquée, on parle plutôt de mythologie : c'est le cas par exemple pour les religions anciennes des Égyptiens, des Grecs et des Romains de l'Antiquité.

Lorsque les croyants sont embrigadés dans une croyance jusqu'à perdre tout ou partie de leur liberté, on parle de secte.

Une religion est une pratique:

La croyance en une religion demande l'observance (le respect) de

prehistoric times	أزمنة ما قبل التاريخ
Prayer	صلاة
moral precepts	مبادئ أخلاقية
Experience	تجربة
Confucianism	كونفوشية
Guidebook	كتاب هداية
Hindu tradition	تراث هندوسي
Consciousness	ضمير
Dialogue	حوار
moral truth	حقيقة أخلاقية
Buddhism	بوذية
monastic movement	حركة رهبانية
Virtue	فضيلة
Ablutionary	وضوء، طهارة بالماء
Shrine	ضريح، مقام
Priest	كاهن
Education	تربية
family bonds	روابط أسرية
traditional beliefs	عقائد تراثية

الحمد لله رب العالمين

missionary journeys	رحلات تبشيرية
Apologetics	علم الدفاع عن العقائد
Skeptical	شكّي
Mishnah	التوراة الشفهية
Karaites	القراؤون
Rites	شعائر
Evil Spirit	الروح الشريرة
Dualism	ثنوية
Righteousness	الرشد
Zoroastrianism	الزرادشتية
Savior	المنقذ
Hell	جهنم
Immortality	الخلود
Hinduism	الهندوسية
divine beings	الكائنات الإلهية
Demon	الشيطان
Beliefs	عقائد
basic rituals	طقوس أساسية
Minority	أقلية
Enlightenment	تنوير
the authority of the priesthood	سلطة الكهنة
Shinto	الشنتوية
Purification	تطهير

the Roman Catholic Church	الكنيسة الرومانية الكاثوليكية
Major religion	دين رئيس
Christianity	المسيحية
the Eastern Orthodox church	الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية
Council of Nicea	مجمع نيقية ٣٢٥م
Bishop	أسقف
Arianism	الآريوسية
the Middle Ages	العصور الوسطى
Renaissance	عصر النهضة
miracle-working	عمل إعجازي
icon	صورة مقدسة
religious hypocrites	النفاق الديني
independent churches	كنائس مستقلة
the Protestant churches	الكنائس البروتستانتية
apostolic succession	الخلافة الرسولية/ تنظيم الرتب الكنسية
awaited Messiah	المسيح المنتظر
Christian teachings	التعاليم المسيحية
Interpretation	التأويل
the Council of Chalcedon	مجمع خلقيدونية ٤٥١م
Persecution	اضطهاد
Polemics	علم الجدل الديني
Christendom	العالم المسيحي
Opposition	معارضة

Values	قيم
indulgences	صكوك الغفران
Corruption	فساد
Excommunication	حُرم كنسي
legal-minded approach	مقاربة ذات توجه قانوني
Abstract	تجريد
Pragmatic	عملي
Easter	عيد الفصح المسيحي
Gospel the	الإنجيل
Baptism	التعميد
secular education	التربية العلمانية
political freedom	الحرية السياسية
civil war	الحرب الأهلية
reforming movement	حركة إصلاحية
the Reformation	الإصلاح الديني
Nationalism	القومية
Justification	التسويغ
Doctrine	مذهب
Reformer	مصلح
cult of the saints	عبادة القديسين
Holy Spirit	روح القدس
Vision	رؤية
Crucifixion	الصلب

Taxation	ضريبة
fanatical resistance	مقاومة متعصبة
The Zealots	المتحمسون، الغيورون
Pagan	وثني
Angels	ملائكة
European civilization	الحضارة الأوربية
Orthodox Jews	اليهود الأرثوذكس/المحافظون
strict interpretation	تأويل حرفي
Haskalah	حركة الإصلاح اليهودية
traditional garb	اللباس التقليدي
extremist group	مجموعة متطرفة
Slavery	عبودية
Jewish Enlightenment	التنوير اليهودي
European culture	الثقافة الأوربية
school curriculum	منهاج مدرسي
traditional Jewish education	التربية اليهودية التقليدية
Jewish sect	طائفة يهودية
Segregation	تمييز عنصري
Cooperation	تعاون
Homiletical	وعظي
intellectual movement	حركة فكرية
Inspiration	إلهام
traditional Talmudic studies	دراسات تلمودية تقليدية

Midrash	تفسير الكتاب المقدس اليهودي
Gemera	شرح التوراة الشفهية
traditional interpretation	التأويل التقليدي
Resurrection	قيامة/نشور
Angels	ملائكة
Spirits	أرواح
Pharisees	الفريسيون
religious-political faction	فصيل ديني سياسي
aristocratic party	حزب أرستوقراطي
The Jewish groups	الفرق اليهودية
foreign influences	تأثير أجنبي
Commentary	تفسير
Talmud	تلمود
ideal social order	نظام اجتماعي مثالي
rabbinic Judaism	اليهودية الحاخامية
the Pentateuch	أسفار موسى الخمسة
the written Torah	التوراة المكتوبة
Jewish sages	حكماء اليهود
the Temple	المعبد اليهودي
Sadducees	الصدوقيون
Ethical	أخلاقي
Mystical	صوفي
Census	إحصاء

The Jewish Bible	الكتاب المقدس اليهودي
Worldview	رؤية العالم
Halakhah	الشريعة اليهودية
Sanctification	التقديس
Torah	التوراة
religious traditions	التراث الديني
universal context	سياق عالمي
special relationship	علاقة خاصة
kingdom of priests	مملكة الكهنة
divine laws	الشرائع الإلهية
the human race	العرق البشري
contractual agreement	الاتفاق التعاقدي
Basic doctrines	مذاهب أساسية
the cosmos	الكون
Covenant	ميثاق
Humanity	الإنسانية
the divine will	الإرادة الإلهية
Revelation	وحي
transcendent God	إله متعال
Monotheism	التوحيد
major concept	مفهوم رئيس
Exegetical	تفسيري
Targums	ترجمات الكتاب المقدس اليهودي

قائمة بأهم المفاهيم والتراكيب الاصطلاحية

religious institutions	مؤسسات دينية
Sacred	مقدس
Absolute	مطلق
Fate	مصير
moral authority	سلطة أخلاقية
Believers	مؤمنون
Creeds	عقائد مذهبية
religious movement	حركة دينية
Unitarianism	المذهب التوحيدي
Unitarian Christianity	المسيحية الموحِّدة
religious toleration	التسامح الديني
rationalist movement	حركة عقلية
Worship	عبادة
prayer	صلاة
meditation	تأمل
the Apocrypha	الأسفار المنحولة
deuterocanonical books	الأسفار القانونية
THE BIBLE	الكتاب المقدس
The Christian Bible	الكتاب المقدس المسيحي
The New Testament	العهد الجديد
The Old Testament	العهد القديم

At the present time it comprises 13 major and numerous minor sects. The principal sects are divided into 5 main groups: those that continue with little modification the traditions of ancient Shinto; those that emphasize adherence to Confucian ethics; those that are predominantly devoted to faith healing; those that practice the worship of mountains; and those that are primarily devoted to purification rites. In the mid-1990s 110 million Japanese participated in the various Shinto sects, but those who professed Shinto as their sole or major religion numbered only 3.4 million. The Shinto sects have approximately 90,000 priests and about 81,000 shrines.

the Scholars." Confucianism advocates reforming government, so that it works for the benefit of the people, and cultivating virtue, especially in government officials. It encourages respect for elders and legitimate authority figures, for traditional beliefs, for ritual practices, for education, and for close family bonds. Confucianism began in China, but it spread from there to Korea, Japan, and Vietnam.

The major development of the late 20th century is a tendency to interpret Confucianism in the light of Western ethical systems that stress virtue.

Shintoism الشنتوية

Shinto (Japanese, "the way of the gods"): Japanese cult and religion, originating in prehistoric times, and occupying an important national position for long periods in the history of Japan, particularly in recent times. During its early period, the body of religious belief and practice called Shinto was without a name and had no fixed dogma, moral precepts, or sacred writings. Worship centered on a vast pantheon of spirits, or kami, mainly divinities personifying aspects of the natural world, such as the sky, the earth, heavenly bodies, and storms. Rites included prayers of thanksgiving; offerings of valuables, such as swords and armor and, especially, cloth; and ablutionary purification from crime and defilement.

Buddha, or Enlightened One.

Originating as a monastic movement within the dominant Brahman tradition of the day, Buddhism quickly developed in a distinctive direction. The Buddha not only rejected significant aspects of Hindu philosophy, but also challenged the authority of the priesthood, denied the validity of the Vedic scriptures, and rejected the sacrificial cult based on them. Moreover, he opened his movement to members of all castes, denying that a person's spiritual worth is a matter of birth.

Buddhism has been significant not only in India but also in Sri Lanka, Thailand, Cambodia, Myanmar, Laos, China, Japan, Taiwan, Tibet, Nepal, Mongolia, Korea, and Vietnam. The number of Buddhists worldwide has been estimated at between 150 and 300 million.

One of the lasting strengths of Buddhism has been its ability to adapt to changing conditions and to a variety of cultures. It is philosophically opposed to the authority of the priesthood, whether of the Western or the Marxist-Communist variety.

Confucianism الكونفوشية

Confucianism: an intellectual, political, and religious tradition, or school of thought, that developed a distinct identity in the 5th century bc from the teachings of Chinese philosopher Confucius. In Chinese the name for this tradition is Rujia (also spelled Ju-chia), meaning "School of

Hindu sages and seers, serves primarily as a guidebook. But ultimately truth comes to us through direct consciousness of the divine or the ultimate reality. In other religions this ultimate reality is known as God. Hindus refer to it by many names, but the most common name is Brahman.

In the Hindu tradition, by contrast, there is no single revelation by which people may achieve knowledge of the divine or lead a life backed by religious law. The Hindu tradition acknowledges that there are many paths by which people may seek and experience religious understanding and direction. It also claims that every individual has the potential to achieve enlightenment.

The Hindu community today is found primarily in India and neighboring Nepal, and in Bali in the Indonesian archipelago. Substantial Hindu communities are present in Sri Lanka and Bangladesh, and South Africa. Scattered Hindu communities are found in most parts of the Western world. Hindus today number nearly 900 million, including about 20 million who live outside India, making them the third largest religious community in the world, after Christians and Muslims.

Buddhism البوذية

Buddhism: a major world religion, founded in northeastern India and based on the teachings of Siddhartha Gautama, who is known as the

Mazda, the holy immortals, and other divine beings will annihilate the demons and force Angra Mainyu to scuttle back into hell, which will then be sealed.

A minority of Zoroastrians grouped now together to practice their religion in central and eastern Iran at cities such as Yazd and Kermān. Others migrated; some went to the west coast of India where they became known as Parsis (Persians). In addition to the larger communities in India and Iran, today there are about 20,000 Zoroastrians in Canada and the United States. In these communities the religion's principles are still taught, basic rituals are practiced, and clerical and lay organizations remain active.

Hinduism الهندوسية

Hinduism: a religious tradition of Indian origin, comprising the beliefs and practices of Hindus.

The Hindu tradition encourages Hindus to seek spiritual and moral truth wherever it might be found, while acknowledging that no creed can contain such truth in its fullness and that each individual must realize this truth through his or her own systematic effort. Our experience, our reason, and our dialogue with others—especially with enlightened individuals—provide various means of testing our understanding of spiritual and moral truth. And Hindu scripture, based on the insights of

الأديان الشرقية

الزرادشتية Zoroastrianism

Zoroastrianism: religion that arose from the teachings of the devotional poet Zoroaster, who is regarded as the faith's founding prophet. Scholars believe that Zoroaster lived sometime between 1400 and 1200 bc. The Zoroastrian scripture, called the Avesta, includes poems attributed to Zoroaster.

In his writings Zoroaster speaks of an ethical and moral opposition between *Asha* ("order"), which he equates with righteousness, and *Drug* ("confusion"), which he equates with evil and the lie. Zoroaster personifies this dualism in a pair of spirits called Ahura Mazda ("Wise Lord,"), and Angra Mainyu ("Evil Spirit," known as Ahriman).

Zoroastrianism preaches that when someone dies his or her soul undergoes individual judgment based on actions while alive. If the soul's good deeds are greater than its evil deeds, it enters paradise. If the soul's evil deeds outweigh the good done while alive, it is cast into hell to await the day of universal judgment.

Close to the end of time a savior will resurrect the dead, Zoroastrianism claims. Ahura Mazda will descend to earth with the other good spirits. Each sinner, having already suffered in hell after death, will be purified. Thereafter, immortality will be granted to all humans. Ahura

figures as John biddle, Isaak Newton and John locke.

Unitarianism: A religious movement connected with Christianity. Unitarians are those who reject the Trinitarian understanding of God. Although there are many antecedents, the specific point of origin for the movement is usually taken to be the works of Michael Servetus (1511-1553): "On the erroneous understanding of the Trinity" and "the restoration of Christianity", and the works of the Socinians. The first unitarian congregation in England was found in 1774, and in the USA 1782, but the movement did not become fully organized until the Baltimore sermon of W. E. Channing in 1819, on "Unitarian Christianity". The American Unitarian Association was founded in 1825. In 1961 the Unitarians merged with the Universalists, the joint movement becoming known as the Unitarian Universalist Association. There are more than a thousand congregations, mainly in the USA and Canada.

press ensured that Luther would have greater protection than his predecessors and his teachings would be spread quickly.

He was excommunicated and barely escaped with his life on more than one occasion, but Luther lived out his life spreading the Reformation, and died a natural death. His ideas had already spread throughout Germany, and similar reforming movements sprung up in England and Switzerland. Soon much of Europe was embroiled in a civil war, with Protestant nationalists fighting Catholic imperialists for religious and political freedom.

Socinianism: A rationalist movement within Christianity, which was a forerunner of modern Unitarianism. It developed from the ideas of Lelio Sozzini (d 1562) and his nephew Fausto (d 1604). Followers of the Sozzini hoped to restore a primitive Christianity, rejecting the accretions of Rome.

Socinianism was centered on disbelief in Trinity, original sin, the satisfaction. Socinianism focused on moralism, and Christ prophetic role, the elevation of reason in interpreting Scripture against creeds, traditions, and church authority, and support for religious toleration.

A basic statement of faith was drawn up in Fausto's revision of the Catechism of Racov. Persecution in poland led to a wide diffusion throughout Europe. The influence of Socinianism can be seen in such

Constantinople.

These various factors finally came to a head in 1054 AD, when Pope Leo IX excommunicated the patriarch of Constantinople, the leader of the Eastern Church. The Patriarch condemned the Pope in return, and the Christian church has been officially divided into West ("Roman Catholic") and East ("Greek Orthodox") ever since.

In the 1400s, some western Christians began to publicly challenge aspects of the church. They spoke against the abuse of authority and corruption in Christian leadership. They called for a return to the gospel and a stripping off of traditions and customs like the cult of the saints and relics, and the withholding of the communion wine from non-clergy. They began to translate the Bible - then available only in Latin - into the common languages of the people.

However, these early reformers did not have widespread success, and most were executed for their teachings.

Reformation الإصلاح الديني :

In 1517, a German monk named Martin Luther posted 97 complaints against the practice of selling indulgences on a church door. He had experienced a personal conversion to the doctrine of justification by faith alone, and also shared many of the ideas of those early reformers. Growing German nationalism and the invention of the printing

325 AD, Constantine called the Council of Nicea (325AD) so that the bishops could work out their differences. They condemned Arius and Arianism and declared the Son (Christ) to be of "one substance" with the Father. After the council, St. Athanasius of Alexandria continued to battle the Arians, but the orthodox view eventually won out for good. The church then turned to issues about Christ's divine and human natures, which were essentially resolved at the Council of Chalcedon (451 AD).

In the meantime, the considerable religious, cultural, and political differences between the Eastern and Western churches were becoming increasingly apparent. Religiously, the two parts of Christendom had different views on topics such as the use of icons, the nature of the Holy Spirit, and the date on which Easter should be celebrated. Culturally, the Greek East has always tended to be more philosophical and abstract in its thinking, while the Latin West tended toward a more pragmatic and legal-minded approach.

As the old saying goes: "the Greeks built metaphysical systems; the Romans built roads." The political aspects of the split began with the Emperor Constantine, who moved the capital of the Roman Empire from Rome to Constantinople (in modern Turkey). Upon his death, the empire was divided between his two sons, one of whom ruled the western half of the empire from Rome while the other ruled the eastern region from

of these letters would become part of the Christian scriptures, the "New Testament".

In the second and third centuries AD, Christians struggled with persecution from outside the church and doctrinal debates from within the church. Christian leaders, who are now called the "church fathers," wrote defenses of the false claims made against Christians (apologetics) as well as arguments against false teachings spreading within the church (polemics). Doctrines were explored, developed, and solidified, the canon of the New Testament was formed, and the notion of "apostolic succession" established a system of authority to guard against wrong interpretations of Christian teachings.

A major turning point in Christian history came in the early 4th century AD, when the Roman emperor Constantine converted to Christianity. The Christian religion became legal, persecution ceased, and thousands of pagans now found it convenient to convert to the emperor's faith. Allied with the Roman Empire, Christianity gradually rose in power and hierarchy until it became the "Christendom" that would encompass the entire western world in the Middle Ages and Renaissance.

Emperor Constantine hoped Christianity would be the uniting force of his empire, so he was distressed to hear of a dispute over Arianism, which held that Christ was more than a man but less than God himself. In

miracle-working. He spoke of the "kingdom of God," condemned religious hypocrites and interpreted the Mosaic law in new ways. He spoke before crowds of people, but also chose 12 disciples whom he taught privately. They eagerly followed him, believing him to be the long-awaited Messiah who would usher in the kingdom of God on earth.

After just a few years, however, opposition mounted against Jesus, and he was ultimately executed by crucifixion by the Romans. Most of Jesus' followers scattered, dismayed at such an unexpected outcome. But three days later, women who went to anoint his body reported that the tomb was empty and an angel told them Jesus had risen from the dead. The disciples were initially skeptical, but later came to believe. They reported that Jesus appeared to them on several occasions and then ascended into heaven before their eyes.

The remainder of the first century AD saw the number of Jesus' followers, who were soon called "Christians," grow rapidly. Instrumental in the spread of Christianity was a man named Paul, a zealous Jew who had persecuted Christians, then converted to the faith after experiencing a vision of the risen Jesus. Taking advantage of the extensive system of Roman roads and the time of peace, Paul went on numerous missionary journeys throughout the Roman Empire. He started churches, then wrote letters back to them to offer further counsel and encouragement. Many

the movement was Berlin, whence it spread to eastern Europe.

The early proponents of Haskala were convinced that Jews could be brought into the mainstream of European culture through a reform of traditional Jewish education and a breakdown of ghetto life. This meant adding secular subjects to the school curriculum, adopting the language of the larger society in place of Yiddish, abandoning traditional garb, reforming synagogue services, and taking up new occupations.

Christianity المسيحية

Major religion, stemming from the life, teachings, and death of Jesus of Nazareth (the Christ, or the Anointed One of God) in the 1st century AD. It has become the largest of the world's religions. Geographically the most widely diffused of all faiths, it has a constituency of more than 2 billion believers. Its largest groups are the Roman Catholic Church, the Eastern Orthodox churches, and the Protestant churches. In addition to these churches there are several independent churches as well as numerous sects throughout the world.

Christianity begins with Jesus of Nazareth, a Jew who was born in a small corner of the Roman Empire. Little is known of his early life, but around the age of 30, Jesus was baptized by John the Baptist and had a vision in which he received the blessing of God.

After this event, he began a ministry of teaching, healing, and

the Jewish Scriptures and rejects the Talmud and the rabbinical traditions incorporated in Judaism during the first six centuries ad. The sect was founded in Baghdād about 765 by Anan ben David, a Jewish religious leader. The doctrine of Karaism is also called Ananism. Today there are some 30,000 Karaites, concentrated largely in the so-called "Israel"; small communities are also found in the United States, Poland, France, and Turkey.

Haskalah, also called Jewish Enlightenment:

a late 18th- and 19th-century intellectual movement among the Jews of central and eastern Europe that attempted to acquaint Jews with the European secular education and culture as supplements to traditional Talmudic studies. Though the Haskala owed much of its inspiration and values to the European Enlightenment, its roots, character, and development were distinctly Jewish. When the movement began, Jews lived mostly in pales of settlement and ghettoes and followed a form of life that had evolved after centuries of segregation and discriminatory legislation.

A move toward change was initiated by a relatively few "mobile Jews" (mainly merchants) and "court Jews" (agents of various rulers and princes), whose contact with European civilization had heightened their desire to become a part of society as a whole. One of the early centres of

Sadducees: Jewish school, or party, that arose in the 1st century bc, The Sadducees, an aristocratic party, acknowledged only the written Torah as binding, rejecting the scribes' traditional interpretation and development of the Law. They rejected Pharisaic tradition, which represented an older legal and religious standpoint. The Sadducees did not believe in a resurrection or in any personal immortality, and they denied angels and spirits. The Sadducees disappeared with the fall of the Jewish temple in 70 AD.

Zealots: Jewish religious-political faction, known for its fanatical resistance to Roman rule in Judea during the 1st century ad. The Zealots emerged as a distinct political group during the reign (37-4 bc) of Herod the Great. In 6 AD, when Judea was put under direct Roman rule and the authorities ordered a census for purposes of taxation, the Zealots, led by Judas of Galilee, called for rebellion. they argued that Acknowledging the authority of the pagan Roman emperor, would mean repudiating the authority of God and submitting to slavery. An extremist group of Zealots, called Sicarii ("dagger men"), adopted terrorist tactics, assassinating Romans and also some prominent Jews who favored cooperation with the Roman authority.

Karaites: (from Hebrew qārā,"to read"), Jewish sect, considered heretical by Orthodox Jews, which believes in the strict interpretation of

is learned or memorized"), the earliest document of rabbinic literature, edited in Palestine at the turn of the 3rd century. Subsequent rabbinic study of the Mishnah in Palestine and Babylonia generated two Talmuds ("that which is studied"; also called Gemera, an Aramaic term with the same meaning), wide-ranging commentaries on the Mishnah. The Babylonian Talmud, edited about the 6th century, became the foundation document of rabbinic Judaism.

Early rabbinic writings also include exegetical and homiletical commentaries on Scripture (Midrash) and several Aramaic translations of the Pentateuch and other scriptural books (Targums). In Judaism, the study of Torah refers to the study of all this literature, not simply of the Pentateuch ("the Torah," in the narrow sense).

The Jewish groups الفرق اليهودية :

Pharisees: a Jewish school, probably dating as a distinct body, or party, from the 2nd century bc. Their chief tendency was to resist all Greek or other foreign influences that threatened to undermine the sacred religion of their fathers, and they took their stand most emphatically upon written and oral Divine Law. Their doctrine was of an ethical, spiritual, and sometimes mystical Judaism, which enabled the religion to survive the destruction (70 AD) of the Temple, and which later became the dominant form of Judaism.

covenant in a universal context. Only after successive failures to establish a covenant with rebellious humanity did God turn to a particular segment of it. "Israel" is to be a "kingdom of priests," and the ideal social order that it establishes in accordance with the divine laws is to be a model for the human race.

The Rabbinic Tradition

Although all forms of Judaism have been rooted in the Hebrew Bible (referred to by Jews as the Tanach, an acronym for its three sections: Torah, the Pentateuch; Nebiim, the prophetic literature; and Ketubim, the other writings), it would be an error to think of Judaism as simply the "religion of the Old Testament." Contemporary Judaism is ultimately derived from the rabbinic movement of the first centuries of the Christian era in Palestine and Babylonia and is therefore called rabbinic Judaism.

Rabbi, in Aramaic and Hebrew, means "my teacher." The rabbis, Jewish sages adept in studying the Scriptures and their own traditions, maintained that God had revealed to Moses on Sinai a twofold Torah. In addition to the written Torah (Scripture), God revealed an oral Torah, faithfully transmitted by word of mouth in an unbroken chain from master to disciple, and preserved now among the rabbis themselves. For the rabbis, the oral Torah was encapsulated in the Mishnah ("that which

As a complex religious tradition, Judaism has never been monolithic. Its various historical forms nonetheless have shared certain characteristic features. The most essential of these is a radical monotheism, that is, the belief that a single, transcendent God created the universe and continues providentially to govern it.

Revelation

The God who created the world revealed himself to the people, Israel, at Mount Sinai. The content of that revelation is the Torah ("revealed instruction"), God's will for humankind expressed in commandments by which individuals are to regulate their lives in interacting with one another and with God. By living in accordance with God's laws and submitting to the divine will, humanity can become a harmonious part of the cosmos.

Covenant

A third major concept in Judaism is that of the covenant or contractual agreement, between God and the Jewish people. According to tradition, the God of creation entered into a special relationship with the Jewish people at Sinai. They would acknowledge God as their sole ultimate king and legislator, agreeing to obey his laws; God, in turn, would acknowledge "Israel" as his particular people and be especially mindful of them. Both biblical authors and later Jewish tradition view this

books by Roman Catholics. The arrangements of the Jewish and Christian canons differ considerably. The Protestant and Roman Catholic arrangements more nearly match one another. By the time of the Middle Ages the books of the Bible were considered a unified entity.

Judaism اليهودية

Judaism, religious culture of the Jews (also known as the people of Israel); one of the world's oldest continuing religious traditions. The Jews spoke of Torah, God's revealed instruction to Israel, which mandated both a worldview and a way of life "Halakhah". Halakhah derives from the Hebrew word "to go" and has come to mean the "way" or "path." It encompasses Jewish law, custom, and practice. Premodern Judaism, in all its historical forms, thus constituted an integrated cultural system encompassing the totality of individual and communal existence. It is a system of sanctification in which all is to be subsumed under God's rule.

The total world Jewish population in the year 2000 was estimated at 13.2 million, of whom 5.7 million lived in the United States, 4.8 million in the so-called "Israel", 530,000 in France, and 438,000 in the former Soviet Union. These are the four largest centers of Jewish settlement.

<u>Basic doctrines and sources</u>:

<u>Monotheism</u>:

regarded by the devout as sacred. Sacred words differ from ordinary words in that they are believed either to possess and convey spiritual and magical powers or to be the means through which a divine being or other sacred reality is revealed in phrases and sentences full of power and truth.

THE BIBLE الكتاب المقدس

Bible, also called the Holy Bible, the sacred book or Scriptures of Judaism and of Christianity. The Bible of Judaism and the Bible of Christianity are different, however, in some important ways. The Jewish Bible is the Hebrew Scriptures, 39 books originally written in Hebrew, except for a few sections in Aramaic. The Christian Bible is in two parts, the Old Testament and the 27 books of the New Testament. The Old Testament is structured in two slightly different forms by the two principal divisions of Christendom. The version of the Old Testament used by Roman Catholics is the Bible of Judaism plus 7 other books and additions to books; some of the additional books were originally written in Greek, as was the New Testament. The version of the Old Testament used by Protestants is limited to the 39 books of the Jewish Bible. The other books and additions to books are called the Apocrypha by Protestants; they are generally referred to as deuterocanonical

بسم الله الرحمن الرحيم

Religion مفهوم الدين

Human beings' relation to that which they regard as holy, sacred, absolute, spiritual, divine, or worthy of especial reverence. It is also commonly regarded as consisting of the way people deal with ultimate concerns about their lives and their fate after death.

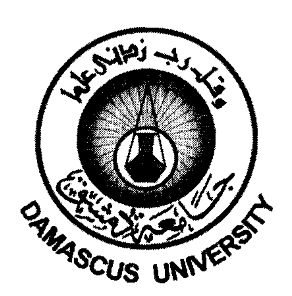
In many religions, texts are deemed to have scriptural status, and people are esteemed to be invested with spiritual or moral authority. Believers and worshipers participate in and are often enjoined to perform devotional or contemplative practices such as prayer, meditation, or particular rituals. Worship, moral conduct, right belief, and participation in religious institutions are among the constituent elements of the religious life.

Sacred scripture الكتب المقدسة

The revered texts, or Holy Writ, of the world's religions. Scriptures comprise a large part of the literature of the world. They vary greatly in form, volume, age, and degree of sacredness; but their common attribute is that their words are

جامعة دمشق

كلية الشريعة



تاريخ الأديان

قسم اللغة الأجنبية

جامعة دمشق

١٤٤١- ١٤٤٢ هـ

٢٠٢٠ - ٢٠٢١ م